مقاومة المافيا

سيرة ذاتية في العمل السياسي والمقاومة المدنية

أو كيف استعادت صقلية هويتها المسلوبة

ليولوكا اورلندو

مقاومة المافيا

سيرة ذاتية في العمل السياسي والمقاومة المدنية
أو كيف استعادت صقلية هويتها المسلوبة

تعريب

افلين ابو متري مسرّه

منشورات

المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم

معهد النهضة الصقلية Sicilian Renaissance Institute

بالتعاون مع

Encounter Books, San Francisco

Culture of Lawfulness Project, Washington

بيروت

المكتبة الشرقية

22

2005

يراجع الصفحة الانكليزية

صدر في منشورات المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم

إشراف انطوان مسرّه

1. **الحق في الذاكرة**، بالتعاون مع مركز المؤتمرات في ايانابا (قبرص)، 1988، 260 ص.
2. **العبور الى الدولة** (من المعاناة الى المواطنية)، بالتعاون مع مركز المؤتمرات في ايانابا (قبرص)، بيروت، 1992، 280 ص.
3. **البناء الديمقراطي** (الاشكالية والتخطيط للبنان ما بعد الحرب)، بالتعاون مع مؤسسة كونراد اديناور، 1994، 240 ص.
4. **مواطن الغد** (نماذج في الثقافة المدنية)، الجزء الاول، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديموقراطية، 1995، 496 ص.
5. **بناء السياسات الاجتماعية في لبنان** (الاشكالية والتخطيط)، بالتعاون مع مركز البحوث للانماء الدولي، اوتاوا (كندا)، 1995، 312 ص.
6. **الاحزاب والقوى السياسية في لبنان** (التزام واستراتيجية سلام وديموقراطية للمستقبل)، الجزء الأول، بالتعاون مع مؤسسة كونراد اديناور، 1996، 592 ص.
7. **مواطن الغد: الحريات وحقوق الانسان**، الجزء الثاني، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديموقراطية، 1998، 368 ص.
8. **الاحزاب والقوى السياسية في لبنان: تجدد والتزام**، الجزء الثاني، بالتعاون مع مؤسسة كونراد اديناور، 1997، 288 ص.
9. **علاقة المواطن بالادارة** (نماذج في المعاملات والاعلام الاداري)، الجزء الأول، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية، 1998، 388 ص.
10. **اقتصاد في سبيل العدالة الاجتماعية**، بالتعاون مع مؤسسة كونراد أديناور، 1998، 296 ص.
11. **مواطن الغد: نعيش معًا في مجتمع**، الجزء الثالث، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديموقراطية، 1997، 368 ص.
12. **النقابات والهيئات المهنية في لبنان** (استراتيجية مشاركة وديموقراطية اجتماعية)، بالتعاون مع مؤسسة كونراد أديناور، 1999، 256 ص.
13. **علاقة المواطن بالادارة** (نماذج في المعاملات والاعلام الاداري)، الجزء الثاني، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديموقراطية، 1999، 384 ص.
14. **تنمية المجتمع المدني في لبنان** (منظومة قيم ومبادرة وتواصل وتدريب)، بالتعاون مع Mercy Corps International، 2000، 752 ص.
15. **النقابات والهيئات المهنية في لبنان**، الجزء الثاني، بالتعاون مع مؤسسة كونراد اديناور، 2000، 256 ص.
16. **الحكمية المحلية** (مبادرة ومشاركة ومواطنة في المجال المحلي في لبنان)، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية، الجزء الاول ، 2002، 576 ص
17. **الجغرافية الانتخابية في لبنان: شروط التمثيل الديمقراطي**، بالتعاون مع مؤسسة كونراد اديناور، الجزء الاول، 2002، 376 ص.
18. **الحكمية المحلية: النقاش المحلي في القضايا المشتركة**، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية، الجزء الثاني، 2003، 472 ص.

19. **الجغرافية الانتخابية في لبنان: تاريخية القضاء وتقسيم الدوائر**، بالتعاون مع مؤسسة كونراد اديناور، الجزء الثاني، 2004، 624 ص,

20. **مرصد السلم الاهلي والذاكرة في لبنان**، بالتعاون مع مركز المؤتمرات في ايانابا (قبرص)ومؤسسة كونراد اديناور، 2004، 656 ص.

21. **الحكمية المحلية** (قواعد العمل الديمقراطي البلدي في لبنان)، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية، جزء 3، 2004، 592 ص.

22. ليولوكا اورلندو، **مقاومة المافيا** (سيرة ذاتية في العمل السياسي والمقاومة المدنية أو كيف استعادت صقلية هويتها المسلوبة)، بالتعاون مع Sicilian Renaissance Institute، 2005، 248 ص.

صدر في سلسلة "وثائق"Documents

Irene Lorfing, Antoine Messarra, Abdo Kahi (dir.), *Linking Civil Society to Sustainable Development* (A training Manual for Institutional Strengthening), Mercy Corps International and Lebanese Foundation for Permanent Civil Peace, 1999, 120 p.

فاعلون في السياسات الاجتماعية في لبنان، 1999.

يصدر قريبًا

23. **المرصد اللبناني للتشريع** (التواصل بين التشريع والمجتمع)، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية، 2005.

24.. **التربية على القاعدة الحقوقية** (اشكالية ومضمون وتدريب)، بالتعاون مع Culture of Lawfulness Project، Sicilian Renaissance Institute، Indevco، Programme "Génération de la relève"، 2005.

25. **دراسات في الثقافة المدنية**، 2006.

توزيع: المكتبة الشرقية، بيروت

ت 333379/200875 / 492112/217364 (01) – فاكس: 216021 (01)

E-Mail: libor@cyberia.net.lb

****

Lebanese Foundation for Permanent Civil Peace - P.O.Box 16-5738
Beirut-Lebanon 1100 - 2070

E-mail : antoine@messarra.com
http : //antoine.messarra.com - http : //www.lfpcp.org
http : //monitoringdemocracy.com

معهد النهضة الصقلية

The Sicilian Renaissance Institute

تأسس معهد النهضة الصقلية في كانون الأول 1999 وهو جمعية لا تتوخى الربح وذات منفعة عامة. أسسه ممثلون من جمعيات مدنية ايطالية اميريكية. مركزه الرئيسي في بالرمو وله ايضًا مكتب في الولايات المتحدة الاميريكية في واشنطن.

يتوافر تمويل معهد النهضة الصقلية من الهبات والاشتراكات التي تؤمنها جمعيات أو مؤسسات دولية وخصوصًا من جمعيات غير حكومية ايطالية وغير ايطالية.

يعمل المعهد على تجديد الحياة المدنية في صقلية وعلى توفير معلومات للجمعيات التي تهتم بالشأن المدني في أي دولة وجدت وذلك بتشجيع المبادرات المدنية وتقوية الثقافة والتربية على القاعدة الحقوقية وعلى الديمقراطية التي تؤدي إلى الحد من وطأة الفساد والجريمة وطريقة مقاومتهما.

أعضاء الهيئة الادارية الحالية لمعهد النهضة الصقلية:

الرئيس: ليولوكا اورلندو، نائب البرلمان الاقليمي في صقلية وسابقًا محافظ بالرمو ونائب في البرلمان الاوروبي وفي البرلمان الايطالي.

نائب الرئيس: الدكتور ريتا بورسيللينو، نائبة الرئيس في الاتحاد الوطني للجمعيات البلدية ليبيرا Libera.

المستشارون: البروفسور روي غودسون، استاذ فخري في جامعة جيورجتاون ورئيس المركز الاعلامي للاستراتيجية القومية في واشنطن، واندريا سكروزاتي رئيس مركز العلاقات العامة للشبكة الاعلامية في روما.

الرئيس الفخري: نيافة الكاردينال سلفاتور بابالاردو، رئيس أساقفة بالرمو.

الرئيس الفخري للشؤون الثقافية البروفسور وول سوينكا، حائز جائزة نوبل للآداب والبروفسور الفخري للأدب المقارن في جامعة إيميري.

http: //www.sicilianrenaissance.info/fr/presentazione.html

صدر للمترجم

ارنت ليبهارت، **الديمقراطية في المجتمع المتعدد، دراسة مقارنة**، تعريب افلين ابو متري مسرّه عن الانكليزية، بيروت، المكتبة الشرقية، 1984، 320 ص.

جورج اورويل، **مزرعة الحيوانات**، تعريب افلين ابو متري مسرّه عن الانكليزية، بيروت، المكتبة الشرقية، 1986، 88 ص.

Arend Lijphart, *Democraties*. *Les modèles majoritaires et consensuels dans vingt et un pays*, traduit de l'anglais par Evelyne Abou Mitry Messarra, Beyrouth, diffusion limitée, 1987, 242 p.

دليل المواطن الى المعاملات البلدية، في كتاب: **الحكمية المحلية: مبادرة ومشاركة ومواطنة في المجال المحلي**، بيروت، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية، المكتبة الشرقية، 3 أجزاء، جزء 1، ص 388–447؛ **ودليل الرسوم البلدية**، جزء 3، 2004، ص 309–417؛ "Rendez-nous nos pierres", vol. 3, pp. 427-430.

"العدل"، في كتاب: **مواطن الغد: نماذج في الثقافة المدنية**، بيروت، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية، المكتبة الشرقية، 3 أجزاء، جزء 1، 1995، ص 279–294.

الضرائب والرسوم غير المباشرة في لبنان (ما يجب ان يعرفه الموظف والمكلّف بالضريبة. شرح قانوني وتطبيقي)، بيروت، وزارة المالية، المعهد المالي، 1999، 144 ص.

Coexistence de la TVA et des autres taxes indirectes, Beyrouth, workshop pour la finalisation du projet de loi sur la TVA, Institut des Finances, 7-11 février 2000, 34 p.

سير العمل في وزارة المالية ودراسة في الاعتراضات، مجلس الخدمة المدنية، المعهد الوطني للادارة والانماء، 1965، 20 ص.

***

دراسات مقارنة في أنظمة المشاركة، تعريب افلين ابو متري مسرّه عن الانكليزية، يصدر في أواخر 2005.

المحتويات

مقدمة المترجم: لا تراجع في العمل المدني، **11**
مقدمة المؤلف للطبعة العربية:
كدت أكون الجثة التالية: عنفوان الهويّة ضد المافيا والرعب، **15**

مقدمة، **19**

1. عندما قلت كفى!، **27**
2. المافيا تغتال حياة شعب، **51**
3. بيرسنتي ماتاريلا، **67**
4. كارلو ألبرتو دالا كييزا، **83**
5. انتخبت محافظًا لبالرمو، **105**
6. عربة بعجلتين: القاعدة الحقوقية والثقافة، **117**
7. المحاكمة الكبرى، **137**
8. الدولة تحمي المافيا، **155**
9. حركة "لاريتي"، أو الشبكة، **167**
10. جيوفاني وبورسيللينو، **183**
11. أريد أن أعيش، **193**
12. ثقافة حريّة في المدارس، **207**
13. انتصار الذاكرة على النسيان، **231**

كلمة شكر، **245**

لا تراجع في العمل المدني

يقول اورلندو: "علمني بيرسنتي ماتاريلا بأن السياسة يمكن أن تكون مهنة شريفة حتى في بلادي. كما واني لمست عند بورسيللينو القاضي الشجاع نوعًا من القداسة!" كم تذكرني هذه الأقوال... بلبنان!

ثمة أشخاص يغيرون مجرى التاريخ. هم كغيرهم من البشر ولكنهم أتخذوا قرارًا ولزموه وعملوا له. من هؤلاء الأشخاص ليولوكا اورلندو الذي حتى الحادية عشرة من عمره كان بين الأواخر في الصف فاستفاق يومًا وقال لنفسه: كفى! ومنذ ذلك اليوم أصبح الأول حتى انه نال أعلى العلامات في أمتحانات نهاية دروسه الرسمية وقُبل لكل الاختصاصات الجامعية دون امتحان.

يقول اورلندو: "هذا الحدث غيّر تمامًا مجرى حياتي وكان أمثولة لها تأثيرها على نفسي. إذا أراد شخص أن يقول "كفى"! وقد حدث هذا معي بعد حين، لماذا لا يقول تجمع هذا الكلام؟ إذا قاله تجمّع فَلِمَ لا يقوله حيّ بكامله؟ وإذا قاله حي، فلماذا لا تقوله مدينة؟"

ومن هنا كان قرار ليولوكا الآخر، قرارًا فريدًا من نوعه، يوم عزم اورلندو على مقاومة "المافيا – الاخطبوط" التي تسلّلت الى عمق أعماق الحياة الصقلية وأفسدتها وأفسدت هوية الصقليين وحولت بالرمو العاصمة العريقة الى مدينة مهدمة أرهبت وأرعبت الصقليين كبيرهم وصغيرهم واستولت على كل مقومات الحياة في صقلية وتسربت الى الحكم دون ان تستولي عليه عملاً بمبدإها: "دائمًا داخل الدولة، أبدًا ضد الدولة". وفي احد الأيام ولم يكد اورلندو يبلغ السابعة عشرة من عمره نظر الى بالرمو العاصمة الحزينة والى الصقليين الشعب المعدم من الخوف والاجرام وقال "كفى!" المافيا دخيلة على شعبنا

يجب ان نتخلص منها ومنذ ذلك اليوم أصبحت مقاومة المافيا "وسواسًا" يراود ليولوكا اورلندو ليلاً نهارًا فلم يركن ولم يهدأ له بال حتى أصبح حلمه واقعًا وجلب المافيا، كبارها وصغارها للمحاكمة أمام القضاء.

المهم في كتاب اورلندو الأسلوب العملي الذي اتبعه ورفاقه لمقاومة المافيا. لم تكن مقاومته شفهية او خطابية كالأسلوب المتبع في لبنان وكما عبَّر عنه جيدًا راجح الخوري عندما قال: لبنان دولة "شفهيّة"، أي نتكلّم ونتكلّم ونتكلّم ولكن أين العمل؟ لا عمل، ولا من يعمل. كلنا متفرجون منتظرون، ننتظر من؟ ننتظر ماذا؟ متى نقول كفى؟ متى نصرخ كفى! وكفى!

***

عند قراءتي لسيرة ليولوكا اورلندو رافقت خطوة خطوة نشاط المؤلف في دفاعه عن بلده وشعبه وعشت معه فترات القلق والرعب والألم والهم والحزن واليأس والاحباط والشجاعة التي مر بها يومًا بعد يوم لسنين طويلة.

خاف ليولوكا اورلندو الملقَّب "بجثَّة تمشي" واختبأ وهرب وسهر الليالي الطويلة وأنهكه الهم والتعب فمرض وقلق على صحته ولكن عندما اشتدَّ عليه المرض أطمأن لأنه سوف يموت موتًا طبيعيًا كباقي البشر أي في سريره ولا يكون جثة ممزقة ومضرجة بالدماء في شوارع بالرمو كزملائه العديدين ومنهم القاضيان جيوفاني فالكوني وباولو بوسيللينو ورئيس الأمن كارلو البرتو دالا كييزا ورفاقهم الاف الصقليين **الجثث الممتازة جدًّا... والجثث العادية** الذين قضوا بتفجير السيارات المفخخة او برصاص المافيا.

عرف اورلندو اليأس والاحباط وهذا طبيعي ولكنه لم يستسلم لهما واستمر دومًا يصل ليله بنهاره منذ السابعة عشرة من عمره ويلجأ لشتى الأساليب المدنية والحضارية والثقافية للنيل من المافيا التي شوّهت صورة مدينة بالرمو مسقط رأسه وعذّبت الصقليّين صغيرهم وكبيرهم اذ انه كان مقتنعًا بأن لا مجال للتراجع في المجال المدني. ولا يزال يجول العالم للدفاع عن حقوق الإنسان وحرية الشعوب لأنه "يحلم بعالم أفضل". ولأنه

يظن بأن المافيا ولو اقتلعت من صقلية سوف تنبت في أي بلد آخر لأنها علّة من نوع السرطان. وأظن بأنها نبتت في لبنان ويقتضي استئصالها قبل أن تستشري في مجتمعنا.

***

المميز في مقاومة اورلندو للمافيا ولقوى الشر العديدة والمسيطرة منذ مئة سنة على مقومات الحياة في صقليّة والتي تهز الصقليين رعبًا في مضاجعهم بأساليب العنف التي تستعملها انه لم يلجأ مرة واحدة، ولا حتى فكريًّا، للعنف في مقاومته لها بل كانت مقاومته بالتوعية على الثقافة وعلى القاعدة الحقوقية أي مقاومة الشر والمافيا بالطرق المدنية واللاعنفية. واطلق هذه المقاومة على أربع جبهات معًا: الاعلام والثقافة والمدارس والوضع الطبيعي في البلد.

يقول اورلندو: قالت الاميركية الأولى هيلاري كلينتون عند زيارتها لبالرمو في حزيران 1990: "على كل من يشك في قدرة الحركات المدنية على بناء الديمقراطية أن يأتي الى بالرمو" وأكدت ان الشعب – وليس السياسيون – هو الذي يصرخ: "كفى!"

استعملت في هذا الكتاب عمدًا وعن قصد بعض الكلمات والتعابير البسيطة الاقرب للعامية منها للعربية الفصحى لانني وجدتها ملائمة لفكرة المؤلف وذات دلالة تعبيرية تفوق الكلمات الفصحى ولان الغاية استنتاج العبر والدروس* التي يجب ان تصل الى الاجيال العربية في ممارسة الحياة المدنية والاهتمام بالشأن العام الذي هو شأن الجميع وليس شأن فئة ضئيلة من أصحاب النفوذ والمستفيدين.

افلين ابو متري مسرّه

* شارك ليولوكا اورلندو في المؤتمر الدولي الذي عقدته المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، بالتعاون مع برنامج الثقافة الحقوقية – واشنطن ومؤسسة اندفكو وبرنامج "جبل النهوض: تربية متجددة لشباب لبنان اليوم"، حول موضوع: "التربية على القاعدة الحقوقية: مضامينها وسياقها التطبيقي والخبرات للبنان ومن لبنان"، وذلك في فندق ميريديان–كومودور في بيروت في 19-2004/3/20 وتصدر وقائعه في كتاب في أواخر 2005.

كدت اكون الجثة التالية
عنفوان الهوية ضد المافيا والرعب
ليولوكا اورلاندو

هل بإمكاننا ان نقاوم حدثًا عنيفًا ولامدنيًّا دون ان نصبح عنيفين؟

هل يمكن ان يتلازم الدفاع عن الشرعية او دعمها مع احترام الهوية؟

هل يمكن مقارنة المجتمع الذي لا يحترم الشرعيّة مع فساد المؤسّسات العامّة؟

هل يوجد نقاط مشتركة بين مقاومة المافيا الصقلّيّة ومقاومة كل المافيات وكل الارهابيّين الذين يزعمون أنهم يستمدّون وحيهم من الدّين والثّقافة والهويّة؟

الجواب على هذه الاسئلة هو نعم. نعم، التغيير ممكن. يمكن فصل الهويّة عن الشرعيّة. يمكن تنمية الهويّة ومحاربة اللاّشرعيّة. يمكن ان نكون فخورين بهويّتنا وان نحارب اللاّشرعيّة. يمكن أن نكون فخورين بهويّتنا الذاتيّة وأن نحترم حقوق الإنسان وحقوق الغير: حقهم في الحياة وفي الحريّة وفي التنمية.

الجواب على هذه الاسئلة نستوحيه من تجربة مُعاشة في أواخر الألفيّة الثانية ألا وهي تجربة بالرمو في صقلية.

| | |

تتناول صفحات هذا الكتاب سيرة حياتي والحياة التي اختارها الصقلّيّون أي المليون صقلي: وهي محاربة المافيا والفساد وفي الوقت نفسه تقوية الثقافة الصقلّية وبلورتها، مظهرين أنه بالإمكان المحافظة على الهويّة أي أن نبقى صقلييّن وأن نصبح مواطنين من العالم، ان نحتفظ بالماضي وننظر الى المستقبل، ان نكون محافظين للقِيَم وتقدمّيين في سلوكنا وتصرّفاتنا.

هذا الكتاب هو يوميّات شعب، وساعة الحائط التي تفصل بين الماضي والمستقبل، بين فرح الحياة والرعب، بين المحلي والعالمي، بين العنفوان والخجل.

اوجَدَت حياتي نموذجًا للمقاومة تبنّته اليوم الامم المتحدة وتستعمله لا فقط كأداة للمقاومة، ولكن أيضًا كأداة للوقاية، لا ضد المافيا فحسب ولكن ضد كل أشكال العنف المنظَّم الذي تدّعيه الهويّة الثقافيّة: وأقول اللاّشرعيات العنصريّة.

بالفعل لمقاومة لصّ "طبيعي" نحتاج الى الأمن والى القضاء. لمقاومة لص يدّعي أنّه يسرق باسم الله يقتضي لا الأمن فقط، ولكن الشيخ والكاهن والمواطنين والنساء والاطفال. يجب أن ننشئ وسيلة ثقافية للمقاومة وهذا يتطلّب شجاعة مواطنيّة تختلف عن الأساليب القمعيّة. يجب ان تسير عجلتا العربة بالسرعة ذاتها: عجلة القاعدة الحقوقية وعجلة الثقافة.

لنقاوم القاتل الذي يغتصب حقوق الإنسان الأساسية باسم القيمّ الثقافيّة او الدينيّة الفرضيّة لا يكفي الأمن، بل يجب ان نُظهر له أن الهويّة الثقافيّة او الدينيّة لا تحتوي بذاتها على قيمَ ضد الإنسان. وفي الوقت نفسه علينا ان نُظهر او نُبرهن أنَّ بعض القيمَ الثقافيّة والحضاريّة الإيجابيّة هي عرضة لأن تصبح "آيات شيطانية" عندما تصبح أداة للقتل أو السرقة أو اغتصاب حقوق الإنسان. فالنازيّة

باحترامها التقليدي للقوانين الالمانية غير الإنسانية جعلت من القوانين "آيات شيطانية". ويمكننا القول نفسه عن المافيا الصقلّيّة التي قتلت المواطنين باسم الشرف فجعلت من هوّيتها آية شيطانيّة. ويمكن القول نفسه عن سائر القوميّات والعقائد عندما تنادي بقتل الإنسان واغتصاب حقوقه للمحافظة عليه فتصبح "آية شيطانية".

صقلّيّة جزء من أوروبا. صقلّيّة في قلب حوض البحر المتوسط. صقلّيّة مسيحيّة. صقلّيّة عربيّة إسلاميّة. صقلية تفتخر بذاتها كونها في الوقت نفسه أوروبيّة ومتوسطيّة ومسيحيّة وعربيّة إسلاميّة.

| | |

أَخبرتُ ضمن صفحات هذا الكتاب، عبر سيرة حياتي كيف استعملَت صقلّيّة قيم العائلة والشرف والصداقة وهي قيم مهمّة في صقلّيّة – وصقلّيّة جزء من العالم العربي – المسلم – وافسدتها.

أخبرتُ عبر سيرة حياتي كيف ان هويّتنا التي تعيش من الوجود الإيجابي للقيم العربيّة أفسِدت واستُعملت للقتل، وكم هو ضروري أن ننطلق من الكبرياء بهويّتنا الذاتيّة لنرى كيف يُفسد استعمال تلك الهويُة. وأظهرت كيف حاولنا أن نجعل عجلة الشرعية تتحرّك (المجرمون والفاسدون الطفيليون الذين اندسوا من كل صوب يجب ان ننال منهم). وأظهرت كيف يجب ان تدور عجلة الثقافة. القاعدة الحقوقية حياة الهويّة ولا يمكن ان تتجاهل او تغيّر هويّة الشعوب.

أَظْهَرْتُ في هذا الكتاب أن الشرعيّة كالديمقراطيّة وكالسلم يجب ان تقوم على الهويّة. ولا يمكن لأي شخص أو لأي دولة مهما كانت عظيمة أن تفرض الشرعيّة والتنمية والديمقراطيّة والسلم دون احترام الهوية، هويّة الشعوب.

هذا ما ترمز اليه العربة ذات العجلتين.

| | |

أهدي هذا الكتاب لكلّ الذين في صقلّيّة – كما في الواقع العربي– يحبّون هويّتهم الذاتيّة والذين عملوا معًا في الماضي ويعملون حاضرًا ومستقبلاً لتستمرّ العربة الصقلّيّة بالسير قدمًا.

ليولوكا أورلاندو

مقدمة

كان ذلك في حزيران 1999، عندما نزعت بالرمو Palermo عنها أخيرًا صفة مدينة من العالم الثالث، واصبحت مدينة أوروبية كبيرة. هذه المدينة التي وصفها مسافر فرنسي في اوائل القرن العشرين قائلاً: "مدينة فيها حتى براعم الحامض والبرتقال تفوح جثثا وتعبق برائحة الموت".

كنت أتكهّن بهذا التغيير خلال السنوات التي كانت تُعرف بالرمو اثناءها بايطاليا اللبنانية، أيّ ساحة رماية للمافيا، حيث جثث القتلى الممزقة بالرصاص والمغطّاة بالدماء تتمدَّد في الشوارع، وحيث النسوة بثيابهنَّ السوداء ينظرن الى تلك "الجثث، الشهيرة" بحزن لا يوصف.

كنت أعرف بلدي جيّدًا، وأعرف أنه سيأتي يوم وينزع عنه ثوب الموت مطالبًا بالقيم التي يتميّز بها – العائلة، والصداقة، والشرف – هذه القيم التي اختطفتها منه المافيا عندما استولت عليه، وتولّت شؤونه كطفيليّة، وحولتها الى خبث وشؤم. لكن تكهّناتي لم تُؤخذ بعين الاعتبار، لأني بصفتي محافظ (mayor) بالرمو كان يتوجّب عليّ أن أظهر الصورة الجميلة لبلادي بدلاً من واقعها البشع.

في الثمانينات وأوائل التسعينات، كانت الجثث تعدّ بالآلاف، بما فيها الشخصيّات البارزة كعماد قوّات الأمن، ورئيس التحرّي، ورئيس البوليس، واثنين من أشهَر القضاة في اوروبا.

تشير بعض التقديرات الى أن عدد الضحايا في بالرمو كان يفوق عدد الضحايا في فلسطين أو بلفاست وغيرها من البلدان التي تعكّرها الاضطرابات، والتي تحتكر اهتمامات العالم. كنت أتساءل ناقدًا: "أين هي هذه المدينة من العالم الاول، هذه المدينة الاوروبية الكبيرة التي سمعنا عنها الكثير؟"

حتى في أيّام الإجرام هذه كنت أؤمن بأنّ بالرمو ستختار الحياة، لأنني كنت أؤمن بان الطبيعة الانسانية طيّبة وأنّ الله عادل. وفي حين كنت متأكدًا من أنّ هذا التغيير لا بدّ آتٍ يومًا لم أكن أحلم بأنّني سأرى ذلك وأنا على قيد الحياة.

نحن اليوم في صيف 1999. أسير في شوارع بالرمو، وأنظر اليها تنبض بالحياة، ولا أصدّق أنها رائعة مدهشة لا أثر للرعب فيها. إنني أطوف في الشوارع والجادّات، وأنظر الى صقليّة الحقيقية. بلاد لا تجسّد ضراوة الشرّ، بل هي كما كانت دائمًا في التاريخ مجالاً للقدرات الانسانية.

منذ آلاف السنين وصفت شعوب المور صقلية بانها "نقطة لقاء". وكانت بالطبيعة تحديدًا دينيًّا: إذ آمنوا أن نور الله، نور النبوّة سطع نجمه هنا، فوقهم. وبالفعل في هذه الجزيرة التقت ثقافات وحضارات عديدة وامتزجت. إذا قلتُ انّ الصقليّ هو إغريقي، عربي، إسباني، فرنسي إضافة الى أنه إيطالي، أكون قد أقول الحقيقة، ولكن جزءًا فقط منها، لأننا لم نستطع أن نطرد من شخصيّتنا فعلا العديد من الغزاة الذين اقتحموا بلادنا منذ آلاف السنين، لقد استوعبناهم وحوَّلناهم الى صقليّين. ويا للغرابة، لنستعيد هويّتنا الحقيقية، أجبرنا في النهاية على شهر السلاح ضدَّ جزء منا، من ذاتنا، الذي أصبح اليوم غريبًا عنا كلّنا: انها المافيا وثقافة الموت التي تعتمدها.

تُظهر الاحصاءات التغيّرات التي احدثناها في بالرمو. خلال أكثر من مئة سنة كان القتلى يعدوّن بالمئات سنويًا، وسنة 1999 لم نُحْصِ في بالرمو سوى إحدى عشرة جريمة ليس لأيّ منها علاقة بالمافيا. والبرهان الثابت على فك الحصار علينا هو نوعية الحياة التي نعيشها في شوارعنا وفي الساحات العامّة، حيث نتجمع في فوكسيريا Vucciria شارع التسوق التراثي، وكذلك شارع الكالسا Kalsa والشارع العربي القديم. وكلها أماكن كنّا نصفها بالمرعبة ويخيم عليها الذعر منذ سنين قريبة.

وأخيرًا عدنا إلى حريتنا، نسكن في بلدنا ونجتمع ونكتشف من جديد الأماكن الأثريّة ككنيسة سنتا ماريا ديلو سباسيمو Santa Maria dello Spasimo التي

شُيِّدت في القرن السادس عشر، والتي بقي وسطها مفتوحًا على السماء جاعلاً منها مسرحًا مأساويًا لضوء القمر كما هي حمّامات كَرَكَلاَّ في روما.

من أهمّ الأماكن التي تتوّج نهوض بالرمو مدينة للحياة هو مسرح ماسيمو Teatro Massimo. عندما بُني هذا المسرح سنة 1897، كان غايةً في الروعة، وذروةَ الفنّ، ومن أجمل صالات الأوبرا في أوروبا، ومنذ غَنَّى فيه التينور الشاب انريكو كاروزو Tenor Enrico Caruso لا جيوكوندا لبونشينللي Ponchinelli's , *La Gioconda* أصبح محطّة إلزاميّة لأشهر مغنّي الأوبرا في العالم. أغلق هذا الصرح العظيم سنة 1974، "بحجة إجراء ترميمات ملحّة وآنيّة" على أن تنتهي الأعمال خلال ستة أشهر. ولكن هذا الافتراض امتدّ على أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا، وكذلك اختفت مليارات الليرات الايطالية التي خصَّصتها الحكومة الإيطالية لتجديده في جيوب المتعهّدين المرتبطين بزعماء المافيا، وذلك بالتواطؤ بين السلطات المحلية والسياسيّين.

أصوات الأوبرا العظيمة قُدِّر لصداها أن يختنق مع انحطاط مسرح ماسيمو الذي اقتصر دوره على أن يوقِظَ ذكريات حياتنا المدنية الجميلة التي سُرِقَت منّا، بل أصبح قاعة خاصة لمجموعة تلتقي في طبقاته السفلى يوميًا لتتآلف وتلعب بالورق. لم يكن ليخطر ببال أحد بان المافيويين كانوا يلتقون هنا باستمرار مع الصحافيّين ومحترفي كسب الاموال.

استُؤنف العمل سنة 1996 في مسرح ماسيمو مجددًا ليُثبت لأهل صقليّة وللعالم أنّ شبح العنف واللاشرعية قد ولّى. في غضون سنة واحدة أعيد اليه مجده الغابر بما في ذلك الحاشية المستطيلة التي يقرأ عليها: "الفن يجدّد الشعوب ويعكس الحياة". ليلة افتتاح مسرح ماسيمو كان سكان بالرمو يتوافدون بالآلاف. لم يكونوا من مهووسي الأوبرا، ولم يبالوا بالجلوس داخل "الصالة" او خارجها. كان يكفي، بكل بساطة، ان يكونوا حاضرين يشهدون لقيامة هذا المبنى العظيم مجدّدًا من بين الانقاض.

في حزيران 1999، أظهرت بالرمو، بعودتها الى الحياة أنّ مسرح ماسيمو هو أكثر من رمز. فكان المكان الملائم لافتتاح حفلات المؤتمر الدولي لجمعية سيفيتاس Civitas، وهي مؤسّسة دوليّة تُكرِّس نفسها لانماء التربية المدنية ولرفع قيم الحرية. كانت بالرمو، باستضافتها هذا المؤتمر، مثلا أمام الذين وفدوا اليها من ثمانين دولة حول العالم، بما فيها روسيا وجيورجيا ورواندا واوغندا حيث المجتمع المدني مهدّد ومعرّض للخطر أكثر مما كان في صقليّة في ايّامها السوداء المظلمة عندما كانت المافيا تسود وتسيطر.

افتتحت السيدة الاميركية الاولى هيلاري كلينتون المؤتمر مكرّرة خطاب جون كندي الشهير في برلين قائلة للحضور الذين أتوا من العالم: "على كلّ من يشكّ في قدرة الحركات المدنية على بناء الديمقراطية ان يأتي الى بالرمو". وتحدّثت مطوّلاً عن الدروس التي يُعطيها بلدي لبلدان العالم التي لا زالت ترزح تحت وباء الجريمة واللاشرعية، وأكّدت أن الشعب – وليس السياسيون – هو الذي يصرخ "كفى!..." ويقرّر أن يستعيد مدينته وبلده وحياته الطبيعية من قوات الشر التي كبّلته طويلاً.

كنت أنظر وهي تتكلّم الى الحضور، ومنهم بينو ارلاشيPino Arlacchi الذي قاتل بكل قواه ضد المافيا كمواطن إيطالي في البدء، ثم كنائب أمين عام في الأمم المتحدة والذي يستمتع بجمال هذه اللحظة. بالرمو التي تألّمت كثيرًا تعود لمرة اخرى ملتقى الطرق أو همزة الوصل على البحر المتوسط كما كانت في القرون الاولى من التاريخ عندما أتى اليها الفينيقيّون والقرطاجيّون والاغريق والرومان والمور والنورمان واخيرًا الايطاليون وتركوا فيها آثارهم ومعالمهم. وبعد ان كانت تجارة الهيروبين والجريمة مسيطرة في الربع القرن الماضي، أصبحت بالرمو اليوم تمارس تجارة الافكار وتصدِّر الثقافات الى مدن العالم.

ان موفدي سيفيتاس Civitas وعشرات آلاف السيّاح الذين توافدوا الى بالرمو خلال صيف 1999 كانوا على علم بتاريخنا المريع. ولم يكن من الصعب وجود اثار بالرمو الاخرى، التي أسماها أحدهم كما أسماها ديدرو Diderot في **دائرة المعارف** سنة 1765، **مدينة مهدّمة**، دمّرتها الغزوات المتكرّرة في القرن التاسع

عشر، ثم قصفتها مدافع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وأكثر شراسة كانت خطة المافيا التي أسميناها "استباحة بالرمو"، اي تحويل بالرمو من مدينة عظيمة صمدت مع السنين بجمالها الى مكان يسوده الذُّعر والقبح.

هدمت بالرمو أكثر ما يكون بالجريمة. جريمة قتل الذين حاولوا أن يُنجدوا المدينة من ذاتها. وقع أبطال عديدون في بالرمو، وكل ضحية كانت تستنزف بالرمو واحلامها وآمالها. عند اغتيال الجنرال كارلو البرتو دالا كييزا Carlo Alberto Dalla Chiesa الذي استشهد بسبب قمعه للألوية الحمراء Red Brigades سنة 1982 في بالرمو، عرضت صحف المدينة صورًا لجثّته وجثّة زوجته تكسوهما الدماء تحت عنوان: "هنا دفنت آمال أهل بالرمو الشرفاء ". ومات هذا الأمل ثانية سنة 1992 عندما ذهب جيوفاني فالكوني وباولو بورسيللّينو Giovanni Falcone and Paolo Borsellino ضحيّتين في تفجير سيارة. وهما قاضيان تميزا بشجاعة فائقة، اذ تمكّنا من جلب المافيا ومحاكمتها محاكمة دولية علنية. هذه الأعمال كانت ضربة لحكومَتَي روما وصقلية وكذلك ضربة لكرامة الانسان وللمناقبية.

ولكن حتى في أحلك الساعات، ولم نكن ندري ذلك في حينه، كانت تنتظرنا حياة جديدة. ومنها اليافطة التي كتبت بخط اليد بعد مقتل فالكوني وبورسيللّينو: "اليوم بزغ فجر جديد سوف لا يعرف الغروب". وبالفعل في صيف 1999 سطعت شمس بالرمو.

| | |

عجيب، غريب! كيف عادت الامور طبيعية، مثلا عندما باشرت الاميركية الاولى ورفاقها المئة تقريبًا إدارة فندق فيلا إيجيا Villa Igiea، وهو مسكن عائلة صقلّيّة جمعت الثروة من تجارة التونا في اوائل القرن. او عندما شلسي كلينتون ذهبت برفقة ابنتي ليلى الى مرقص في ضواحي المدينة حيث لسنوات مضت لم تجرؤ أيّ امرأة شابّة أن تمرّ بها. واليوم تذهب ابنة الرئيس الاميركي بلا مرافق. التقدّم الذي أحرزناه كان جليًّا عندما ذهبت مع مندوبي سيفيتاس Civitas الى كورليوني

Corleone، مسقط رأس فرقة "المتعطّشين الى الدماء" التي قضت على المافيا "القديمة" بمعركة ذهب ضحيّتها اكثر من ألف قتيل. بدت الشوارع التي نجتازها وكأنها متاحف للجرائم الغابرة. في قاعة المدينة جرى نقاش عام حول مافيا قطّاع الطرق الكورليونية mafia gansteristica التي أرعبت بالرمو وكذلك صقلّيّة بأكملها. سألتنا مؤسّسة Civitas ما هي العبرة التي نستنتجها من تاريخنا الحديث؟ فكان جوابي: في صراعنا مع المافيا كان القضاء والقانون جبهة في معركتنا ضد العنف واللاشرعية. اما الجبهة الاخرى فهي الثقافة. والصورة التي تعبّر عما أريد قوله في صراعنا ضد المافيا اشبّهها بعربة ذات عجلتين: احداهما العمل على تطبيق القانون والثانية الثقافة. اذا دارت احدى العجلتين دون الأخرى، تبقى العربة في محلها. اما إذا دارت العجلتان معًا، فالعربة تندفع الى الامام.

حين كان رجال القانون وقضاة النيابة العامة يحاولون تطبيق القانون، كنّا من جهتنا نحاول ان نبني حياتنا المدنيّة باستعادة رموزنا الوطنية كمسرح ماسيمو مثلاً. استعدنا سياستنا بعد جيل من التواطؤ او الممالأة. والأهم ايضا هو أننا استعدنا أبناءنا ومستقبلهم. وبالاضافة الى الأماكن العامة، استولت المافيا على نظامنا التربوي ليس فقط لأنها تعلم أنَّ سيطرة الجهل على المجتمع تمكّنها من التسلّط عليه، بل لأنه وسيلة لكسب المال. أوقفنا المداخيل الناتجة عن تأجير المدارس، وبدأنا بوضع منهج تعليم ضد المافيا. احد الاعمال الفنيّة التي أراها أحد التلامذة لهيلاري كلينتون عندما تجولّت في المدينة، لوحة رُسم عليها أولاد أمسكوا بأيديهم على شكل حلقة في وسطها مجرم معزول يشهر سلاحه.

بدأنا أيضا برنامجًا مع الأولاد أسميناه "تبنَّ معلمًا اثريًا" Adopt a Monument، وكان هذا انقطاعًا ثوريًّا عن الماضي، لان المافيا، ككل السلطات التوتاليتارية، توطِّد نفوذها بطمس الذاكرة الثقافية والهويّة المدنية. في السنوات

القليلة الماضية تبنّى ما يقارب 25000 تلميذ ما يزيد على 160 معلمًا أثريًا في بالرمو: نظِّفت الكنائس مع الجدرانيات وأعيدت اليها زخرفتها، ورمِّمت المكاتب

الرسمية التي اقيمت في القرون السابقة وتجدَّدت وأعيد استعمالها. إستعادت الحدائق العامة اخضرارها وأزهرت من جديد. بعد إزالة الأوساخ عن هذه المعالم الأثرية، عرف أولادنا أنّ عملهم هذا يساعد على نزع الاوساخ التي تراكمت في نفوسهم طوال سنوات الإجرام والقتل.

استنتجت من نهضة بالرمو بأنّ الأمثولة الرئيسية التي نتعلمها هي أنّه من الممكن أن نفقد قوة الاندفاع والحماس، وحتى أن ننزلق ونتراجع في المجال السياسي / القانوني – كما فعلت الحكومة الايطاليّة أحيانا بتعاملها مع المافيا – ولكن لا مجال للتراجع في المجال المدني.

إن الشعب الذي عرف الحرية لا يعود الى حياة جماعيّة متردِّية. فهو لا يتراجع في كلامه عن المافيا بعد أن يكون قال ما قاله فيها، ولا يترك الديمقراطيّة بعد أن يكون قد اختبرها، ولا يستسلم ولا يسلِّم ثانية المعالم الأثرية والساحات العامة بعد أن عرفها وعرف تاريخها.

قال مرة باولو بورسيللينو Paolo Borsellino القاضي الشجاع وصديقي القديم الذي مات فداء لهذه البالرمو الجديدة: "ان حل مشكلة المافيا هو ان نجبر الدولة على العمل". هذا جزئيًا موضوع العدالة والقاعدة الحقوقية. هناك ايضا مشكلة الحاجات الإنسانية في المجال المدني، من الحاجة الى العمل والتوظيف – دون التواطؤ مع المنظمة الإجرامية – الى الحاجة الى الديمقراطيّة وثقافة الحريّة.

| | |

خلال صيف 1999، عندما نظرت الى مدينتي بعيون جديدة، ونظرت ايضًا الى ذاتي، شعرت بتعجّب ودهشة لأنني لا أزال على قيد الحياة. لسنوات عديدة – سنوات طويلة كما أذكر – كنت رجلا "ممرَّكًا" *I was a marked man*. السؤال لم يكن إذا كنت سأقتل بل متى وكيف. في برنامج تلفزيوني خاص بي أطلقت عليّ القناة الانكليزية England's Channel Four لقب "جثّة تمشي" *Walking Corpse*. وهذا ما كنت أشعر به. كنت أختبر

الموت بالنّيابة كل يوم. ولكن عندما دخل شعب بالرمو في فجره الجديد، وردت في ذهني فكرة جديدة: "ربّي، ما أزال حيًّا! كيف يجب أن أقضي هذه الحياة الجديدة التي أنعمت بها علي؟" والجواب كان سهلاً: أن نعيد الى هذه المدينة عظمتها الغابرة.

لا يزال برفقتي إثنا عشر مرافقًا، ونتحرّك دائمًا في سيارات مصفّحة. ما زِلْتُ أُطَأْطِئ رأسي غريزيًا وعفويًّا وأنظر وراء أكتافي بعصبيّة كلّما سمعت انفجارًا. أعرف أنّ المافيا أصبحت بعيدة، بل دُفِنَتْ إلى غير رجعة، لكنّها ما زالت تلازم الصقلّيّين في سباتهم. وحتى الساعة لم يُخلِ الذعر قلوبهم.

ماتت المافيا في لحظة خروجها من نظامنا السياسي بعد أن مكثت طويلاً في حياتنا الوطنية. واليوم لم يعد لها مكان في حكومتنا المحلية. بالرمو لم تعد منبوذة بين البلدان. عندما اعطتنا مؤخرًا Moody International Certification درجة تقدير Aa3، ووضعتنا في نفس مستوى ستوكلهم وبرشلونه، وأعلى من درجة تقدير نيويورك، أشارت الى أنّ التغيّرات في بالرمو خلال السنوات الماضية القليلة كانت بنيويّة وفي العمق. وهذه علامة ثقة وطمأنينة.

انها لمعجزة أن تخرج مدينة من الظلّ وترى الشمس من جديد. ولكنّها معجزة ذات كلفة وثمن. انني غالبًا ما أتوقّف للحظات خلال النهار، وأفكّر في كل الذين فقدوا الحياة: الشجعان والعاديّين، والشخصيات المميزة والمؤيدين الفاعلين، والمتفرّجين. أريد أن أؤمن بأن موتهم لم يكن باطلاً... لأني أؤمن بان ما حدث في صقلية، هو بالفعل قصّة ملحميّة، قصّة موت وقيامة. اما وقد تسنى لي أن أمشي في بالرمو في صيف 1999 وما بعد، أشعر غالبًا بأنّني عدت الى الحياة بعد الموت، وأشعر بشيء من الذنب وبمسؤولية من نوع خاص، وهي "أن أخبر قصّة بالرمو كما عشتُها".

1

عندما قلت كفى!

بعد اعتبار كلمة مافيا لمدة طويلة من المحرَّمات، أصبح اللغويون الآن يفتّشون بلا انقطاع عن أصل كلمة "مافيا". يقول البعض إنها تأتي من كلمة عربية مؤلفة من كلمتين **ما في**، أي لا يوجد، ومن امتزاج الاسمين ولدت كلمة مافيا. ويقول الآخرون انها تأخذ جذورها من اسم قبيلة عربية *Saracen*[*] غزت في الماضي بالرمو واحتلّتها لمدة. قيل ايضًا ان الكلمة تأتي من *M'fie* وهو اسم الكهوف التي اختبأ فيها العرب *Saracen* ثم الصقليّون أنفسهم الذين التجأوا إليها عند مجيء غاريبالدي Garibaldi سنة 1861.

النظريّة المعقولة أكثر بنظري ربّما "مافيا" Mafia هي تحوير لكلمة عربية[**]. والذي لم أفهمه بهذه الكلمة ليس أصل الكلمة الغريب الذي يعود الى تاريخ صقليّة، ولكن أنه في ايام شبابي لم يكن أحد ليتلفّظ بكلمة مافيا أبدًا. كنت مدركًا بأنها موجودة – الكلمة

---

[*] Saracen: Sarrasin = مسلم غربي أطلقه الغربيون في القرون الوسطى على مسلمي اوروبا وافريقيا.

[**] يقول الياس الخوري في مقال بعنوان **ما في مافيا** صدر في ملحق **النهار** في 18 كانون الثاني 2004: "اصل كلمة مافيا جملة اسمية مؤلفة من كلمتين: **ما في**، أي لا يوجد. انها النفي والنفي اساس العمل السرّي الذي حكم المافيا في كل مكان. ومن امتزاج الاسمين ولدت كلمة جديدة "مافيا" نسي الناس اصلها وفصلها. لكنّهم يدفعون ثمن افعالها في العالم بأسره" (ملاحظة للمعرّب).

موجودة، والمافيا موجودة في الواقع – كنت أشعر بالخوف منها تمامًا كشخص يلتقط رائحة خفيفة في الهواء، شيئًا اعتدنا عليه ولا نستطيع إثبات هويّته.

جعلني وجود شبح المافيا أو طيف المافيا في الحياة الصقلية أفكّر دائمًا بتفسير الفيلسوف الدانماركي سورين كيركيغارد Soren Kierkegaard أن جزءًا من حيرتنا dilemme الإنسانيّة انه حكم علينا بأن نعيش حياتنا الى الأمام ونفهمها الى الوراء أي نفهمها بعودتنا الى الماضي أي متأخرين. نحن الصقليّين عشنا أجيالاً وأجيالاً مع المافيا، وفي الوقت نفسه كنا نستثنيها لا فقط في حديثنا بل وأكثر من افكارنا. من مدّة قريبة فقط بدأنا نسبيًّا نفهم متأخِّرين تأثير هذا الأُخطبوط Octopus على تاريخنا وعلى ثقافتنا. وأخطبوط تسمية أخرى للكوزانوسترا. أوّل من استعملها قاض، ثم أصبحت إسم جنس عاديًّا دخلت في تاريخنا وثقافتنا.

بالتالي صقليّة هي منطقيًّا المكان الملائم لقيام ظاهرة كالمافيا. نحن شعب لم يَحكم قطّ بالفعل على أرضه. كانت صقلّية دائمًا مستعمرة، والأسوأ من هذا كانت مستعمرة تنتقل من حاكم الى آخر. لو كان هؤلاء الحكام قساة وقمعيين، لأنشأوا على الأقل حكمًا مركزيًا قويًّا، ولكن لم يكن الوضع هكذا. كانت صقلية دائمًا مكانًا يستغلّونه لا مكانًا يحكمونه. حتى القرن التاسع عشر سيطرت العائلات الارستقراطية على الحياة السياسية بنوع من الاستقلاليّة تزداد أو تتقلّص مع الغزاة القادمين الذين يحكمونها في أي وقت أو زمن. ما كان يهمّ هؤلاء البارونات (barons) هو أملاكهم الخاصة وامتيازاتهم وليس أكثر. رسم جيوزيبي دي لمبودوزا Giuseppe di Lampedusa شخصيّتهم هذه في كتابه *The Leopord* اذ قضى الامير فابريزيو Fabrizio "المُرَوْبِص" (الماشي نائمًا) حياته غير آبهٍ لأحوال بلاده او مصيرها او حتى لأرضها التي ورثها عن اجداده.

ضعفت هذه الارستقراطية مع الوقت وزالت، ولكن دون أن تترك طبقة وسطى لملء الفراغ الذي خلّفته وراءها. بل خلافًا لذلك عندما غادر البارونات الى روما وفيينّا وباريس وغيرها من الدول العالمية المفتوحة وقعت إدارة أراضيهم في أيادي رجالات من

الطبقة الوسطى يدعون غابيللوتي *Gabelloti*. كان غياب اصحاب الأراضي عن أملاكهم يكلّفهم غاليًا، لأنَّ المزارعين كانوا يستغلّون المواسم، ويعتصرون أموال البارونات الغائبين، ويراقبون قطّاع الطرق وعصابات اللصوص الذين يجولون في أنحاء البلاد.

هؤلاء المزارعون غابيللوتي مع شبكة العائلات والأصحاب والزبن التي ساندتهم كانوا التجمّع الوحيد الذي يوفّر الاستقرار الاجتماعي في غياب نظام مؤسّسي. وأصبحوا رجالات صقلية الجدد Sicily's New Men والنموذج القديم لكابي مافيا المستقبل *Capimafia*. (دون كولوجيرو للمبدوزا Lampedusa's Don Cologero هو نموذج لهذا الرجل *avant la lettre*). هؤلاء الرجال العنيفون الذين استأجرهم واستخدمهم الصقلّيون لتوطيد سلطتهم وتقويتها أصبحوا مافيويّي مستقبل صقليّة.

المافيا في صقليّة على عكس تلك في الولايات المتحدة التي أسّستها العائلات مثل غامبينو Gambino وبونانو Bonnano وغيرهم أخذت جذورها في الأرض، وتمركزت في نقطة ومحيطها مثل كورليونيه Corleone وبريزي Prizzi وغيرها من التجمّعات. ومع الوقت أقامت هذه التجمعات بين أماكنها وبين المدن مراكز كما في بالرمو. كانت الكوزانوسترا دائمًا في جوهر بنية المجتمع أكثر من تلك التي في اميركا. ثم نمت وتطورت لأنّ الدولة ذاتها في صقلّية كانت ضعيفة ومفقودة الفعالية، والشعب بسبب الاحتلالات المتكرّرة من الخارج لم يكن ليترقّب أيّ عدالة من النظام. كان الناس ينظرون الى كاريسماتية "رجال الشرف" ليقوموا بالأدوار التي كانت تقوم بها الحكومات البيروقراطية في أي من الدول الأوروبية. اذا خُطفت ابنتك أو اغتُصبت، تلتجئ الى هكذا رجل محترم "man of respect" (مافيويّ) لمعالجة الأمر لا الى سلطة بوليسية غريبة وبعيدة عنك.

أخذت شبكات المافيا في القرن التاسع عشر تدريجيًا تلعب أدوار الدولة: تحصيل الضرائب والرسوم، ووضع هرميّة تسلسليّة للقيادة، وتكوين جيوش صغيرة لتطبيق القوانين. تلاءمت الحياة السياسية والاقتصادية مع هذه التدابير وقبلت بها كواقع. وأخيرًا، عندما

عزمت الحكومة الشرعيّة في صقلّيّة على توطيد سلطتها، كان عليها أوّلاً ان تنظر الى هذا الواقع كواقع "إجرامي" وتقاومه. وكان هذا عملاً جبارًا. وهو موضوع هذا الكتاب.

أوجدت المافيا في صقلّيّة نظامًا اجتماعيًا ذا ادارة ذاتية، ولم يكن لينجح هذا النظام أو أنه لم يخلق معه خرافة أو أسطورة: أعضاؤه كانوا "رجال شرف" Men of Honor أي مجتمع أشراف لا يقومون فقط بتنظيم العمل الاجتماعي، ولكن يقومون به على اساس مبادئ. يعبّر ماريو بوزو Mario Puzo في كتابه: العُرَّاب *The Godfather* عن هذه الناحية في ذهنيّة المافيا بطريقة واقعية تمامًا: ان الذين سلكوا هذا السبيل والذين اختيروا لهذا المنصب للقيام ببعض الوظائف، انكمش بعضهم على بعض ليخدموا عائلاتهم واصدقاءهم، وفاقوا فسادًا ونفاقًا العالم المحيط بهم.

| | |

كيف اخترقت المافيا الحياة الصقلّيّة في العمق وبسرعة؟ كان ذلك سنة 1893 عندما حاول إيمانويل نوتاربارتولو Emanuele Notarbartolo، المدير العام لبنك صقلّيّة وعمدة بالرمو سابقًا، ان يفشل عمليات الفساد التي يقوم بها أحد المديرين، وهو سياسي يدعى رفاييلليه باليزولو Raffaele Palizzolo، وله روابط مع المافيا. بكل شجاعة رفع نوتاربارتولو شكوى بهذه الأعمال الإجراميّة الى الوزراء في روما. وقبل إحالة القضية الى المحاكمة قتله مجرم وهو في القطار بست وعشرين طلقة. وكان أول "جثّة ممتازة" "excellent cadavers" في صقلية.

تَمَّ استحكام المافيا التام بالبلاد في العشرينات، وجعل من هذه المنظمة عدوًّا علنيًّا لموسيليني. عندما أتى الفاشيّون إلى الحكم رأوا في المافيا ما أَنْبَتَتْه فيما بعد: "تجمُّع لأغراض إجراميّة" والتعبير لسيزاريه موري Cesare Mori. عرف موري الذي لُقِّب "بالحديد الممتاز" "Iron Perfect" بعد ان أرسله موسيليني الى صقليّة ليكسح المافيا، وبضربة شهيرة جمع المافيا في مراكز سلطتها وبدون تَجَمُّل كشف بصراحة قاسية عن

نواياه الى سكان المدن: "اسمي موري وأريد أن أقتل الشعب. يجب ان تزول الجريمة تمامًا كما تزول الغبائر عندما تهب الرياح القوية".

أحد الإجراءات التي اتُّخذت لتنظيف الجو المافيويّ يمكن ان نجده في الحدث الذي جرى سنة 1928. في تلك السنة التي سيطر فيها موري لم يحدث سوى 28 جريمة في صقليّة بينما بلغ في السنة السابقة لها 278. ولكن معظم "رجال الشرف" men of honor الذين تمَّ تطويقهم وقتلهم وسجنهم كانوا بمستوى *picciotti* أي عساكر عاديين. لأن الزعماء–القادة اختبأوا او هربوا الى الولايات المتحدة الاميريكية ومارسيليا وحتى الى تونس مُدّعين بأنهم ابطال المقاومة. وعندما باشر موري Mori سنة 1929 التحقيق بالروابط بين المافيا وبعض الشخصيات الفاشية الرفيعة المقام في النظام الفاشستي وصلته برقية تحمل خبر إقالته من الوظيفة. كان أول من يعلم ماذا ينوي الآخرون من وراء ذلك: معالجة الأمر مع المافيا عسكريًا كان أسهل من انتزاعها من الحياة السياسية ومن الثقافة في صقلية.

بعد انتصار الحلفاء سنة 1943، عندما تقدّم الحلفاء نحو بالرمو هرب الفاشيّون الى الأراضي الداخليّة. ورأى العسكريّون الأميريكيّون الفوضى: المجرمون يهربون من السجون، والفلاحون يحتلّون الأراضي، والشعب يصفي حساباته الخاصة ويثأر بالجرائم والحرائق، ومن استطاع يسرق أي شيء يستطيع نقله. ما حمل الجنرال جورج باتون George Patton على القول عن سكّان بالرمو: "إنّهم أُناس مجانين". وكما انها كانت خرافة ان يستعمل الحلفاء العصابات الاميريكيّة مثل "لاكي" لوتشيانو "Lucky" Luciano للايحاء بأنتي فاشية سرية في صقلية كان واقعًا ان يفشل بعض الاميريكيّين ببساطة عن إبعاد المافيا من النظام الاجتماعي بعد الحرب. كتب قنصل الولايات المتحدة في هذا الموضوع الى أمين عام الدّولة يقول: "لي الشّرف أن أنقل لكم أنه في 18 تشرين الثاني 1944، بحث الجنرال جيوزيبي كاستالارو Giuseppe Castallaro والزعماء المافيويّون بما فيهم كالوجيرو فيزيني Calogero Vizzini مع فيرجيليو نازي Virgilio

Nasi رئيس عائلة نازي المعروفة في ترابانيTrapani وطلب اليه ان يشارك في قيادة حركة تدعمها المافيا لاستقلال صقلية."

تخلّت الولايات المتّحدة عن فكرة انفصال صقليّة عندما خرج الألمان من إيطاليا ولكنّها لم تتخلَّ عن سخافة مقاربتها بخصوص المافيا. سنة 1945، ولا تزال المشاكل بانتظار الحلّ الذي تأخّر عن إعادة توزيع الأرض وتنظيم الاتحاد ورد في الاولويات إنشاء قوة في صقلية يمكنها مقاومة اليسار. حياتيًّا هذه فكرة مهمّة. ولكن بنتيجتها لم تكن المافيا مقبولة فقط، إنّما أفرج عنها في حلف مع الحزب الديمقراطي المسيحي الذي عليه ان يقاوم الشيوعيين على الساحة بجمع أصوات المافيا وأحيانا اللجوء الى المافيا كجناحه العسكري. هذا الحلف الجهنّمي نتج عنه عشرات القتلى من الشيوعيّين والاشتراكيّين خلال السنوات التالية، وسمح للمسيحيّين الديمقراطيّين بالبقاء في الحكم من جرّاء الاقتراع له وملازمة الصقليّين لجيل كامل.

| | |

عندما أبصرت النور في الأول من آب 1947، هذه الوقائع عن المافيا مع أنها مكتوبة، لم تكن معروفة. لم يكن ليأتي وقت الالتفات الى الوراء والى تاريخ صقلية. وكان أهلي يراقبون بعدم ارتياح المافيا تستغلّ أزمات ما بعد الحرب العالميّة الثانيّة ومشاكلها كغطاء للدخول في سياسة بلدنا وفي صميم ثقافتنا. وكذلك كان لأهلي قضاياهم الملحّة وخاصّة خوفهم من أن أموت من جرّاء إصابتي بنزلة صدرية. هذا المرض الذي كان سببًا لوفاة مولودهم الاول، كارميلو Carmelo بأيام بعد مولده سنة 1941.

كان دواء البينيسللين Penicillin دواء غير متوافر في صقليّة أيّام طفولتي. ولكن روابط والدتي العائلية ومركز والدي المرموق لكونه المحامي المدني الأهم في صقلية عالجوا القضية وتمكنوا من الحصول على الدواء "الثمين" من صيدلية الفاتيكان وشفيت. وبدل ان يخفَّ خوفهم على صحّتي زاد وأصبح "وسواسًا" يراودهم، وتحوَّل الى

نوع قريب من الهستيريا عندما اكتشفوا اثناء فحص صحّي روتيني أن قلبي هو في الجهة الخطأ من صدري. هذا الاكتشاف لاحظه طبيب أشعة. عند رؤيته صورة بالأشعة–أكس، نهر مساعده بغضب لأول وهلة ظنًّا منه بأنه طبع الصورة بطريقة خاطئة، وبعد أن أعاد الفصح لاحظ بأن كلَّ أعضاء جسمي كانت عكس الطبيعة أي كلّها معكوسة. ومنذ ذلك الوقت أحمل حول عنقي ميدالية ذهبية كُتب عليها بالخط اللاتيني هذه الكلمات: Situs viscerum inversus. وربّما يقول أحدهم إنني سرت في حياتي السياسية بالترتيب العكسي، أيضا.

كان لي أختان تكبرانني، ولكني أُعْطِيتُ دور أخي الأكبر المتوفّى أي دورالصبي البكر، وهو مركز مهم في العائلة الصقلية. كنت "لوتشيتو" "Luchetto" خصوصا عندما كان أهلي يطلبون مني أن أعمل الأشياء التي يظنّون أنها تحافظ على حياتي. "لوتشيتو، ارتَدِ معطفك، والاّ ستصاب بالرّشح وتصبح مريضًا". أو "لوتشيتو انتبه ستصدم نفسك" أو "لوتشيتو، لا تفعل ذلك، صحتك لا تسمح لك". مع العلم أنه كان لي أخوان وأختان أيضا أصغر مني كنت بطريقة غريبة كأني دائمًا بنيامين العائلة وكذلك بكرها.

وبدون استغراب نشأت مع هذا الاقتناع بان الموت كان قلقًا يطالب بي، وكان عليّ أن أعيش حصّتي من الوقت القصير الذي يعطى لي. وربما أيضا، عندما قرّرت المافيا أن تقتلني بعد ذلك، لم أخف بصورة خاصّة، لقد حُكم علي بالموت منذ أبصرت النور ولكنّي كنت أخاف الوجع والألم طبعًا، أمّا الموت ذاته فكان رفيقي لسنوات.

التواترات التي رافقتني صبيًا في صقلية توارت الآن الى الأبد ولكنّها بقيت جزءًا من حياتي. العشرون يومًا الاولى من عطلتي الصيفية مثلا كنت أمضيها في امبرياكا Imbriaca إحدى أراضي والدي الزراعية الواسعة التي تقع قريبًا من كورليونيه Corleone على بعد أربعين كيلومترًا من بالرمو. إسمها باللّهجة الصقلية "مشروب" "drunk". جاور امبرياكا أحد أملاك عائلة والدتي الشاسعة الواسعة يدعى مارجي Margi المشتقّة من كلمة "soaked" "مرنّخ" أو مبلل بالمطر. هذه الأرض مع وديانها

الخلابة وأحراجها ومنحدراتها الصخرية الشاسعة كانت أمطارها قليلة ولكن مياهها الجوفيّة غنيّة جدًا ولهذا السبب اشتقّت أسماؤها من المياه.

كان يفصل بين مرجتيّ إمبرياكا ومارجي نهر يجتازه جسر صغير كنّا نسمّيه نحن الصغار "جسر الفرح" "أو جسر الانشراح" The ponti dei Sospiri، بالاقتداء مع العادة الرومنتيكية في البندقية Venise حيث يُجبر العشاق على المرور تحت الجسر بالغندول. هذا الجسر في إمبرياكا كان يلتقي والديّ سالفاتوريه اورلندو Salvatore Orlando ووالدتي اليونورا Eleonora الابنة الصغرى في عائلة كماراتا Cammarata الارستقراطية والتي تصغره بعدة سنوات. كنّا نتخيّل قصّة مغامراتهما ومواعيد لقاءاتهما الوديّة.

كان يوجد كثير من الحب بالمقاييس الصقليّة وكان يوجد كذلك بعض الخلافات. كان آل أورلندو أعيانًا ملاّكين للأراضي وجدّي الذي يأتي من مدينة بريزي Prizzi الخلاّبة أصبح محاميًا مدنيًا كما كان والده وجدّه قبله. آل أورلندو هم من البرجوازيّة الكاثوليكيّة الريفيّة يتمسكون بالمبادئ الاخلاقيّة القويّة التي أصبحت أكثر شدّة وتغلبًّا في وضع والدي من خلال متابعة دروسه في القانون في هيديلبرغ Heidelberg. تمسَّك والدي أيضا بالتّقوى كما تمسّك بالاخلاق. كان والدي يدفع ضرائبه كاملة وبدقّة، بينما كان زملاؤه يتهرّبون منها بكل ازدراء واستخفاف. كانوا ينظرون اليه كمجنون لأنه يعمل بحرفيّة القانون، ولكن كان الحرف بنظره القانون بالمصغر.

تنحدر أمّي من ناحية والدتها من ماركيز دو أريزو The Marquizes of Arezzo – وهي أقدم أرستقراطية في إيطاليا الوسطى – ومن جهة والدها فهي من عائلة كاماراتا Cammarata وهم بارونات من كورليونيه Corleone. وقصر عائلة كاماراتا في كورليونيه الذي يشرف على ساحة المدينة الصغرى، هو اليوم مركز للمجلس البلدي. ورث مازكير دو آريزو Marquize of Arrezo لقبه أصلا بسبب أدبي، عندما كتب أحد أفراد العائلة سيرة حياة شارل الخامس، الامبراطور الروماني المعظَّم وملك

إسبانيا ونابولي وصقليّة. سُرَّ الامبراطور بعمله هذا فأغدق عليه الاموال الطائلة والألقاب والأراضي في صقليّة وكذلك أصبح آل أريزو من نبلاء المنطقة.

تمرّ والدتي دائما في حديثها عن زواجها من طبقة أدنى من طبقتها. فهذا قوّتها الوحيدة ضدّ والدي المهيب. وكانت تستعمله بكل لباقة وإساءة مبطّنة وغالبًا بنوع من الكآبة لأسباب غير واضحة تمامًا. أحد هذه الأسباب أنها لا تتردّد كما كانت قبل زواجها على صالونات الطبقة الراقية في بالرمو التي تنتمي اليها بالولادة. في الحقيقة، كان ذلك بسبب استقامة والدي، لا بسبب أصله البرجوازي الذي اختار الاثنان معًا ان يتجنّبا الدخول فيه. باستثناء أقرباء العائلتين المقرّبين لا أتذكّر انّ صديقًا واحدًا لوالدي أو لوالدتي زارنا في منزلنا بصورة مستمرة. كان ممكنًا أكثر أن نستضيف عاملاً أو مزارعًا في أملاكنا من ان نستقبل أي ضيف من الطبقة الراقية من بالرمو لا ينتمي الينا بالقرابة.

كل هذا كان يلفت انتباهي اثناء نشأتي. وفهمت نوعًا ما أن والدي كان يقصد بذلك إبعادنا عن معاشرة الطبقة الراقية التي ربما تكون على علاقة بالمافيا كما كان كثير من الصقلّيين. بعد قيام الحرب ضد المافيا وربحها أتى اليَّ أحد افراد عائلة غنيّة ومن اصل نبيل في بالرمو، رجل لم يقدِّم أيّ مساعدة عندما كانت الحرب دائرة وقال لي: "أريد أن أشكرك على ما فعلته. قدّمنا لهم أصابعنا فأخذوا أيادينا. أعطيتمونا أيدينا واستعدتم حريّتنا".

| | |

عندما كنت في الخامسة من عمري كان فرحي الكبير أن أجلس على ظهر بغل يقوده أحد القرويّين الذي يعمل في أرضنا وأذهب لأملأ الماء من الينبوع. لأن الماء الجاري لم يكن ليصل الى بيتنا في الريف في إمبرياكا Imbriaca. كانت المياه توضع في جرار كبيرة من الفخار، نربطها بمحجن ضخم ومتين من كل جانب من سرج البغل، ونأتي بها الى البيت حيث تبقى عذبة وباردة كالجليد. لم يكن من كهرباء في إمبرياكا،

كنّا نستضيء بقناديل الكاز التي تعطي ضوءًا مطموسًا ورومنسيًا في أمسيّاتنا الهادئة. انتظرنا الستينات ليأتي لنا والدي، وأخيرًا، بمولِّد للكهرباء، كان يُسمعنا ليلاً ضجيجًا لا يُطاق، فنطفئه ونتابع سهرتنا أو نذهب الى سريرنا على ضوء القنديل.

بعد البغل قدَّم لي والدي حمارًا سردينيًّا أمتطيه. وكان لي، ولي وحدي. وحلّ محلّ الأحصنة التي كان يُسمح لي نادرًا بركوبها لأنها يمكن ان تسبّب سقوط راكبها وموته كما رأيناه في فيلم "ذهب مع الريح" *Gone with the Wind*. واستمر والديَّ في الاهتمام الزائد بحياتي ولو أني كنت صحيحًا مثل إخوتي وأخواتي. كان يُستدعى الطبيب ميشيل نافارا Michele Navarra عند أيّة علامة عن نكسة صحيّة مهما كانت خفيفة، ويُطْلَب منه ان يفحَص صدري ويُطَمْئِن أهلي. والدكتور ميشيل نافارا هو طبيب أولاد وطبيبي منذ طفولتي، وهو اليوم في الواقع الطبيب الوحيد الموجود في كورليونيه.

لأن كلمة مافيا كانت ممنوعة في بيتنا لم أعرف إلاّ بعد سنوات أنّ الطبيب نافارا الذي كان يستثمر أحد أملاك عائلة والدتي آل كاماراتا كان ايضا كابومافيا في كورليونيه *Capomafia* of Corleone. وكان ذلك قبل أن تُغيِّر المخدّرات طبيعة المافيا، وأن تُغرقها في أدغال المال والعنف المجّانيّ وبقي طبيبي رجل شرف يليق به ان يهتم بأملاك عائلة ارستقراطية. بعد عدة سنوات أخذ نجم الطبيب نافارا بالأفول في فلك المافيا الكورليونية عندما طلع نجم رجل مجرم فاجر يدعى لوسيانو ليجيو Luciano Leggio. كان ليجيو سرّاق ماشية سيطر على أسطول من العربات بعد احتلال الحلفاء. كان يستعمل العربات لنقل الماشية المسروقة والمذبوحة من كورليونيه الى بالرمو ويبيعها في السوق السوداء. ولما كانت أطماع ليجيو تتزايد وقع في ورطة مع الدكتور نافارا الذي استدرجه الى لقاء بِنِيَّةِ قتله. ولكن ليجيو فرّ هاربًا وبعدها نصب كمينًا وقضى على حياة طبيبي القديم رميًا بالرصاص بينما كان يجتاز أملاك عائلتنا بسيارته.

| | |

اذا كنا نذهب إلى امبريياكا في أيّام العطلة لنركن الى الهدوء والراحة كانت تسير حياتنا في بالرمو على تواترات الحياة الصقلّيّة المعتادة منذ أجيال. كان بيتنا كبيرًا وفسيحًا يقع في وسط بالرمو في شارع فيبا فيلافرنكا Via Villafranca. كانت عائلتنا تعيش في الطابق الثالث بكامله. وفي الثاني كانت تعيش أختا والدي العازبتان، وفي الأول أخته الأخرى مع زوجها وأولادها الخمسة. ومعنا نحن السبعة أصبحنا اثني عشر ولدًا في العائلتين. وهذا يعني كثيرًا من رفاق اللّعب ما يغنينا عن استيراد أيّ غريب بيننا. أوّلا، اختبرنا ذكاءنا وقوتنا وجرأتنا على الطريقة الصقلّية: ضدّ الاقرباء بالدم. كان عالمنا كاملاً ومعزولاً تمامًا عن واقع المدينة والاكثرية الساحقة من سكّانها.

كان بيتنا جميلاً، ولم تكن والدتي لترغب في سواه. كان يخيّم عليه السكون ويملأه الحب. ولكن لم يكن فرحًا او مرحا بالضرورة. كان صعبًا ان نكون فرحين مع مربّيتنا الألمانية فرولين Fraulein التي تبقى حاضرة لتذكّرنا بالقواعد والأنظمة التي تحدّد حياتنا. كانت فرولين امرأة مسنة وطويلة وجهها شاخص العظام تُجسّد بشكل غريب كل مبادئ والدي الحازمة، وربّما لهذا السبب تتصادم دائمًا مع أمي. لم يكن الابتسام من طبيعتها، وتركت المزاح جانبًا. وفي حين كنت أفكر غالبًا بالاشياء التي أحبّ أن أفعلها لأعاقبها على استبدادها، لم يكن أحد من إخوتي أو أخواتي يجرؤ ان يبدأ بالهجوم، لأنّ الهجوم على النظام القائم لم يكن واردًا. لذلك كنا نُرَوِّح عن أنفسنا او "نفشّ خلقنا" واحدنا على الآخر فنتشاجر ونتضارب. كنا نقبل بحق فرولين في ردع أيّ منا بمفرده عند مخالفة الانتظام أو التأديب، ولكن لم نقبل أبدا أن تتدخّل في حلّ النزاعات فيما بيننا. كنا عائلة ولا مشكلة أن نتشاجر ونتقاتل ولا يحقّ لأحد مِمّن لا يشاركنا بالدم ان يقف بيننا.

على أي حال، ان كنا نخشى قصاصا، فهو فقط سكوت والدي "المُوَجِّه". كان والدي طويل القامة، جليل المنظر، يسيطر على نفسه وشعوره. وكانت عيناه، وليس منظره الخارجي، هما اللتان تلقيان الذعر في قلوبنا.كان نظره المستنكِر يسلَّط عندما يدخل الغرفة حيث نتشاجر، فيخيّم السكوت في لحظة دخوله. معنويّاته تساوي صورة

أشعّة–اكس، وعيناه تشيران الى من برأيه هو المذنب. وبدون أي تأنيب أو توبيخ، يهرول من تعرّض له هذا التحديق أو التفرّس المخزي الى غرفته، ليرتمي على سريره ويبكي. الخطوة الثانية في هذا التقليد هي ان يتبعه احدنا بسرعة ليؤاسيه ويعطيه النصيحة ذاتها في كل مرة: "اذهب واعتذر".

كانت الكلمات نفسها تنهي هذه المأساة من الذّنب والنّدم: "أبي، انا اخطأت، واطلب منك ان تسامحني". وللحال يهدأ روع والدي ويعود الى سكينته وطبيعته. ويضع قبلة على جبين "المشاغب" وتعود الحياة الى طبيعتها.

كان والدي يرى أنّ موعد وجبات الطعام هو التعبير التامّ عن طريقتنا في الحياة ويصرّ على الدقّة في مواعيدها. وبكلّ دقّة كنا نجلس كل يوم في تمام الساعة 1،30 ظهرًا لتناول الغداء، ثم تمامًا عند الساعة 8،30 مساء للعشاء. يأخذ أبي مكانه على رأس الطاولة تقابله والدتي في الجهة الأخرى، ونجلس نحن الأولاد من كل جانب منها ودائمًا في نفس المكان. فيأتي خادمنا / سائقنا نينو أو فيتوريو ايمانويل او جيوزيبي بحسب السنوات بقفازّيه الابيضين، ويقدّم الطعام لأمي أولاً، ثم لوالدي ثم لأيّ منّا. وكانت الوجبة دائمًا ذاتها: المعجّنات، ثم الطبق الرئيسي، ثم الفاكهة. طعام لذيذ وشهي ووافر وصحّيّ، لا مقبّلات ولا حلوى. لأنّ كليهما بنظرنا غير صحّيّ. لم يكن مسموحًا ترك أي شيء في الصحن. فهذا من الاسراف أو التبذير. والاسراف، ولو كنا في بحبوحة، هو خطيئة.

وخطيئة أيضًا ألاّ نسمع القدّاس يوم الأحد. حتى إنّه لم نكن لنتصوّر ذلك بكل بساطة. كنّا نذهب كالجيش الى كنيسة الرعية كل أحد باستثناء يوم عيد الميلاد. في هذا الوقت من كل سنة كانت الناحية الارستقراطية فينا تعبِّر عن ذاتها في تلك الليلة وكنا نحضر قداس نصف الليل في كنيسة فرسان مالطة Church of the Knights of Malta أو كنيسة القبر المقدس Church of the Holy Sepulcher. كان والدي من فرسان القبر المقدّس وهي جمعيّة دينيّة علمانيّة يعود تاريخ إنشائها الى القرون الوسطى مع طقوسها وشعائرها وملابسها وتقاليدها القديمة العهد. بعد قداس نصف الليل في عيد

الميلاد كنا نذهب لحفلة الاستقبال في قصر أمراء سان فانسنزو Palazzo of the Princes of San Vincenzo القصر الذي صوّر فيه المُخرج الايطالي الكبير لوشينو فيسكونتي Luchino Visconti مشهد الباليه المشهور في فيلمه *The Leopard* مع بورت لانكاستر Burt Lancaster وكلوديا كاردينال Claudia Cardinale.

كان لنا كصقليّين تقاليد عديدة مع الدين، مرتبطة بالطعام. أتذكّر ما نسميه بانيل *panelle* مسطحات رقيقة من المثلّثات وهي عجينة مصنوعة من طحين الحمص ومقلية بالزيت. والكوكسييا Cuccia، وهي حلوى مصنوعة من الحبوب والجبنة والسكر والفاكهة المجفّفة. ما ألذّها وأشهاها هذه الأطباق التي تظهر دائمًا على الطاولة بتاريخ 13 كانون الأول، عيد القديسة لوسيا حيث لا يُسمح لنا بأكل أي شيء بالقمح – لا الخبز ولا المعجّنات ولا أي حلوى تحتوي على طحين القمح – لأن التقاليد كما تقول الأسطورة انه في سنة مجاعة فاحشة، وكان الحصاد سيّئًا جدًّا وبار موسم القمح وصلت باخرة محمّلة حبوبًا الى مرفأ بالرمو بمناسبة عيد القديسة لوسيا، وكان جوع المواطنين شديدًا، فغلوه وأكلوه كاملاً دون الانتظار لطحنه. وتقول الأسطورة أيضا أن القديسة لوسيا تدخّلت بمعجزتها لتُحيي بالرمو. اليوم لا زلنا نحترم هذه التقاليد وتطوّر أهل بالرمو ليصنعوا أطباقًا شهيّة في هذه المناسبة لا يحتوي أيّ منها على قمح.

| | |

في أحد أيام حزيران سنة 1953، دخل والدي البيت بعد تفقّده الحصاد في إمبرياكا Imbriaca. ألقى عليَّ نظرة فيها الكثير من المعاني، وقال لوالدتي: "لماذا حتى هذا اليوم لا يذهب لوكا الى المدرسة؟ علمت أنّ ابن المزارع ذهب الى المدرسة في الخامسة من عمره، ولوكا في السادسة ولم يذهب بعد الى المدرسة". أن يستعمل والدي اسم لوكا وليس "لوتشيتو" كان لي ذا معان: أنا أكبر. في هذا اليوم أكثر من أي يوم مضى شعرتُ بثقل آمال والدي والترقّبات التي ينتظرها مني.

في هذا الصيف ونحن في فيلتنا الواقعة على البحر في سفيراكافالو Sferracavallo، كانت تأتي الآنسة سيريو Miss Serio معلّمة ابتدائية من بالرمو وتلقّنني الدروس. بينما يستمرّ إخوتي وأخواتي في قطف "كبوش" التوت ويمتطون الحمار الساردیني. كنت أستعدّ للدخول إلى العالم. في أواخر هذا الصيف الطويل والحارّ، أُجْرِيَ لي امتحانات، نجحت فيها وقبلت في الصف الثاني من الصفوف الابتدائيّة. فكان سرور والدي عميقًا لأني تساويت مع ابن المزارع.

تسجَّلت في مدرسة غونزاغا، المدرسة الخاصة في بالرمو. وهي تقع وسط روضة كبيرة يملكها ويديرها آباء يسوعيون، وأوجدت لنفسها شهرة في مستوياتها الأكاديمية والأخلاقيّة والتأديبيّة الصارمة. كانت للصبية فقط، بل ولزيادة في الدقة لصبيان العائلات الثرية، الأثرياء باسمهم وتاريخهم، لا للأثرياء الجدد. لم تكن مدرسة غونزاغا لتقبل أولاد حديثي النعمة. مشوارنا اليوميّ الى المدرسة كان مهيبًا أو فخمًا برفقة فرولين وسائقنا بسيارة المرسيدس السوداء الكبيرة. كانت أخواتي ينزلن أوّلا في مدرسة القلب الأقدس، ثم نحن الصبية الثلاثة نذهب الى مدرسة غونزاغا حيث نبدأ نهارنا بسماع القداس في كنيسة صغيرة خاصة بالمدرسة.

أتذكّر شيئين من تلك الأيّام: ركبتي اللتين تؤلمانني من الركوع، وبذلة المدرسة السوداء مع قبتها المُنَشَّاة. كنت أَكْرَه تلك البذلة! في الحديقة كانت ثمّة نافورة مياه لها عدّة ثقوب. وقت النزهة كنت أذهب اليها، و"عرضيا" أبلّل بذلتي، فيكون هذا عذرًا لخلعها، وأبقى "بالشورت" عندما ندخل الصف. وكان طموحي النهائي لسنوات أن أستبدل الشورت "ببنطلون" عادي طويل. وكان لي طموح آخر هو أن أكون عضوًا في الخورس، ليس لأني مولع بالموسيقى، أو لأنّ في قدرتي أن أغنّيَ جيدًا. بالفعل لم يكن لي اذن موسيقيّة. ولكن للخورس بذلة خاصة أفْضَل بقليل من بذلة المدرسة العادية. وبعد إلحاحي المستمر، قبل اساتذتي بادخالي في الخورس بشرط واحد هو أن أُحَرِّك فمي فقط وأَلاَّ أغنّي بتاتًا، حتى ولا نوتة واحدة وإلاّ أُطْرَد فورًا.

أفرحني هذا الأمر كثيرًا، وجعلتني البذلة أشعر أني أنيق جميل. هذه الفكرة تجعلني أدرك أنّ "المظهر الجميل" هو بالطبع دِين دُنْيَويّ لكلّ الايطاليّين بل وللصقلّيّين خصوصًا الذين يرون تقليديًّا أن المظهر الأنيق يغطّي ولدرجة ما يغيّر واقع الفقر. وأكثر من مرة كنت أسأل صديقًا بعد أن أُلقي خطابا أو محاضرة، كيف كان أو كيف وجده وكان الجواب الذي أَلقاهُ يُفْرِحني: "لوكا، قلت كثيرًا من الكلام الفارغ والسخيف، ولكن كنت جميل المظهر".

عدت الى البيت بعد تمارين الخورس ببذلتي الخاصة، فلم أجد هناك أيضا تقديرًا عميقًا للموسيقى. صحيح كان والدي "يدندن" غالبا ببعض الألحان، وحضور الأوبرا في المكان المخصّص لعائلتنا في تياترو ماسيمو Teatro Massimo كان طقسا آخر في حياتنا. ويحزنني أن أقول إنّه، ولو أنّنا لم ننقطع عن أية ليلة افتتاح فيه، لم تكن الموسيقى جزءًا من روحنا. كانت الموسيقى لنا وكأنّها ثوب أنيق نلبسه في بعض المناسبات وجزء من لغة طبقتنا الاجتماعيّة، لغة أظنّ أن أهمّ عبارة فيها "منظره جميل" *bella figura*.

| | |

طبعي الثائر الذي كنت أَكْبُتُه في البيت كان ينفجر في غونزاغا. كنت دائمًا الأخير في الصفّ خلال السنوات الستّ الاولى من حياتي المدرسية. كنت أرفض الدرس وأختار أصدقاء يشبهونني. وكانت النتيجة أن أتحمّل في آخر كل سنة أكاديمية ما تقوله الإدارة لأهلي "هذه السنة سنرفعه للصفّ الأعلى...". وربّما يكون للجملة تابع وهو "ولكن ربّما لا نفعل ذلك في السنة المقبلة". وبالفعل سنة بعد سنة كان ينقص عدد المتخلّفين بعدي. وفي عمر الحادية عشرة سقط آخر رفاقي المستعصين أتيليو Attillo لأن أستاذًا اكتشف أنه يكاد يحسن القراءة، فوجدت نفسي وحيدًا وقضيت السنة في آخر الصف.

أخيرًا! وكأنّ شيئًا قد تبدّل! وكأنّ شيئًا قد انكسر. كان هذا وكأني قلت لنفسي "كفى!" لا يتطلّب النجاح مني جهودًا أكثر بكثير مما يتطلبّه السقوط. ولم ألبث أن أصبحت الأوّل في الصفّ. وبقيتُ الأوّل. أن أستطيع أن أُغَيِّر تمامًا مجرى حياتي كان أمثولة لها تأثيرها على نفسي. إذا أراد شخص ان يقول "كفى!" وقد حدث هذا معي بعد حين، لماذا لا يقول تجمّع هذا الكلام؟ إذا قاله تجمّع، فلم لا يقوله حيّ بكامله؟ واذا قاله حيّ، فلماذا لا تقوله مدينة؟

أصبحت اليوم تلميذًا جيدًا، ولكن سلوكي ما زال مقلقًا. وكي أتمَكَّن من الانتقال في آخر السنة الى الصفّ الأعلى يجب أن أنال ما أقلّه 8 علامات في السلوك. كنت محظوظًا إذ نلت 7 واستؤنفت المفاوضات في آخر السنة بين أهلي وإدارة المدرسة.

كان وضعي صعبًا نوعًا ما مع الأب باربوزيو Barbosio وهو استاذ العلوم. كنت ألاحظ أن أشياء كثيرة مما يقوله في المجالين العلمي والأخلاقي يُرتاب في صحتّها. وبطريقة فظّة كنت أستخفّ به وأسخر منه. أحيانًا كنت ألعب معه ألعابًا صبيانيّة عمليّة مؤذية. مثلاً، في منتصف الاختبار، كنت أتسلّل الى مفتاح الكهرباء وأطْفِئُه، فاخرب بذلك التجربة. أو أثناء اختبار خطّي كنت أمرّر الأجوبة المكتوبة لباقي التلامذة – وبالأخص الى الذين لم يحضروا درسهم.

بعد أن عيل صبر الأب باربوزيو، ولم يعد ليتحمل، أخذني جانبًا وقال لي: "الاستمرار في هذه الطريقة لا يأتي عليك بالنفع. تصرّفك سيّئ، إنني أطردك، وتبقى خارج الصف حتى ينتهي الدرس. لا تُضِعْ عليَّ الوقت. كلما دخلت الصفّ، عليك ان تَخْرُجَ منه".

وهكذا بقيت لسنتين أقضي ساعة العلوم في الخارج، وكنت مجبرًا على الوقوف مستقيمًا قرب الباب، مثني الذراعين، ممنوعًا عليَّ أن أسترخي أو أتّكئ على الحائط. كان يسأل الأب باربوزيو التلامذة الآخرين بالترتيب الأبجديّ عن محتوى الأمثولات السابقة. أما أنا فلم يسألني بتاتًا. ولم يسمح لي، مرّة واحدة، بأن أخْطُوَ داخل الصف أو أن أُجِيبَ

عن سؤال. ربما كانت نتيجة هذا التدبير غير المقصودة ان أكون التلميذ الوحيد في الصفّ الذي درس بدقّة وإحكام كل شيء.

كنت أزرع الشّغب. ربّما يعود ذلك بجزئه الكبير الى أنّ كلّ شيء يُرْبِكُني. ومع ذلك كنتُ أفكّر أنّ كل شيء هو تحت سيطرتي. هذه العجرفة او التكبّر اختبرتها في المدرسة الثانوية عندما سمعت أنّ تلميذا أو اثنين يعرفون عن الجنس أو يتعاطون الجنس. كنّا نستعمل كلمة "تعاطي الجنس" بتشاوف وافتخار ولكن كانت حقيقته لغزًا غامضًا أو سرًّا بالنسبة لي على الأقلّ. نشأت مع الاقتناع الثابت في التعادل الذي يرتكز عليه لِحَدٍّ ما الاعتقاد الكاثوليكي: : الجسد + الجنس = الخطيئة. كلّ شيء نعمله مع الجسد، هو بالفعل، لا خطيئة فحسب بل غباء وسخافة. أتذكّر مرة أثناء التمارين الرياضية القليلة كنت أكاد أتسلّق الحبل وأبتعد عن الأرض وأشعر بكثير من الحماس عندما نظرت الى رفيقي وقد تسلّق حبلاً آخر برشاقة ووصل الى أعلاه. اتذكّر أنّني فكرّت في نفسي: "انظر اليه! إنه غبيّ فعلاً!"

غريب كيف أنّني كنت أَحْمِلُ على كلّ الأساتذة وكلّ الإداريين وأعتبرهم مختلّي العقل أو معتوهين. عندما ألتفت الى الوراء لأرى ذلك ربما أخجل من نفسي. لم يكن من شيء مضحك في تصرّفي. ولكن حدث ما لا يمكن تلافيه اليوم، فما أزال أبتسم عندما أتذكّر عميد الجامعة الذي "طيّرت له عقله" مرة، فطردني من بهو الجامعة، وحاول أن يرفسني من ظهري، حاولت الهرب من الرفسة، فطار حذاؤه ووقع على رأس طالب بريء وقف مذهولاً امام هذا المشهد الغريب.

| | |

في بلاد أخرى وفي زمن آخر ربّما كانت المدارس مرحلة انتقاليّة نخرج بعدها الى الحياة المدنيّة. ولكن ليس في صقلية وفي الخمسينات. كنا نتلقّن معظم الدروس الاجتماعية داخل العائلة. حادثة لا زالت حيّة في ذاكرتي، يومًا بعد الظهر وكان لي

مشكلة سلوك في المدرسة تأخّر والدي عن الغداء. وهذا بذاته أمر غير معهود. وقفنا نحن الأولاد نحدّق من خلال "الأباجور" – فالنوافذ كانت مقفلة، تجنّبًا للحرّ – منتظرين أن نرى سيّارته. لم يرد في ذهننا ان نتناول الطعام من دونه. وعلى كل حال لم نكن لنستطيع تناول الطعام لأن جيوزيبي Giuseppe كان برفقته.

اخبرتنا والدتي أن والدي ذهب لمقابلة الكاردينال روفيني Cardinal Ruffini، رئيس أساقفة بالرمو، وتظنّ أنّه شخصيّة تأتي درجة واحدة بعد الحبر الأعظم الذي يأتي درجة واحدة بعد الله. ولكنّ هذا لم يكن لِيُسَهِّل علينا الانتظار. وأخيرًا عند الثانية، وصلت السيّارة الى طريق بيتنا الخاصّ.

دخل والدي واعتذر للحال عن تأخّره، وجلسنا الى المائدة.

سألته والدتي بعد ان جلسنا بعدة دقائق وبصوت خافت: "هل قابلت نيافَتَهُ؟"

أجابها والدي دون ان يرفع نظره اليها: "نعم"

أضافت: "تَأَخَّرْتَ كثيرًا"

أجاب: "نعم، المحادثة كانت طويلة"

ونحن مستمرّون في تناول الغداء، دخل والدي الى غرفة حيث يمكننا ان نراقب لا أن ندخل. كانت غرفة ملأى بالمناظر والوقفات أكثر منها بالكلمات.

سألته والدتي: "ما كان موضوع اللقاء؟ عما تحدثتم؟"

فأجابها: "هل تعلمين؟ طلب منّي نَيَافَتُهُ ان أُقَدِّم ترشيحي عن المسيحيين الديمقراطيّين للانتخابات المقبلة. وأكّد لي أن الكنيسة ستكون بجانبي وتدعمني".

سألت والدتي: "ما كان جوابك؟"

أجاب: "رفضت".

لماذا؟ لم تسأل أمي هذا السؤال. أمّا أنا بسكوتي ومن دون أن أرفع نظري تساءلت: لماذا لم يقبل والدي أن يكون مرشّحًا؟ كان يمكن ان يكون نائبًا في البرلمان ورفض! يمكن ان يكون في روما مع الوزراء ورؤساء الدول ورفض!

واستأنف والدي يقول وكأنّه يجيبني مباشرة: "إذا ترشّحت مع المسيحيين الديمقراطيين، سأضطرّ لقبول أصوات المافيا".

وأخيرًا قالها! قال الكلمة! وأخذ فكري يدور بحركة دوريّة. وكأنني أصبحت سكرانَ من هذا "الكوكتيل" غير المنتظر من الكلمات الكبيرة: الكاردينال والمسيحيين الديمقراطيين والمافيا ووالدي. ما للكاردينال أن يعمل مع المافيا؟ ما كانت أصوات المافيا؟ ولماذا على والدي أن يقبلها إذا ترشّح عن المسيحيين الديمقراطيين؟ هذه الكلمات ربّما وقعت في محلّها لو علمت أنّه بهذا الوقت، استلم الكاردينال روفيني Cardinal Ruffini رسالة استعلام من الفاتيكان جوابًا عن رسالة رجل دين بروتستانتي شجاع يقول إن المافيا تسيطر على صقلّية. أجاب روفيني بموقفه هو، وهو موقف الكنيسة، لعشرات السنين: الصقليّون مُحْتَرَمون، هذه تهمة تطول الشعب الكادح. ليس ثمّة أيّ شيء أو أيّ منظّمة تسمّى المافيا، يوجد فقط أشخاص مجرمون.

غرفة والدي الخاصة الفكرية كان يتفشّى فيها تفاهم متبادل خانق شعرت به في مناسبات أخرى. عندما في أحد الأيام مثلا كنا كلّنا مستعدين للذهاب الى الريف، وحقائبنا موضوعة في المرسيدس السوداء فجأة قيل لنا: "لسنا ذاهبين الآن". لا يمكننا ان نترك ولا يمكننا السفر كما تعوّدنا ان نفعل: دائمًا على ضوء النهار واذا أمكن قافلة مع اعضاء عائلات أخرى في سيارات عديدة، والراشدون يقِظون وحَذِرون. وهذا لا يعني اتّخاذ الاحتياطات بل طريقة نتَّبعها عند تنقّلاتنا وجزء من طريقتنا في الحياة. وبعد سنين عديدة فهمت بأننا كنا نجابه باستمرار خطر الخطف. وعندما كان يتوقّف الخطف، لا لأن المافيا غيّرت شعورها نحو المواطنين ولكن لأن الخطف جريمة حمل كثيرًا من الجنود

carabiniere للانتشار في انحاء البلاد لمنع المافيا من ممارسة نشاطات إجرامية تدرّ عليها اموالاً طائلة.

كان يحرّكني الشعور نفسه – عندما يحدث شيء في الخارج يقلقني – عندما عاد والدي الى البيت وقال شيئًا مثل هذا لأمي: "رأيت كافالياري بيبينو Cavaliere Peppino رحّب بي وأجبته بتهذيب. والحمدلله لم يطلب منّي أن يأتي الى بيتنا". أو عندما كنت أرى ردّة فعله تجاه بعض أبناء عمّنا البعيدين الذين ارتبطوا في زواجهم بعائلات يلفظ اسمها بنغمة صوت مختلفة. هذا النوع من القضايا كان مثقلا بالمحرّمات، فنحن الأولاد لا يسأل بعضنا بعضًا عن هذه المواضيع، وأكثر من ذلك لا نسأل أهلنا "ما المشكلة"؟ "ماذا عن هذا الشيء؟" كنا نقبل الأشياء كما هي. أن نؤجّل ذهابنا الى الريف، أمر له ولا شك، سبب واضح، ولكننا لا نتكلّم عنه.

كذلك كانت مشاعرنا عاديّة والأحداث تتكرّر في حياتنا. وهذا الغداء الذي بقي في ذاكرتي هو شيء مختلف. منذ ذلك الحين أصبحت المافيا حقيقة بالنسبة لي لا مجرّد كلمة، وأخذت هذه الحقيقة تستقرّ بل تملّكت فيّ. لم تكن الشر فحسب، بل كانت شيئًا غامضًا، ملتويًا، معاكسًا، ملوّثًا، موبوءًا. شيء يلطِّخ الذين يلمسونه حتى اولئك الذين لا يلمسونه.

عندما التزمت بعد حين حربي على المافيا سرت الاشاعات بأن والدي، كان مستشارًا في المافيا، والدي الرجل الذي لا تشوبه شائبة من الناحية الأخلاقيّة، والذي لم أجد في حياتي رجلا يضاهيه أخلاقية ومناقبية هو مجرم بالاستنتاج: هو رجل سلطة، رجال المافيا اقوياء شديدو البأس، لهذا السبب هو على علاقة بالمافيا. عندما أقمت دعوى ضدّ صاحب هذا الافتراء وربحتها بالحكم النهائي بمبلغ 100 مليون لير توقَّفت الاشاعات فورًا.

| | |

في مدرسة غونزاغا طوال سنواتي الدراسيّة كلّها لم يُذكر بتاتًا موضوع المافيا، ولا حتى في الصفوف الثانوية. وهذا لا يعني أننا كنا نتجنّب او نتحاشى الموضوع. لم يكن الموضوع ليرد في البال، بل، بكل بساطة، لم يكن للموضوع وجود. كنّا نعيش كلّنا تحت جرّة جميلة، لا أولاد العائلات الميسورة والغنية الذين يدرسون في مدرسة غونزاغا فحسب، بل كل الصقلّيين. جهلنا كان متعمّدًا واليوم يجب ان نسمّيه "**جحودًا**" و"إنكارًا". نعم، يجب ان تكون المافيا بحكم الواقع مخفيّة غير منظورة كمنظمّة، حتى ولو استطعنا رؤيتها من خلال أعمالها، وليس في الموت الظرفي فقط، ولكن ايضا بتغيير صورة بلدنا. لذلك ما جرى في الخمسينات والستينات والذي عرف فيما بعد "باستباحة بالرمو" Sack of Palermo أمكن له ان يسود ويسيطر.

بعد الحرب، جرى ما سُمّي بالاصلاح الزراعي. وكانت النتيجة بالعكس، وهي أن قليلاً من الفلاحين استعادوا أراضي قليلة من املاكهم بينما تجردت الأكثرية من أراضيها كليًّا. ونزح مئات الالوف من القرويّين الى المدينة. كان لمجيئهم تأثير كبير، بل رواج وإطلاق ورشة البناء بعد الحرب العالمية الثانية في بالرمو. في صقلية 70 بالمئة من الناتج القومي الاجمالي هو للحكومة، والحكومة تستمرّ بالبناء وتستمرّ بصرف الأموال. ولكن فورة هذا البناء تختلف تمامًا عن أية فورة أخرى.

صادفت فورة البناء هذه ظهور رجلين شابيّن سالفو ليما وفيتوتشييانتشيمينو Salvo Lima and Vito Ciancimino. كانت المافيا في دم ليما: هو ابن المافيوي فانسنزو ليما Vincenzo Lima. تشييانتشيمينو هو عضو "مصنوع" "made" member من الكوزانوسترا. وتوصّل الرجلان الى قيادة الحزب الديمقراطي المسيحي في بالرمو في الخمسينات، وهما أوّل جيل من السياسيّين له علاقات مافياويّة ضيّقة وصريحة. في اوائل الستّينات كان ليما محافظ بالرمو وتشييانتشيمينو مستشاره في قطاع الأشغال العامّة – وهو أهمّ القطاعات الأخرى. أشرف كلاهما على مشروع "تصميم المدينة" المخزي والقبيح الذي اصبح "Town Plan" بالواقع "تصميم استباحة بالرمو".

امتدّ انتشار البناء هذا الى المساحات الخضراء في أطراف المدينة وضواحيها، مساحات يمتلكها على السواء الأصدقاء و"أصدقاء الأصدقاء" وللحال ارتفعت أسعارها بشكل غريب. وطراز من الهندسة المعماريّة يمكن ان نسميه بكل بساطة "انتشار طراز المافيا الحديث" "Mafia Moderne Sprang Up". بنايات من "علب الإسمنت" للنّازحين من المناطق الريفيّة، هيكليّات رديئة قبيحة تعبّر عن إهانة مبطّنة للشعب الفقير الذي شغلها، ولم يتمكّن من الاستفادة من الخدمات البلديّة عندما استقرّ فيها. بعض المناطق في المدينة لم تكن ليصل اليها الماء والغاز والكهرباء لا لبعض الأيّام بل لأشهر وخصوصًا لسنوات!. امام هذا المنظر من الهجمة "الباطونية" والى هذه الادغال من الأبنية يفهم المشاهد لماذا نسبة الاستهلاك الفردي على الأرض ليست في صقلّية زيت الزيتون أو البندورة أو السمك الصغير "الاونشوا" ولكن ايضا الإسمنت.

أشرف ليما وتشيانتشيمينو على مخطّط "استباحة بالرمو" وخوّلا المافيا بمراقبتها من خلال جبهات – أعمال – البناء التي درّت عليهما أموالا طائلة. اليوم هُدمت هذه الأبنية تنكّرًا لقباحتها. الوادي الذهبيّ الخلاّب كونكا دورو Conca D'oro الذي كانت تملأه أشجار الليمون وتعطر أجواءه روائحها العطرة في الربيع ابتلعها الإسمنت. وأصاب القدر نفسه مناطق أخرى مثل بيانا دي كولي Piana dei Colli، التي اشتهرت بفيلاتها الجميلة المبنيّة في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

حاول والدي ان ينجي منزلنا من هذه الهجمة بإقناع السلطات باعتباره وتصنيفه مهمًّا تاريخيًّا. وهذا ما خوّله ان يقول لطالبي شراء المنزل بنيّة هدمه وإنشاء بناء كبير مكانه إنّه لا يستطيع بسبب تصنيف البناء. ولكن مالكين آخرين اكثر يسرًا وغنًى من والدي لم يتّبعوا هذه الخطى، بل بالعكس شاركوا في مشاريع بناء المافيا. الفيلات الجميلة الجديدة في شارع فييا ليبرتا Via Liberta هُدمت ليقوم مكانها الأبنية المفرزة. هيكليّات عديدة يحمي معالمها نظام حكم عليها بالفناء ومعدّة بالنهاية الى الهدم.

وكانت النتيجة هدم مدينة وفكرها. بالاضافة الى الشقق الضيقة والمنظورة في ضواحي المدينة وأطرافها كانت مشاريع الطرق السوريالية التي تقودك الى أماكن ومصانع لم تنتج أبدًا أي شيء بينما ترك وسط المدينة ليتقلّص من الاهمال – وأبنية المور الخلابة وكنائس النورمان التي ضربتها الانقاض الشبيهة ببيدفورد ستويفازنت في نيويورك New York's Bedford-Stuyvesant. وتراجع عدد سكّان المدينة بين ليلة وضحاها من مئة ألف ليصبح أقل من أربعين ألف مع الذين ظلّوا يعيشون في بؤسِ العالم الثالث وفقره.

وبينما كان يحدث كل هذا– اي تحويل بالرمو الى عاصمة للمافيا Mafia Polis – لم يكن أحد ليتفوَّه بكلمة. قاعدة "سكوت" المافيا code of "omerta" أصبحت، من زمن بعيد، بلاءً وطنيًّا.

2

المافيا تغتال حياة شعب

انهيت دراستي الثانوية سنة 1965، ونلت شهادة الماتوريتا *Maturita*، وهي شهادة ثانوية رسمية تشرف عليها لجنة رسمية، وتحصر اهتمامها بالتخصّص الاكاديمي الذي اخترتُ منه اليونانيّة واللاتينيّة. أهمّ مدرسة رسميّة في بالرمو مدرسة غاريبالدي The Garibaldi حيث المنافسة بين التلامذة كانت مفعمة بالحيويّة والنشاط. كان تلامذتها يُنعتون بالغاريبالديين ونحن بالغونزاغيين. واتّسمت منافستنا للغاريبالديين بصبغة من الحسد والغيرة بل بشيء من العدائيّة. ليس فقط لأن غاريبالدي كانت مدرسة مختلطة وتضاهي في المستوى مدرستنا، بل لأنها بقيت بعيدة عن المناخ القمعيّ الذي تميّزت به مدرستنا.

نلت تلك السنة أعلى العلامات في الامتحانات الرسميّة في إيطاليا. فاصبحتُ ظاهرة مميّزة إذ نشر اسمي وخبر فوزي على صفحات الجرائد في صقليّة. هذا الحدث غير المنتظر فاجأ والدي الذي وعدني للوهلة الأولى بسيارة بورش حمراء فخمة جدًّا للتعبير عن فرحه واعتزازه بي. لكنّه لم يلبث ان استبدل بها سيارة فيات صغيرة، لأنه رأى أن تقديم سيارة بورش لفتى في الثامنة عشرة من عمره ليس بعمل "تربويّ". وبما أنه لم يسمح لي بتاتًا باقتناء درّاجة هوائيّة طرت فرحًا لفكرة اقتناء أيّ سيارة تكون.

نشرت جريدة الأورا Ora الشيوعية المحلّيّة التي تصدر بعد الظهر أنّها تقدمّ لمن ينال في مقاطعة بالرمو أعلى علامات في الامتحانات الرسمية *Maturita classica*

سفرا ومنحة لتمضية عشرة أيّام في موسكو مع تغطية كاملة لمصاريف الرحلة والإقامة. ولم تكد تُنشر النتائج حتى ذهبتُ الى مركز الاورا Ora الرئيسي لأطالب بالجائزة. بعد انتظار طويل استقبلني أحد المحرّرين الكبار. ولم أكد أقدّم له نفسي حتى تغيّرت ملامح وجهه، وكأنه يقابل رجلاً من المرّيخ. نحن في سنة 1965، في قمّة الحرب الباردة، وتلميذ غونزاغي، تلميذ يسوعيّ، يحاول الحصول على سفر مجّاني الى روسيا البلد الأمّ للشيوعيين. واليسوعيون هم أعداء الشيوعيّين اللدودون!

فاجأني بقوله: "لا تستطع الإستفادة من المنحة".

فقلت: "ولماذا؟"

أجاب: "لأنك تلميذ مدرسة خاصّة".

قلت: "ما الفرق لو درست في مدرسة خاصّة أو في تمبوكتو Timbuktu. أجريت الامتحانات أمام هيئة رسمية، مثلي مثل سائر التلاميذ! وَعَدْتُم بسفر لمن ينال أعلى العلامات. وأنا نِلْتُ أعلى العلامات".

اعتلت نظرة من الملل والانتصار وجهه، وقال: "أنا متأسّف، لا نسمح لتلميذ من المدارس الخاصّة – خصوصًا تلميذ مدرسة دينية – بالذهاب الى موسكو". ونال المنحة سالفينو مازاموتو Salvino Mazamutto الذي أتى بَعدي بمجموع علاماته. فهو تلقّن علومه في مدرسة رسمية، وكان ناشطًا في حركة الشبيبة الشيوعيّة وأصبح فيما بعد صديقًا لي.

ترك هذا الحدث لتوّه في نفسي استغرابًا وشعورًا مؤلمًا باللاعدل. ولكن بعد تراجع هذا الشعور بدأت أتساءل عن نظرة الازدراء او الاحتقار التي خصّني بها محرّر الاورا وعمّا يبرّرها. صحيح أنّ عالمي الاجتماعي، وبالتحديد قصرنا في بالرمو، وبيتنا الفخم القائم على شاطئ البحر، وأصدقائي وأترابي في مدرسة غونزاغا أغنياء وكاثوليكيون "وأولاد مدلّلون". ما العلاقة بين العالم الحقيقي والعالم الذي أختبره؟ ما العلاقة بين العالم الحقيقي والحفلات السنوية، والكارنفالات حيث كنت أنتظر كفتى صغير، مرتديًا زيّ علاء

الدين أو بينوكيو، مجتمعًا في صالات قصر زينو Ziino مع رفاقي أولاد العائلات المرموقة، وقد تحلّوا بالزيّ نفسه – وآل زينو هم من أعزّ أصدقاء والديّ – أو استقبالات عيد الميلاد في قصر سان فانسنزو Vincenzo، حيث تمتلئ الصالات بنخبة المجتمع الأرستقراطية، وحيث لا أحد يلقي عليَّ نظرات وكأني من جنس غريب ومختلف!

ما زاد هذه الأفكار تشككًا والتباسًا لقاء آخر مررت به صيف 1965 أيضًا، اذ أتى يومًا زميل وصديق لي في المدرسة يدعى ناني Nanni، وطلب مني أن أرافقه الى سان مارتينو الذي يقع على تلّة جميلة فوق بالرمو، حيث كان ينتظره صديق آخر هو ماركو لوبو Marco Lupo. وفي طريقنا الى سان مارتينو علمت أنّ ناني كان يريد مقابلة صديقة له تدعى فاليري تعيش مع عائلة ماركو لوبو. عندما وصلنا خرجت فاليري برفقة صديقة لها هي ميللّي Milli أخت ماركو لوبو. كان يغطّى رأس ميللي شعر اسود ربط بجديلتين تكشف عن وجه صغير وجميل. نظرت إليّ وكأنها أرنب خائف. وبما ان علاماتي في امتحانات ماتوريتا جعلت مني شهرة محلّيّة سألتني ميللي للتوّ عن رأيي في نظرية كانت Kant وانتقاده للعقل المجرّد. وبدأت خجولاً أعرض لها النظرية.

تمشّينا تحت أشجار الصنوبر في سان مارتينو، نتنشّق الهواء العطر، ونتحدّث عن مواضيع فلسفية قبل ان ندعى إلى تناول الحلوى في الفيلّلا. لم تكن الفيلّلا ملكًا لعائلة لوبو بل استأجروها موقّتًا حتى إنهاء أعمال بناء فيلّتهم الخاصّة. وما لفت نظري أنّ هذا البيت يختلف تمامًا عن البيوت التي عرفتها. لم يكن بيتًا مملوءًا بالضحك والفكاهات فقط، بل كان يفيض بالفرح، الفرح الحقيقي. وجعلني أفكر في أنّ المنازل التي ترعرعت فيها كانت جميلة وهنيئة وسعيدة، ولكن لم يعمّها هكذا فرح. في هذا البيت، كانت الأحاديث تنتقل، أثناء تناولنا الحلوى، من الفلسفة الى السينما الى التاريخ الى الموسيقى.

لم أَلْبَث بعد ذلك بقليل أن سافرت لشهر واحد الى لندن لدراسة الانكليزية. في أحد الأيّام، رنَّ جرس الهاتف. كانت ميللّي التي تسكن لندن وقد أخذت رقمي الهاتفي من ناني. وفي الأسابيع القليلة الباقية زرنا غاليري تايت Tate gallery، والمتحف

البريطاني، وبرج لندن ومتحف فيكتوريا والبير. تمشّينا في الحدائق العامّة وحضرنا المسرحيات. وشاهدنا *My Fair Lady* وخرجنا ندندن الأنغام معًا. أكثر ما كان يجذبني إلى ميللّي كان طبيعتها normality. هِمْتُ في حبِّهما. حبِّي لها وحبِّي للبساطة التي تتميز بها. كنت أرى بيت ميللّي دائمًا عند خروجي من نفق القطار، لأنها كانت تسكن واتفورد Watford، آخر محطّة على خطّ باكرلو Bakerloo ثم أعود بحالة من النشوة والفرح إلى شارع Finchley حيث أسكن في فندق للطلاّب.

كانت ميللّي تقيم في لندن قبل أن آتي إليها. ويوم سفرها رافقتني الى حفلة رقص صاخبة يُقيمها الشباب المحافظون ثم أوصلتها الى مطار هيثرو Heathrow حيث استقلّت الطائرة بعد ان أعطتني *The Charterhouse of Parma* كهديّة للوداع. في اليوم التالي ألمّت بي وعكة صحّيّة ولم تمضِ أيّام حتى دخلتُ مستشفى بادينغتون Paddington، إذ أُصبت بالتهاب رئويّ للمرة الثانية في حياتي. لم أشأ أن يعرف أهلي بذلك، فخابرتهم وطَمْأَنْتُهم أنّي بخير، وأنّي سأترك الفندق لعدّة أيّام أقوم أثناءها برحلة قصيرة.

ولا أدري لماذا حضر والدايّ عشيّة اليوم نفسه الى لندن، وبالذات الى مستشفى بادينغتون. هل صوتي المتوتّر أو حاسّة سادسة دفعتهم لذلك، واصطحباني في الحال الى المستشفى الإيطالي عند ساحة الملكة Queen Square حيث عولجت لثلاثة أسابيع، أقاوم فيها المرض بجانبي والديّ. هنا اكتشفتُ الكاتب الفرنسي ستاندال Stendhal وقرأت بعض أعماله بشغف كبير.

| | |

عدت إلى بالرمو في الخريف، حيث تبدأ مهلة التسجيل الجامعي. لم أكن ملزمًا باختيار مادّة محدّدة لأنّ الاختبار الجامعي أبرز أنّني "مؤهّل لسائر الموادّ"، فاخترتُ الحقوق لمتابعة دراستي الجامعيّة، وهذا ما اعتاد عليه آل أورلندو في تقاليدهم.

واستأنفتُ علاقتي مع ميللّي التي أخذت على عاتقها أن تتابع علاقتها معي لأصبح "طبيعيًّا" "to normalize me". كان المجتمع الارستقراطي حيث أعيش يذرف الدموع سخيّة على أولاد بيافرا Biafra الذين يموتون جوعًا، ولا يعرف أو يتجاهل المآسي التي تعيشها يوميًا الطبقات المعدمة في بالرمو. من خلال ميللّي اكتشفتُ أن في بالرمو ذاتها وفي بلدي شعبًا فقيرًا وطبقات مدحورة ومعدمة. وكانت أوّل ردّة فعل منّي وكما تربّيت أن أَتَبَرَّع بالمال لمساعدتهم، على عكس ميللّي التي قدّمت المساعدة بنفسها ولم تُعلم أحدًا بما فعلته من خير وحسنة. ميللّي كانت مختلفة. كتبت الى بابا روما تطلب منه أن تضاعف الكنيسة اهتمامها بالفقراء. أن تكتب للحبر الأعظم! من يخطر بباله ان يكتب للحبر الأعظم! وعلّمتني ميللّي أيضًا السباحة. لقد كنت أمضي شهرين من السنة على شاطئ البحر في فيلّتنا وكنت أخاف من الماء.

سنة 1968 بعد زلزال وادي بيليس Belice في صقلّيّة الذي ذهب ضحيته مئات الاشخاص وتشرّد آلاف الآخرين، اخذت ميللي شحنة من الألبسة والحاجات الضرورية للمناطق المنكوبة باسم تجمّع قدامى تلامذة غونزاغا. لم أكن قريبًا لأي من الضحايا، ولكن كبقيّة أترابي كنت سعيدًا لأننا قمنا بما يسمّونه في الولايات المتحدة عمل خير "feel-good work". لكن ميللّي كانت معنيّة مباشرة. اصطحبتني لملاقاة عائلة منكوبة خسرت بنتيجة الزلزال بيتها ومتجرها وكان للوالدين خمسة أولاد لم يعد بوسعهما إعالتهم. فاضطرّ الوالدان للجوء الى ألمانيا للعمل واصطحبا معهما ابنهما الأكبر. أمّا الأولاد الأربعة الباقون وتتراوح أعمارهم بين سنة وثماني سنوات فقد طُلب من ميللّي ومنّي السهر عليهم. ولثلاث سنوات كان يقيم فيها الأولاد في عائلات مختلفة كنّا نلعبُ دور الوالدين نسهر على حاجاتهم المادّيّة والمعنويّة. وعند عودة الوالدين الى صقلّية بعد تحصيلهما بعض المال اضطررنا ان نقدّمهما الى أصغر أبنائهما الذي لم يكن يتذكّرهما.

لم ألتزم مقاومة المافيا حبًّا ودفاعًا عن القانون والنظام. حاربتُ المافيا لأنّني كنت أعرف وأشعر بأنّ خيوط المافيا تغتال حياة شعب بأكمله، وتعلّمت أوّلاً ان آخذ حذري من هؤلاء المجرمين لأن ميللّي نبّهتني إلى ذلك.

| | |

كنت الجيل الرابع من آل أورلندو الذي يدرس الحقوق ولكنّي أوّل من يدرسها في جامعة حيثُ والده ليس أستاذًا فقط فيها بل عميدها. ما جعلني في وضع مُحرج ومُربك. كانت جامعات بالرمو سنتي 1968 و1969 تغصّ بالتجمّعات والمعارضين، وكنت أنا أعارض مثلهم، ولكن رفاقي كانوا ينظرون إليّ بشيء من الشكّ والحذر، إذ إنّني ابن عميد الجامعة. لم يكن رفاقي ليعلموا بالوضع المحرج والسوريالي الذي أعيشه في البيت. كنت أرجع مباشرة من تظاهرة صاخبة لأجلس الى مائدة الطعام بجانب والدي الذي كنت أحتلّ مبناه، يخدمنا جيوزبي بزيّه الأبيض وقفّازيه مقدّمًا لنا الطعام. لم نكن لنتحدّث بالموضوع فيما بيننا. كان الموضوع موجودًا بيننا على المسافة نفسها يراود دائمًا أذهاننا ولا نتبادله أبدًا في أحاديثنا.

في هذه الأثناء التقيت كاهنًا يسوعيًّا، هو الأب أنيو بنتاكودا Ennio Pintacuda، وهو أخو أستاذي في التاريخ والفلسفة في مدرسة غونزاغا، فترك في حياتي أثرًا عميقًا. وآل بنتاكودا جماعة من مدينة بريزي Prizzi، وهي مسقط رأس جدّي، وثلاثة من أبنائهم أصبحوا كهنة يسوعيّين. ولأنّ صقلّيّة هي بالفعل مدينة صغيرة كبيرة، تعرّفت فيها الى آل بنتاكودا دون أن أعرفهم جيدًا.

كان الأب بنتاكودا صغير القامة، أعقف الأنف، أصلع الرأس ومحدودب الظهر. كان معسول الكلام يخترقك نظره من خلال نظّارتين كبيرتين. كان مصيبًا في رأيه وحساباته. ما شدّني اليه هو هذا المزيج من القيَم الأخلاقية والسياسة البراغماتيّة. كان يرى أنَّ التغيير في المجتمع هو فنّ الممكن، وطريقة للانتقال من مكان الى آخر.

كانت غرفته في السنوات الأخيرة في مركز العلوم الاجتماعية حيث يشاطره السكن فيها أب يسوعيّ آخر، وكانت تغصّ بالكتب والمجلاّت والمنشورات والصحف وقصاصات الورق الموضوعة كبرج بيزا Leaning Tower-of-Pisa على الرفوف والأرض والكراسيّ. كم كان ممتعًا ان تنظر اليه في هذه الفوضى الجميلة. وقد اختفى جسمه النحيل وراء المكتب حيث أَهَّلَ مكانًا صغيرًا منه للكتابة. واكتشفت فيما بعد أن الأب بنتاكودا يمتلكه هوس التوثيق وجمع قصاصات الصحف في مواضيع مختلفة ومتفرّقة يحتفظ بها بغيرة ويخاف عليها من الضّياع.

استعمل هذه العدّة أحسن استعمال. فيما بعد 1968 أراد أن يكون شخصيّة أساسيّة في مقاومة كوزانوسترا Cosa Nostra وسياسة الفساد. وكلاهما وجهان لنفس العملة. كان مشمئزًّا من الفساد الذي سيطر على الحزب الديمقراطي المسيحي، ونفر منه بعد أن كان مؤيّدًا له، ولأسباب بديهيّة لم يستطع مساندة الشيوعيين بالرغم من عدائهم الشجاع للمافيا. فالتزم اتّجاهًا خاصًّا بإنشاء جمعيّات متعدّدة لإيجاد أشخاص ملتزمين يتميّزون بالغيرة والشجاعة والاندفاع ويعيشون قناعاتهم المسيحيّة أثناء قيامهم بأيّ نشاط سياسي.

كنت أرى في الأب بنتاكودا إنسانًا ينظر بغضب الى عالم أكاد أكتشفه. وهو يرى فيَّ تلميذًا قادرًا على مساعدته على رفع معنويّات المجتمع الصقلّيّ. بإعطائي هذا الدور كان يتصرّف على الطريقة اليسوعيّة القديمة القائلة: إذا دَرَّبْتَ "قائدًا" leader واحدًا سيكون بمقدرتك التأثير على الآلاف من الاشخاص. وأصبح الأب بنتاكودا بالنسبة لي الوالد في المجال السياسي الذي يكرهه والدي بكلّ أشكاله وكذلك الأب الروحي والمرشد السياسي.

وبتوجيه الأب بنتاكودا أسّست مع بعض الطلاّب جمعيّة غونزاغا الثقافيّة–الفنيّة التي تهدف الى فتح أذهاننا وعقولنا، وتُخْرِجنا من محيطنا الضيّق من بلدنا الصغير إلى كل العالم الخارجي. كانت هذه الجمعية تلتقي الأب بنتاكودا مرّة في الأسبوع في غرفته

في كازا بروفيسا Casa Professa وهو مركز اليسوعيين الرئيسي في بالرمو بل في صقلّيّة كلها. ويرتبط المركز اليسوعي بأكبر كنيسة في بالرمو، كنيسة يسوع Church of Jesus التي تبهر الزائر بغنى ألوانها الجميلة كالزهريّ والأبيض والذهبيّ وببهرجتها وجدرانها المطليّة بطريقة الستوكو Stucco.

كانت مهمّة كلّ عضو في الجمعية الثقافيّة–الفنيّة أن يطّلع بكلّ انتباه ودقّة على صحيفة أو مجلّة معيّنة. وكنّا نجتمع يوم الاثنين من كل أسبوع في غرفة الأب بنتاكودا لنتناقش في المواضيع التي تناولتها الصحف. أمّا أنا فطُلب مني أن أطّلع على مجلّة الحزب الشيوعي الأسبوعية ريناسيتا *Rinascita* وأن أعرضها في الاجتماع الأسبوعي. وهذا ما فعلتُه بكل أمانة ودقّة لسنتين متتاليتين ودائمًا بشيء من القلق والاضطراب بل الانزعاج. كانت المجلّة تشجّع على انتقاد كل المفاهيم الاساسيّة، باستثناء تلك التي يدعو اليها الشيوعيّون، وتجعلك تشعر بأنك أصبحت مخرّبًا وأُصِبْتَ بالسلبية. ولذلك فهمت أنّ المهمة الموكلة إليَّ لم تكن نقل المعلومات والأخبار بل استخلاص المفاهيم السياسيّة ووجهات النظر. كيف يفكّر الشيوعيّون في السياسة؟ لماذا قاوموا المافيا؟ كيف حاولوا تجسيد نظريّاتهم بمواقف سياسيّة خاصة بهم؟

ارتاح واالديَ لعلاقتي بالاب بنتاكودا وهما يريان فيه احد أساتذة الفكر *maîtres à penser* الذي يُمكنه ان "يُقَوْلِبَ" عقلي وتفكيري بطريقة تجعلني نافعًا ومقتدرًا. أما الإنسان الوحيد الذي نظر الى الأب بنتاكودا بشيء من الشك والريبة فهو ميللّي التي وجدت فيه شيئًا من الماكيافلية. وعندما كانت علاقتي بميللّي تتزعزع وتمر الغيوم في سمائها كان تأثير الأب بنتاكودا عليّ ينعكس قَلَقًا على ميللّي. وبعد عدة انقطاعات لعلاقتنا قرّرت ميللّي الذهاب الى كاتانيا Catania لمتابعة دراستها وهي ثاني كبرى مدن صقلية. كانت ميللّي تزور بالرمو من حين لآخر خلال السنتين التاليتين وبقيت علاقتنا على حالها بين مدّ وجزر.

في صيف 1967 قصدت جامعة هايدلبرغ Heidelberg لشهر واحد لدرس الألمانية. لماذا هايدلبرغ؟ لأنّ والدي درس هناك في الثلاثينات ولا ازال أتذكّر قصص صالة "البيرا" (الجعة) Beerhouse زوم زيبل Zum Zepp'l التي يسمعني اياها بعد العشاء. ومنها قصّة الطلاب الألمان الشباب الذين يتحدّون بعضهم بعضًا بصفع الخد. ويكون الفائز البارع من يعطي العدد الأعلى من الصفعات. ويكون الأقوى من يترك اثرًا واحمرارًا على خد الآخر. عند وصولي الى هايدلبرغ سألت عن مطعم زوم زيبل الذي وجدته تمامًا كما كان يصفه لي والدي. بالفعل كان هذا الشهر في المانيا نوعًا من الانتعاش واستعادة الوقت الضائع بالمعنى البروستي (من Marcel Proust)، وقت والدي. ذهبتُ الى انتر شلوس ويغ Unter Schloss Weg وهو شارع ضيق تحت القلعة حيث سكن أبي أثناء إقامته في المانيا وكذلك القيت لمحة ولو قصيرة على ما كان والدي قبل ان يصبح زوجًا لوالدتي وأبًا لي.

بعد عودتي الى بالرمو بقيت هايدلبرغ في ذهني وتقدمت بطلب منحة الى وزارة الخارجية في معهد ماكس بلانك Max Planck Institut. قُبِلَ طلبي وَبَلَغَت المنحة 800 مارك في الشهر اي ما يعادل في ذلك الوقت مئة دولار. وهذا ليس سوى القليل مما كنت أصرفه سابقًا ولكنّي كنت متحمّسًا وفرحًا لا لأنّ جامعة هايدلبرغ تحضنني تمامًا، بل لأنّها المرّة الاولى في حياتي التي أشعر فيها بأنني معروف باسمي الشخصي ولست بابن فلان.

في بادئ الأمر أقمت في فندق للطلاب. لكنّي لم ألبث أن رأيتُ انه يمكنني ان احصل على غرفة في بالم بروهوس Palmbräuhaus وهو بيت في وسط المدينة القديمة يملكه ايطالي ويملك في الوقت نفسه مطعمًا صغيرًا يُدعى سولو دورو Solo d'oro, The Golden Sun وهذا أفضل لي.

هايدلبرغ – باستثناء اسم هذا المطعم – باردة ومكفهرّة. ولحمايتي ضد أخطار الشتاء الشمالي الذي يُقلق أهلي ويُشغل بالهم أَعْطوني "الكبابيت" الدافئة والثياب الداخليّة

الطويلة وبذلات متنوعة وقفّازات الصوف حتى قبّعة من الفرو خوفًا عليّ من الموت بردًا. بالفعل أَحْبَبْتُ هايدلبرغ للحريّة بل الاستقلاليّة التي قدّمتها لي قبل أي شيء آخر. وبالأخص لاستقلاليتي عن أهلي وللتربية التي نلتّها هناك.

كانت رياح الثورة لا تزال تعصف بشدة في ألمانيا سنة 1968. وكان طلاّب الجامعة يضمّون اصواتهم إلى الطلاب اليساريّين في بعض الدول الاوروبية الأخرى الأكثر شهرة. ومنهم رودي داتشك Rudi Dutschke الذي دعا الراديكاليين للتوقّف عن اللّهو والعبث بالثورة والبدء "بالمسيرة الطويلة نحو المؤسّسات". واولريك مينهوف Ulrike Meinhof الذي سار بالاتجاه المعاكس وحثّ على الثورة الإرهابية وأسّس عصابة بادر– مينهوف Bader-Meinhof Gang. أمّا أنا فكنت معجبًا باثنين من اساتذتنا لا ازال اتذكرهما وسوف لا أنسى ابدًا دروسهما: مارتان هدغر Martin Heidegger وهانس جورج غادامير Hans Georg Gadamer وهما من أشهر الفلاسفة وكانا من المحافظين.

كان لي أصدقاء في الجامعة من جنسيات وتوجّهات مختلفة. جون من كاليفورنيا كان يملك سيّارة بيجو تثير غيرة الطّلاب بأجمعهم. كنت أتجوّل معه في جميع أنحاء ألمانيا في العطلة الاسبوعيّة. واصبحت صديقًا حميمًا لطالب يوناني فرّ من بلده الذي كان يرزح تحت سيطرة العسكريّين. وبالطبع كان لي اصدقاء ألمان عديدون، أحدهم كريستيان توموشات Christian Tomuschat الذي كان أحد أساتذتي ومسؤولاً عن قسم ماكس بلانك Max Planck للغة الإيطالية وكنت ألعب معه بكرة القدم كلّ يوم خميس من الأسبوع.

كان يمثِّل هؤلاء الاصدقاء لي العالم الواسع وأنا أمثّل لهم صقلّيّة، وأحيانًا كانوا يهتفون لمجيئي قائلين: "آه! اتى المافيوزو." وصادف ذلك نشأة "الكورليونزي" Corleonesi وهم عصابة من المافيا جمعوا بالرمو والموت في اسم واحد على أولى صفحات الجرائد العالميّة. وفي نفس الوقت كانت المافيا تشقّ طريقها تدريجيًّا في حياة

الصقلّيّين لتصل الى ما سمي في أوائل الستينيات حرب المافيا الأولى (اسم استعملناه عندما كانت تستعر نار الحرب الثانية التي يمكن وصفها بالابوكاليبتية) عندما استبيح سلب ونهب بالرمو نتيجة نزاعات عصابات المافيا فيما بينها وحيث القنابل المفخّخة قتلت سبعة من رجال الأمن ومن خبراء المتفجّرات سنة 1963.

كنتُ أتألّم عندما يناديني رفقائي "بالمافيوزو"، ولكنّي اتقبّل ذلك بضحكة اذ كنت أشعر وأفكر أنَّ لا علاقة للمافيا بي ولا علاقة لي بالمافيا وهذا الأهّم.

| | |

عدت الى بالرمو بعد سنتين لأتسجّل في مدرسة الحقوق مع الشعور بأنني تركت ورائي أخيرًا كل قيد، ولا ما يعوقني فيما بعد، وتكثَّفت علاقتي مع الأب بنتاكودا، وبتشجيع منه وضعتُ دراسة بعنوان: "التخلّف ودور الثقافة والمافيا" عرضتها في مؤتمر سنة 1970 نظمته الجمعية الثقافيّة – الفنيّة. كانت الفضيحة لا لأنني أسميت الاشياء بأسمائها وأعطيت أسماء السياسيّين الذين يتواطأون مع المافيا ولا بأنّي تكلّمت عن استباحة بالرمو وعن إفساد المافيا لثقافتنا. بالفعل، كان في الدراسة شيء من الغباء، اذ تكلّمتُ عن المافيا وكأنها قبيلة بعيدة عنّا كلّ البعد ومرمية في الوديان ولا علاقة لها بنا أو بأحد منا. الدراسة كانت الفضيحة لأنها كانت المرة الأولى التي يتناول فيها هذا الموضوع شاب من صقلّيّة، لا شيوعي، كاثوليكي، تلميذ يسوعي ومن مدرسة غونزاغا.

ككُلِّ سكّان صقلّيّة، كنتُ أَتَمَيَّز لفترات بِبُعْد النظر. واذا كنت متقدّمًا قليلاً عن بقيّة أترابي فذلك بسبب الأخلاقيّة والمناقبيّة اللتين زوّدني بهما بعض الأشخاص ومنهم الأب بنتاكودا ووالدي. وكانت الخطورة التي يتعرّض لها كل من يتطرّق لهذا الموضوع واضحة جدًا.

في ماضينا القريب وُجد عدّة أنبياء: شلّة من التجار المحافظين، وراع انجيلي وبعض الشيوعيين. مُعْظَمُهم قُتِلَ ليس بالجرائم العلنيّة التي عرفناها فيما بعد ولكن

بضربات المافيا الخفيّة والمُعَتَّم عليها والتي كانت تنطوي في ليالي صقلّيّة السوداء دون أن يراها أحد.

ما يهمّ أنّني أخذت طريقًا لا رجوع عنه. وكمحامٍ رأيت أنّ القانون هو إحدى وسائل الصّراع. بعد حرب المافيا الاولى، تأسست لجنة وطنيّة لمقاومة المافيا Antimafia Commission شجّعت السلطات المحلية وجودها وشَرْعَنَت مقاومتها للمافياويّين. وعندما كان يؤتى أحيانًا بمافيويّ للمحاكمة، وَيُحْبَس ربما، كانت الاجراءات تجاهه فرديًّا ولم توجّه أيّة عمليّة للمافيا بحدّ ذاتها. وتَبَنَّيْت رأي الأب بنتاكودا وهو أنَّ تطبيق القانون يبقى جزءًا أساسيًّا في محاربة المافيا وبالتالي علينا بموازاة المحاكمات والسجن ان نلقِّح المجتمع لنحافظ على ثقافتنا الصقلية.

| | |

كنت أدرك أنّ مشكلة المافيا في صقلّيّة ستشغلني مدى الحياة، وهذا ما قلته لميللّي، اذ بقيَت علاقتنا متقطِّعة بسبب غيابي خارج صقلّيّة، وهذا ما كان يزعجها ويُرْبِكُ تلك العلاقة. ومن يدري؟ ربما هو الذي أعطى القوّة لعلاقتنا. والآن أرى أن الوقت قد حان لتكون هذه العلاقة جدّية، إذ أنّني نِلْتُ وظيفة في الجامعة بالإضافة الى ممارسة المحاماة في مكتب والدي.

ميللّي لا تنتمي إلى "عالمنا"، ومع ذلك رضيَ بها والدايَ لأنّها صادقة وبسبب حبّها لي. باختياري لها سرت ضد قواعد الطبقيّة غير المكتوبة. ولم لا؟ الم تتزوّج والدتي من "طبقة دون طبقتها؟"

كنّا سنحتفل لخطبتنا بتقاليد "اكشياناتا" *ucchianata*، وهو تعبير صقلي قديم من فعل "اكشياناره"، ومعناه ارتقى العرش أو تسلّقه. في الماضي، عندما كان ينوي شاب وفتاة أن يُعلنا خطبتهما، كانت تقضي التقاليد بان يقوم والدَا العريس بزيارة رسميّة لأهل العروس صعودًا على الدرج الى غرفة الجلوس حيث يقدّمون الحلوى مع النبيذ،

وعلى أهل العريس أن يفاخروا بمناقبيّة العريس وقدرته على العمل الشاق ويبشرون بمستقبل مالي زاهر. ثم يأتي دور أهل العروس ليفاخروا بابنتهم وبِوَرَعِها وتقواها وقدرتها على إدارة المنزل والأهم الإعلان عن "الدوطة" (المال) التي ستنقلها لزوجها. بالفعل لقد جرى كل هذا بصورة غير رسمية ولكن يجب احترام التقاليد بحرفيّتها. وبعد ساعتين يُنَادَى العروسان بصورة بروتوكولية ويُقَدَّم كل منهما للآخر ويكون كذلك قد تَمَّ عقد الخطوبة رسميًّا.

وكان علينا – أنا ووالدايَ – أن نذهب الى عائلة ميللّي، لا لتناول الحلوى والنبيذ بل لتناول العشاء. وكانت امي قد اعطت خاتم زواجها الخاص المُرَصَّع بحجر الماس والرائع لعروس أخي انطونيو يوم خطبتهما. وانطونيو هو أكثرنا عصيانًا واستقلالية تزوّج في الثامنة عشرة من عمره وينعم اليوم بسعادة الأبوّة. ولخطبتي ذهبت والدتي الى بلغاري Bulgari وهو أشهر الصاغة في روما وابتاعت خاتمًا يضاهي خاتم زواجها ثمنًا وشكلاً. كان كلّ شيء جاهزًا ومؤكدًا، وكان أهل ميللّي ينتظروننا للعشاء في تمام التاسعة.

عند الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم الذي لا أنساه، أخذت الهاتف وقد تَمَلَّكَني الخوف، وخابرت ميللّي قائلاً: "لا أريد خطوبة، لا أريد ان ألتزم... أنا متأسف جدًا... إنّني غير قادر على ذلك... غير قادر".

لم تَبْكِ ميللّي ولم تضطرب ولم تَقُلْ لي: "انت مجنون" كما كان عليها ان تفعل. قبلت تصرّفي، وفي الحال أخذت تفكر في حلّ لمشكلة الزيارة التي استعدّ لها والداها بكل عناء ودقّة. واتّفقنا على ان يهتمّ كلّ منا بإبلاغ أهله بأننا قد عدلنا عن الخطوبة.

عندما أبْلَغْتُ والدتي بأنني عَدَلْتُ عن الخطوبة قالت: "الزواج والخطوبة هما أمران على درجة عالية من الأهمية، لا يجب النظر إليهما باستخفاف. إذا كنتَ غير مستعدّ لا تُقدِم على ذلك". ولكن بعد برهة تَحَرَّكَ شعور الليّاقة ليلعب دوره، فقالت: "هذه القضية يجب معالجتها في اطار الأخلاق واللياقة وحسن التعامل. اننا مدعوّون، وعلينا

ان نُلَبّيَ الدعوة وان نذهب الى العشاء. نضع خاتم الخطوبة في الخزنة ونقدّم لميللّي شيئًا آخر".

يوم رأيت النور قدّم والدي اسوارًا ذهبيًّا جميلاً جدًّا لوالدتي حافظت عليه بغيرة وانتباه فأخذته وذهبنا نحن الثلاثة لتناول العشاء مع آل لوبو.

كانت ميللّي تسكن مع عائلتها في بيت جميل تحيط به شرفات واسعة تطلّ على المدينة. عندما وصلنا كان البيت جاهزًا لاستقبالنا مزيّنًا بالازهار التي انتشرت بشكل فني في كل مكان منه وكذلك كانت الشرفات. أما طاولة العشاء فكُسِيَت بغطاء هو آية من الجمال بتطريزه. عندما جلسنا الى الطاولة شعرت باننا في وضع محرج كوميدي. ستّة أشخاص يتناولون الطّعام اللّذيذ (كانت أم ميللّي تجيد تحضير الطعام)، ويشربون النبيذ الممتاز، ويتبادلون الحديث المُشَوِّق، وقد سقطت الغاية التي من أجلها كانت كل هذه الرسميّات وباتت دون حاجة.

هذا العشاء وتلك الأمسية والفرح الذي ساد الأجواء فيما بيننا كانت سببًا لعقد خطبتنا بعد سنة. لم نقدّم لميللّي خاتم "بلغاري" الألماسي لأننا اعتبرناه مشؤومًا واشترينا خاتمًا آخر. ورَمَيْنا جانبًا كل ما شَوَّهَ علاقتنا من خوف وتردّد، وتزوجّنا في كنيسة ماجيوني Magione التاريخيّة، وهي كنيسة عربيّة–نورمانيّة آية من الفن والجمال تقع في أحد شوارع بالرمو العربيّة القديمة.

ارتدت ميللّي ثوب العرس الأبيض وهالة على رأسها، وقد رشّت نوعًا من الورد الناصع البياض على شعرها، فبدا وجهها رائعًا. كان عرسنا عرس الموسم حضره الارستقراطيون، وأصدقائي من مدرسة غونزاغا، والمحامون ذوو الشهرة، والبرجوازيون، وقد ارتدى الرجال السموكينغ والقبّعات، والسيّدات كنَّ يضاهين ميللّي أناقة وجمالاً. كانت أخبار حفلة زواجنا تتناقلها الألسن لأيام، واصفة حفاوة الاستقبال الذي ضم مئات المدعووّين في فندق سافوايا كلوب Savoia Club ، وهو من أشهر نوادي طبقة الأعيان في بالرمو، وما يزال يحمل اسم العائلة الملكية الإيطالية المنفية.

أمضينا شهر العسل في مكسيكو، وتوجَّهنا بعده إلى نيويورك، ثمّ إلى كندا قبل العودة إلى بالرمو، حيث سكنَّا بيتًا صغيرًا، وبقينا فيه لخمس وعشرين سنة. رُزِقْنا ابنتان شديدتا الشبه بميلّي، لكن لم تظهر صورة أيٍّ منهما في الصحف لأنني كنت أخاف عليهما من شرّ المافيا التي لم يعد سرًّا ما تنويه وتخطّطه لقتلي.

3

بيرسنتي ماتاريلا

ما الذي ورطني في محاربة المافيا؟

لماذا اقول هذه الكلمة وارددها حتى أصبحت وكأنها "وسواس" يراودني؟ يوجد هناك أشياء صغيرة: قَتْلُ طبيبنا، وقول والدي انه لا يستطيع الذهاب إلى المكتب لأن المافيا أفسدت السياسة. ولكن السبب الأساسي الذي فهمته فيما بعد كان الشعور بهويّتي الصقلّيّة. فَسَّرَ أهلي والأب بنتاكودا هذا الحدث وكأنه ادراك او شعور يتحرك في داخلي.

وكان الأب بنتاكودا الذي لم يقل بصورة خاصة كلمة "مافيا" وحسب، بل باشر بإيجاد تحديد لها. فهو الذي جعلني استوعب ان المافيا ليست مجرد وهم غامض، بل هي ظاهرة سوسيولوجية حقيقيّة. لم يفعل ذلك لمصلحة أو لغاية مبهمة أو ملتوية (وكأنها شيء مشابه للبرنوغرافية عند بعض الصقليين)، بل لأنه يرى ان المافيا تقف حجر عثرة في طريق تنمية المجتمع وتقدم الديمقراطية في صقلية. وهذا ما كان يشغله ويقلق عيشه.

تكثّف اهتمام الأب بنتاكودا بالكوزانوسترا عندما لمس انها أصبحت منظّمة خفيّة بحكم الواقع. بعد أول حرب للمافيا، وإنشاء اللجنة الوطنية لمقاومتها، أُجبرت المافيا على السكون قليلاً لتتجمع وتستعيد قواها في اوائل السبعينات. وصادف ذلك ظهور الارهاب في ايطاليا، واحتكرت الألوية الحمراء Red Brigades انتباه السلطات. وبالفعل اصبح الوضع خطيرًا لدرجة ان الموظفين الرسميّين اتصلوا بالمافيويين داخل السجون مثل

طوماسو بوسيتا Tommaso Buscetta الذي اصبح فيما بعد اول مخبر في المافيا، محاولين حثَّهم على استقاء المعلومات من الارهابيين الموجودين هم ايضا في السجون وتبليغها للسلطات. ولكن عندما كانت ايطاليا تدير انتباهها لجهة ما لم تكن المافيا غافلة اذ تحوّلت إلى منظمة مختلفة ذات اغراض عديدة. بعد قيام علاقة الهيروبين بين مارسيليا والولايات المتحدة التي سميت الصلة الفرنسية French Connection، والتي انقطعت سنة 1974، اتجهت المافيا في صقلية إلى فراغ تام بعد ممارسة عمليات التهريب، وتعاملت بالبضائع المحظورة كالسكائر وغيرها. والآن أقامت مصانع لتكرير الهيروبين، وتستعمل شبكاتها مع شبكات كوزانوسترا الاميركية المنبثقة منها لتوزع على العالم المخدّرات على انواعها وتصبح بالتالي عاصمة العالم للمخدّرات.

عاصمة هذه العاصمة هي بالرمو، والاهتمام بهذه العاصمة هو النتيجة الطبيعية للعمل الاجتماعي الذي يعمل ويدعو له الاب بنتاكودا. والاهتمام في سياسة صقلية يعني الانخراط في الحزب المسيحي الديمقراطي.

أقل ما أقول انه كانت لي مواقف متعدّدة تجاه هذا الأمر. تأسس الحزب الديمقراطي المسيحي بعد الحرب العالمية الثانية كوقاء ضد الشيوعية بما فيها الشيوعية الاوروبية Eurocommunisme التي ينظر اليها الغرب كخطوة اولى لاضعافها. يأتي القادة والحكّام ويذهبون، بينما المسيحيون الديمقراطيون هنا باستمرار. وفي اوج عزه اصبح الحزب مغرورًا بنفسه، قمعيًا، غير فعال، زبائنيًّا وغير موثوق به ويسوده الفساد، ما حملني وانا المسيحي الملتزم على نبذه والنفور منه. كان ذلك قبل برمجة شبكة الاتصالات بين المسيحيين الديمقراطيين والمافيا. حتى بدون هذه التصريحات كان واضحًا ان الحزب وضع حدًّا لمجال التعبير والرأي، وضَيَّقَ فسحة المسموح حتى بدا من غير الممكن ادخال اي نوع من المثالية في العملية السياسية التي يسيطر عليها ويضبطها.

لاعتبارات إرهابية واقتصادية لم ينتخب الإيطاليون (الصقليون) المسيحيين الديمقراطيين في انتخابات 1975. وسقط الحزب إلى أدنى عدد ناله منذ نهاية الحرب

العالمية الثانية. رأينا أنا والأب بنتاكودا خيرًا في هذه النتائج، فربّما يعيد الحزب مواقفه ويعتمد سياسة مسيحية صحيحة وديمقراطية صحيحة. ومما زادنا تفاؤلا وجود بيرسنتي ماتاريلا Piersanti Mattarella في معترك السياسة في صقلّيّة.

كان ماتاريلا يكبرني اثنتي عشرة سنة، وكان استاذًا في الجامعة وبالتالي زميلا لي. مارس مهنة المحاماة في مكتب والدي، والتقيته لأول مرة يوم دعا والدي لحضور زفافه. لم نلتقِ في غير مناسبات الاعياد كعيد الميلاد وعيد الفصح، ولم نكن على صلة اجتماعية دائمة.

بيرسنتي ماتاريلا هو ابن برناردو ماتاريلا الصقليّ المسيحي الديمقراطي القادر والقوي في فترة ما بعد الحرب العالمية. افل نجمه بسرعة بعد ان ورد اسمه في تقرير قدّمته الاقلية الشيوعية في اللجنة البرلمانية التي تحارب المافيا "كمن جهد نفسه لاستيعاب القوات المافيويّة في الحزب المسيحي الديمقراطي لاستعمالها في السلطة". لم يتكلم بيرسنتي يومًا عن والده، فهذا الموضوع يُؤلمه طبعًا، وبالفعل كان يظهر الألم على وجهه عندما يقول له احدهم "انت مختلف..." فوالده وخبرته الحزبية حملته على العمل الدؤوب لاعطاء صورة جميلة عن الحزب المسيحي الديمقراطي في أي مناسبة وظرف.

عندما تعرّفت على بيرسنتي ماتاريلا كان مفوّض الموازنة في الحكومة الصقلّيّة، وواضع اقتراح إصلاح للبيروقراطية المناطقية هو آية في الدقة والاتقان. فهذا الرجل يضع مشاريع قوانين نحن بحاجة اليها لإدخال صقلّيّة في العصر الحديث، وشعرت باننا نتكلم اللغة نفسها، اي لغة ثقافة اداريّة جديدة تكون عملانيّة وحديثة واوروبية.

في أحد الأيّام، في اوائل 1976، زرت ماتاريلا في مكتبه. فهو طويل القامة، عيناه زرقاوان، ورجل أنيق ولائق. كشفت له عن رغبتي في الانخراط في عمله السياسي، فنظر اليّ وقال: "ليس عليك ان تعتذر". وللحال تبدّد اضطرابي الظاهر. كان بيرسنتي لطيفًا يتكلّم بهدوء فترتاح اليه وتثق به. ومع ان السياسة الصقلّيّة كانت في انحطاط، كان

يعتبر ان السياسة بطبيعتها فنّ نبيل. كان يثق بنفسه، ومع ذلك يأخذ رأي الآخرين ويحترم الإختلاف في الرأي. كان كاثوليكيًا مخلصًا ورجلاً خجولاً خصَّه الله بشجاعة هادئة.

في نهاية مقابلتنا الاولى، شعرت بواجب العمل قدر المستطاع لمساندة جهود بيرسنتي في تطهير النظام السياسي في صقلية ونلت بطاقة الحزب. وكنت اشعر في نفسي أنّني لم أصبح عضوًا في الحزب الديمقراطي المسيحي بقدر ما أصبحت عضوًا في حزب برسنتي ماتاريلا.

| | |

أسس بيرسنتي تجمعًا سياسيًا اسمه "بوليتيكا" Politica جمع بين اعضائه شبابًا متخصّصين. كنّا نجتمع مرة في الاسبوع برئاسته، فنناقش المشاكل الطارئة ونحاول معالجتها. كان شغلنا الشاغل السياسة، ولكن مناقشاتنا كانت بالواقع اخلاقيّة مناقبيّة. أَعْلَنَّا عن هذه الغاية بتنظيم سلسلة محاضرات ومناقشات تحت العناوين التالية: "الايمان والسياسة"، "التزام المسيحيين في السياسة"، "المناقبية والسياسة".

كان الأب انيو بنتاكودا Ennio Pintacuda يلازم حركتنا هذه، وكنّا ندعوه في معظم الأوقات ليتكلّم في محاضراتنا ومناقشاتنا. هذا مع العلم بأن بيرسنتي لم يكن يثق كثيرًا باليسوعيّين، وكان يأخذ حذره مما يعدّ غاياتهم الخفيّة. كان يتقرب اكثر من الفرنسيسكان والساليزيين، لأنه يشعر بأنهم متواضعون فعلا على طريقة المسيح.

اوّل تحرك لماتاريلا كان مؤتمرًا اقليميًّا سنة 1976 للمسيحيّين الديمقراطيّين في فندق زاغاريلا Hotel Zagarella، وهو مبنى حديث تاريخه طويل يملكه انيازيو ونينو سالفو Ignazio and Nino Salvo وهما من أقرباء سالفو ليما Salvo Lima وفيتو تشيانشمينو Vito Ciancimino مستبيحي بالرمو. آل سالفو هؤلاء هم مسؤولون عن الانحطاط الذي يعيشه مجتمعنا. لقد حازوا ثروة تفوق التصوّر بعد ان ادّعوا أنهم مولجون بتحصيل الضرائب والرسوم. وهذا المركز يخوّلهم الحصول على 10% من المبالغ

المحصّلة! الأمر الذي فتح امامهم مجال استثمار، في العقارات والكروم والفنادق وكل ما له علاقة بشبكة المافيا المعقدة. كان يُعرف عن آل سالفو أنهم "ناخبون مهمّون" للحزب المسيحي الديمقراطي، ومشهورون بقولهم عن بعض الشخصيات السياسية "عُصِرت الليمونة (ليمونة الحامض) كليًّا" لذلك لا مجال لإعادة انتخاب هذه "الليمونة".

في مجلس 1976 اشتدّ غضب فيتو تشيانشمينو لان بيرسنتي رفض الدخول في اللائحة الانتخابية التي يرأسها "اللائحة الكبرى" للحزب المسيحي الديمقراطي، لانه منذ ترؤسه استباحة بالرمو سيطر على السياسة في البلاد واختفى وراء ملابساتها. وكَتَحدّ لتشيانيشمينو ترشّح بيرسنتي على رأس لائحة صغيرة تضم مؤيّديه. وكانت القاعدة أن تنال اللائحة عشرة بالمئة على الاقل من الاصوات ليسمح لها بان تمثل في المجلس. وبالرغم من ان تشيانتشمينو في آخر لحظة سحب احد ممثّلي بيرسنتي. لم يَحُلْ ذلك دون حصول بيرسنتي على العدد المفروض، وأصبح له ولنا كذلك حضور في الحزب.

كان عملنا شاقًّا طوال السنة التالية، وعملنا على نشر افكارنا، واعلمنا الاعضاء المقترعين ان ما نريده هو تطهير الحزب وجعله يتحمل مسؤولياته. وسنة 1978 اصبح ماتاريلا رئيسًا لمنطقة صقلية بتصويت المجلس، وأصبحت انا مستشارًا قانونيًّا له. وتسلّم ماتاريلا مهامّه مع حدث على أشد درجة من الخطورة عرفته إيطاليا في تاريخها المعاصر، اذ خطفت الألوية الحمراء صباح 16 آذار 1978 الرئيس الدو مورو President Aldo Moro تاركة وراءها اجساد حراسه الخمسة وقد كست بذلاتهم المصفحة ثقوب الرصاص. انتشر الحدث بدقيقة واحدة في كل أنحاء البلاد إذ توقّفت المحطات التلفزيونية والإذاعات عن بثّ برامجها لنشر هذا الخبر. ولم أكد أسمع الخبر حتى هرولت إلى مكتب بيرسنتي. وقلت له: "هذه آخرة الرئيس مورو". فأجاب بيرسنتي مُتَجَهِّمًا عبوسًا: "هذه آخرتي ايضًا".

لم أكن أعرف ماذا يعني بقوله هذا. كان ينظر إلى مورو كمرجعيّة له داخل الحزب الديمقراطي المسيحي الوطني. ولكن ما الرابط بين خطف مورو وبيرسنتي؟ لم يَبُحْ لي بأنه في نفس الصباح تلقّى اول إنذار بقتله لا من الالوية الحمراء بل من المافيا.

وأمضينا الخمسة والعشرين يومًا التالية ندرس بألم وقلق على أعلى المستويات كيف نفاوض الارهابيين لانقاذ مورو. وعمّت الصدمة البلد بأكمله في التاسع من ايار، اذ وُجِدت جثّة مورو في سيّارة رونو حمراء اللون متوقفة عمدًا على مسافة متساوية بين المركز الرئيسي للحزب المسيحي الديمقراطي والمركز الرئيسي للحزب الشيوعي.

وكان هذا نعمة نزلت على المافيا من السماء لم يحسب لها حساب. وكانت إيطاليا لاهية بتوتّرات الحرب الباردة وبصورة خاصة مع الارهابيّين. وقد احصت ايطاليا في السبعينات ما يزيد على ثلاثة آلاف عمل إرهابي أقل من عشرة بالمئة منها في صقلّيّة. مما حمل القوى الأمنية على حصر اهتماماتها بملاحقة الألوية الحمراء لاهية عن أمور أخرى مهمّة جدًّا. واللجنة التي قاومت المافيا في الحرب الاولى في الستينات وكانت متلاحمة تفرّقت اليوم وتبدّدت رغم الاستنتاج الذي تناولته في تقريرها الاخير، اذ جاء فيه: "يوجد تنظيم إجرامي يقيم جدارًا لا يخرق أمام السلطات، ويعمل لمساعدة وحماية المافيا في نشاطاتها الاجراميّة".

ما لم تَقُلْه اللجنة ولم تَكُنْ تعرفه هو أن المافيا في صقلّيّة كانت تمدّ الولايات المتّحدة بنصف كميّة الهيروبين التي تبتاعها بطرق غير مشروعة. وفتحت في أواخر السبعينات معامل لتكريرها في صقلّيّة. وعندما اكتُشِف اول هذه المصانع بين 1976 و1980، كانت صقلية قد صدّرت أطنان من الهيروبين الصافي، وقدرت ارباحها بِ 600 مليون دولار اميريكي.

| | |

بصفتي مستشارًا قانونيًا للرئيس كان مكتبي يقع في الطبقة الأولى من بالازو دورليان Palazzo d'Orleans وكان بتاريخه ملكًا لدوق باريس Duke of Paris، وهو مبنى رائع يقع وراء الساحة النورمانية Norman Palace. اما مكتب ماتاريلا فكان في الطبقة الثانية وكنت أمضي فيه وقتًا طويلاً لا يقلّ عن الوقت الذي أمضيه في مكتبي.

خلال السنتين اللّتين كنت فيهما مستشارًا قانونيًا لبيرسنتي وضعنا قوانين عديدة، اهمّها قانون ينص على نقل المسؤولية من الملتزمين الاقليميين لجزء كبير من موازنة المناطق إلى المدن الصقلّيّة، فكان هذا قانونًا ثوريًا بحد ذاته. ومع السنين أصبح وضع المقاولين المحليّين قويًا جدًّا وقادرًا على تحريك ملايين الدولارات في أي اتجاه يريدون بتوقيع بسيط دون أي رادع وبطريقة غير متوازنة. فأصبح الوضع غير حصين تستطيع المافيا اختراقه بسهولة. كانت الغاية من هذا القانون أن نضع الأموال بين أيدي البلديات التي تستفيد منه مباشرة وتُنفقه. بذلت جهدًا كبيرًا على كل مادة من القانون الذي صدّقه أخيرًا البرلمان الاقليمي.

كما عمل بيرسنتي على تمرير قانون يفرض الالتزام بشروط البناء التي كانت سائدة في أنحاء إيطاليا الأخرى منذ عشرات السنين. يتراءى للمرء بان هذه الاجراءات غير مؤذية، ولكنها كانت خطوة فوق ارض خطيرة. لم يجرؤ أي رئيس قبل بيرسنتي ان يتدخّل في شروط تنظيم البناء في صقلية، وخصوصًا في بالرمو حيث كانت المافيا ورجالاتها يحتكرون الرقابة على كل شيء حتى على المجال السياسي.

وبدون اي مراقبة او اشراف مثلاً سُمِح ببناء ست مدارس في أقضية مختلفة من بالرمو بموجب عقود، ولكل عقد تقدمت شركة واحدة للمناقصة. وهذا غير طبيعي في أي مدينة، ومستغرب جدًا في مدينة، حيث الناس يتهافتون على العمل، وحيث أعمال البناء مزدهرة ولو قبيحة وخالية من الجمال. أجرى بيرسنتي تحقيقًا بالامر، فتبيّن بسهولة ان الشركات الست التي ربحت المناقصات وأقامت البناء كانت على علاقة بفرق المافيا *Capimafia* في الأقضية الستة حيث شُيّدت المدارس.عند مناقشة الامر بين بيرسنتي

ومستشاريه كنت أتمالك نفسي عن الابتسام. كيف قبل المسؤولون بكل سذاجة عرضًا واحدًا للمناقصة. ان الاعلان كان صوريًا ولمست كم أنني بعيد عن ذهنيّة المافيا واساليبها.

وبدأت افهم رويدًا رويدًا مبدأ المراقبة المحليّة. المافيا لا تشغل بالها ولا يروق لها جمال الالغاز وطراوة الكلام. عندما كانت شركتها الخاصة تقدِّم بمفردها العرض للمناقصة، كانت المافيا تنحر السيادة في صميمها. وكان الجميع يفهم ان سيطرة الملتزمين الستة هؤلاء مطلقة ولا تقبل اي اعتراض.

صباح أحد الأيّام كنّا في طريقنا، أنا وبيرسنتي، إلى اجتماع، فتقدّم رجل منّا يدعى مينيوزي Mignosi، وهو احد المسؤولين الذين أجروا تحريّات في قضيّة عقود بناء المدارس الست. كان مضنى ومهمومًا يكاد صوته لا يسمع قال: "سيدي الرئيس، أريد أن أكلمّك". فقاطعته ماريا تريزينو Maria Trizzino قائلة: "سيدي الرئيس، السيد مينيوزي قلق جدًا".

فقال بيرسنتي: "قولي، ماذا هناك" فتابعت السيدة تريزينو متردّدة: "لقد اكتشف أشياء غريبة جدًا. ويخاف أن يُدلي بها. ربّما سيدفع الثمن جزاءً".

فقال بيرسنتي مشيرًا بيديه وكأنه يريد حمايتنا: "يدفع جزاءً؟ لماذا هو؟ كلّكم تعرفون أنني أنا أردت هذه التحريّات. سأدفع أنا الثمن". وبالفعل كان هو الهدف الذي تخطط المافيا للنيل منه.

| | |

بعد ظهر احد الايام كنا في طريقنا، انا وبيرسنتي ، إلى سيفالو Cefalù، وهي مدينة ساحليّة مشهورة شرقي بالرمو. كنا نسير محدثين أزيزًا أثناء مرورنا في طريق بجانب البحر ففتحت حقيبتي لاخذ منها بعض المستندات التي حرّرتها ليوقعها بيرسنتي. كنا نحضر مشروعًا لقانون بزيادة عدد المفتشين للأشغال العامة في صقلية وحملهم على

التناوب بصورة منتظمة من مدينة إلى اخرى. والغاية من ذلك ان نتجنّب صرف المبالغ الطائلة التي يتكبّدها البلد على المباني الرسمية، والتي يقوم بها أشخاص نافذون يتواطأون ويرتشون مع شركات المافيا ذاتها. هذه الإجراءات لم يعلن عنها بشكل واسع ولكنها كانت ضربة موجّهة إلى صميم الوضع القائم، كما كانت التحقيقات السابقة بخصوص المدارس الست.

فقلت له: "بيرسنتي، هل تعرف ما تُوَقِّع؟ هل تعرف؟"

فأجاب: "أعرف طبعًا".

فقلت: "الا تظن أنها على شيء من الخطورة؟"

فأجاب جازمًا: "نحن نقوم بواجبنا، لا أكثر ولا أقل".

اعتدت على أجوبته. فهو يريد طَمْأنَتي. ولكن هذا الجواب لم يُجْدِ نفعًا، ربما لأنني أدرك بأن رجلاً رسميًّا في موضع رفيع كبرسنتي يجب حمايته. وبتقاليد المافيا، يقال: "دائمًا داخل الدولة، لا موقف معلن ضد الدولة". ولكن كوزانوسترا تغيّرت. وليس بالسهل أن نفهم بالعمق كيف جرى هذا التغيير، ولكنه بات واضحًا ان الاشياء تغيرت.

في السنوات المقبلة سنفتقد المافيا "القديمة"، مافيا الضوابط والشرف بين اللصوص، المافيا الرومانسية التي لم تُؤْذِ يومًا النساء والاطفال. مافيا من هذا الطراز لم ترَ النور يومًا بالطبع. إن قادة المافيا "القديمة" كانوا قساة القلوب لا يرحمون. أحدهم ستيفانو بونتاتي Stefano Bontate زعيم بالرمو اشتهر بقبحه. عندما وصل لاجتماع متأخرًا ساعة كاملة قال بكل وقاحة: "أنا أعتذر عن التأخير. كان علي أن اغيِّر عجلة السيارة وان أَخْنُقَ (اقتل خنقًا) ستيفانو جيياكونا" Stefano Giacona. والآخر اسمه غيتانو بادالامانتي Gaetano Badalamenti زعيم سينيزي Cinisi وهي مقاطعة قرب المطار ذاعت شهرتها مع زيادة تهريب المخدرات. بادالامانتي صفع عضوًا في البرلمان في الستينات. وعندما ثار جيوزيبي انباستاتو Giuseppe Impastato وهو ابن "رجل

شرف" على عائلته لعلاقتها مع المافيا، وكان مقدِّم برامج في إذاعة محلية وأخذ يتهم الزعيم السابق ويلقي عليه أسماء سخرية اغتاله بادالامنتي رغم توسّل ابيه.

لقد حافظ الزعيمان بونتاتي وبادالامنتي على الخفاء والاستتارة التي رافقت المافيا. لا أخبار يعني ان الأخبار جيّدة. ترى المافيا أن تتمشى مع التوازن الاجتماعي وفي داخله دون أن تحدث اضطرابًا او انقلابًا عليه، وهي جزء اساسي فيه. الأهم ان تبقى مع السلطة وألاّ توجّه لها التحديات مباشرة.

ولكن المتاجرة بالمخدِّرات اختبرت هذه النظرية. كانت الارباح المحصلة ضخمة جدًا، وخلّفت فئة متشاوفة لا تطاق، وفتحت نافذة على عالم لا حدود له. ولكن عصابة جديدة ومجرمة، لاأخلاقية حتى بالعرف المافيويّ نشأت داخل كوزانوسترا. فكان الكورليونيون وهو من كلمة كورليون Corleone حيث رأى النور. رئيس هذه العصابة هو لوتشيانو ليجيو Luciano Leggio الذي ترأس على الكورليونيين بعد اغتيال طبيب عائلتي. وهو معتوه كان يحمل حربة قصيرة كالخنجر لحلّ الخلافات. اقتيد إلى السجن سنة 1974، ولكنه بقي يمارس سلطته من خلال رجلين يفوقانه شراسة وإجرامًا. أحدهما برناردو بروفانزانو Bernardo Provenzano معروف باسم "التراكتور" the Tractor لانه كالجرارة قادر على الذبح. والآخر حاد اللسان واكثر منه خطورة يدعى سالفاتور ريينا Salvatore Riina "توتو" ويلقب بالحيوان "the beast".

بونتاتي وبادالامنتي وغيرهم من المافيويّين "الحذقين" كانوا يسخرون من الكورليونيين ويعتبرونهم من نوع الفلاّحين او القرويّين. هؤلاء الزعماء في المدن الكبيرة يشعرون بأنهم يتأذون أكثر من تقوية القانون، ويريدون ان يسجلوا لهم بعض النقاط اذا أمكن. ومنذ الحرب الأولى للمافيا سيطر هؤلاء على اللجنة *Cupola*، وهي الهيئة المنظمة المكونة من عائلة الزعماء *Capofamiglia* أي من المافيويين الأكثر سلطة ونفوذًا وقوة. هذه الهيئة تضع الخطوط الأساسية لسياسة صقليّة، وتحافظ على السلم في المقاطعات الغربية منها. ولم يكن هذا الأمر ليعني الكورليونيين أي كيف يفسر الكوزا

نوسترا القوانين ودستوريتها. ولم يكونوا ليميزوا بين رموز السلطة واعدائها داخل المافيا نفسها عند اختيار اهدافهم. وببطء أخذوا ينحرون واقعنا وحقيقتنا.

وضع الكوزانوسترا سلسلة تراتبية لجرائمهم: جريمة قتل "**عادي**" *normal* لغلطة صغيرة لمن أساء السلوك تحفظ عند سلطة الكابوفاميغليا (عائلة الزعماء الكبار)، قتل "**ممتاز**" *excellent* – قتل سياسي محلي أو موظف حكومي مثلاً – يطلب السماح بتحقيقها من اللجنة، قتل "**جد ممتاز**" *most excellent* لشخصية رئيسية كبيرة تقرره لجنة موسّعة تشمل زعماء المافيا في سائر مقاطعات صقلية.

سنة 1977 استنادًا إلى هذا البروتوكول طلب الكورليونيون من اللجنة السماح لهم باغتيال جيوزيبي روسو Giuseppe Russo وهو عقيد في الجيش carabinieri أجرى تحقيقات بقضية تلزيم عقود اشغال المياه خارج كورليونيه. رد هذا الطلب لأن المافيا تريد ان تضع قتل رجال الأمن في آخر سلسلة خياراتها أي أنها لا تريد أن تبدأ بقتل رجال الأمن. وبالرغم من رد الطلب قتل الكورليونيون روسو عندما كان في عطلة. ولم يَكْفِهم اغتيال شخصه بل أرادوا ان يغتالوا سمعته ايضا بالتعريض به والقول ان قاتله هو زوج حملته الغيرة على قتله لأنه كان يضاجع زوجته. ولكنهم اخفقوا، فبعد سنوات قليلة على اغتيال العقيد جيوزيبي روسو نال ميدالية ذهبية تقديرًا له واعترافًا بشجاعته.

اما "الجثة الممتازة" التالية (والاسم مستوحى من عنوان فيلم للمدير الايطالي فرنسيسكو روزي Francesco Rosi) فكانت جثّة بوريس جيوليانو Boris Giuliano نائب رئيس الأمن في بالرمو الذي قتل رميا بالرصاص في 21 تموز 1979، وكنت قد صادفته منذ سنوات قليلة عندما كنت أعمل في مكتب والدي. في ذلك الوقت نشرت احدى الصحف شائعة خاطئة تقول أن والدي ينوي ترشيح نفسه ليصبح محافظ بالرمو. فكانت النتيجة انه تلقى مخابرات هاتفية وبعض التهديدات بالقتل. خابرت جليانو الذي حضر واقترح علي ان اتخذ بعض الاحتياطات الأمنية. يومها كان داهية ويوحي الثقة. الآن مات رميًا بالرصاص وهو يكاد يرتشف قهوة الصباح في احد المقاهي. انه الشخص

الأول الذي أعرفه والذي صادفته والذي يلقى حتفه بهذه الطريقة البربرية والعنفية. وعلمت من تحقيقات الصحف انه كان يتتبع اثناء اغتياله اثر حقيبة ملأى بالنقود وجدت في مطار بونتا ريزي في بالرمو Palermo's Punta Raisi Airport، والدولارات التي كانت تحتويها دولارات المخدرات لم تحصل فقط من تهريب المخدرات بل من مصانع تكرير هذه المخدرات، والتي كما يظهر هو أول من اكتشفها على الأراضي الصقلّية.

اما القتيل التالي فكان القاضي سيزار تيرانوفا Cesare Terranova الذي عاد لتوّه إلى بالرمو كقاض بعد ان كان في روما نائبًا في المجلس عن الحزب الشيوعي لبضع سنوات. تيرانوفا كان جريئًا لا يخاف، وأحال إلى المحاكمة أكثر المافيويين شهرة بمن فيهم لوتشيانو ليدجيو Luciano Leggio الذي قبض عليه بعد حرب المافيا الأولى. كان عضوًا في اللجنة التي قاومت المافيا *Antimafia Commission*. توعَّد وهدّد الزعماء الذين يحاطون بهالة من الحماية يوفّرها لهم السياسيون الكبار. وكان أول من عاقب كوزانوسترا "وتقفّى آثار اموالهم" وأجرى التحقيقات المصرفية والمالية بخصوصها.

في الخامس والعشرين من ايلول، بعد اسابيع قليلة من اغتيال جيوليانو أمطر ثلاثة مسلحين سيارة تيرانوفا بالرصاص وكان في داخلها برفقة مساعد له. وللتأكد من أنه فعلاً قد مات اقتربوا من السيارة وافرغوا في عنقه رصاصة الرحمة.

يتطلب اغتيال تيرانوفا قراءة تفوق تعقيدًا قراءة اغتيال جيوليانو، فهي ساعة الحسم في لعبة اللصوص والبوليس الأبدية. تيرانوفا لعب دورًا سياسيًا لعدة سنوات وكان قاضيًا ايضًا. تُبين المافيا باغتيالها تيرانوفا انها لا تقبل بعد اليوم العيش ضمن حدود.

| | |

قبل اغتيال بوريس جيوليانو بشهرين، رأى برسنتي ان الوقت قد حان "لفتح" صقلية – التي بقيت مقفلة لسنوات عديدة – على استثمارات دول اوروبا الشمالية الثرية،

لان استراتيجية من هذا النوع تنعش الاقتصاد. غاية التنمية الازدهار وكل ما يتأتى عنه لحياة منتظمة يمكنها ايضا ان تكسر الصلة بين السلطة والمافيا. رأى بوريس جيوليانو بتنمية صقلية الحاجة لإنشاء صناعات خفيفة منوّعة كتلك التي فتحت مجال الازدهار لشمال ايطاليا وليس بايجاد صناعات ثقيلة تكون سببًا للتلوث على حساب البيئة.

لأوّل مرة يلتقي رئيس منطقة صقليّة مع رؤساء التجمع اللومباردي للصناعيين Lombardian Industrialists' Association. لومبارديا هي منطقة في شمالي ايطاليا عاصمتها ميلان. ثم وجدنا منطقة أخرى تتلاقى مع أفكار بيرسنتي التنمويّة، وهي غنيّة ومزدهرة: بادن–ويرتامبرغ Baden-Württemberg في ألمانيا. ولأنني درست هناك وأجيد الألمانيّة أرسلني بيرسنتي لعقد أول لقاء مع المتعهدين في المانيا.

وجدت أن هذه الحال تنطبق جيدًا على صقلّيّة. وبعد أسابيع ذهبت مع بيرسنتي إلى شتوتغارت Stuttgart في ألمانيا. كانت زيارتنا ناجحة. قابل بيرسنتي أثناءها لوتار سباث Lothar Späth في مكتب رئيس بادن – ويرتامبرغ، ووضعنا اتفاقيّات للسنة الجديدة باستثمارات ألمانية كبيرة. وعدنا إلى صقليّة وكلّنا أمل بتحقيق مشاريع إنمائية. إمكانيات عظيمة! ارتقابات مستقبلية واعدة للاستثمار والعمل للصقلّيين: إقامة المباني السكنية وشقّ الشوارع في كل ناحية وصوب.

صادف يوم أحد عيد الغطاس سنة 1980. وهذا يعني للايطاليين نهاية العطلة والاعياد عيدي الميلاد ورأس السنة كما يقول المثل: "بذهاب عيد الغطاس تنتهي العطلة". كنت بعد ظهر ذلك اليوم أتمشى في البيت أرتشف قهوتي بلذة عندما مر نظري بسرعة على شاشة التلفزيون حيث رأيت مشهدًا من برنامج تافه يبث صباح كل أحد. ولم أشأ أنقله اذ تسمّرت عينايَ على الشاشة لأقرأ: "جُرح الرئيس السابق لمنطقة صقلية، بيرسنتي ماتاريلا، جرحًا بليغًا". فتسمّرت عيناي على المكان وللحال وجدت أن الرسالة قد تغيرت تمامًا وقرأت: "جرح الرئيس السابق لمنطقة صقلية، بيرسنتي ماتاريلا، جرحًا مميتًا!"

لم يساعدني عقلي على أية ردة فعل. وحَرَنَ على "السابق" "ex" prefixe كانت غلطة. بيرسنتي ليس رئيسًا سابقًا هو الرئيس الحالي لمنطقة صقلية وبقيت الكلمات تتتابع: "لقد قتل بيرسنتي ماتاريلا رميا بالرصاص في سيارته في فيا ليبارتا Via Liberta! "

ارتديت ثيابي بسرعة وهرولت إلى مستشفى فيلا صوفيا Villa Sofia حيث نقل جثمانه على الفور. وهنا اكتشفت انه لم يكن "مصابًا بجرح بليغ" بل انه مات! لقد قُتل وهو في طريقه إلى الكنيسة لحضور القدّاس وكان مع زوجته يقود سيارته بنفسه. قتل بيرسنتي بحضور زوجته التي توسّلت إلى القاتل ألا يقتل زوجها.

لم أكن أعرف ماذا أفعل، إلى أين أذهب، لم أكن أعرف بمن أثق أو ممّن أخاف. وخرجت مع زملاء بيرسنتي الآخرين وتوجّهنا نحو مكتبه. كنا نظن أن ترتيب بعض الأوراق او أي عمل آخر يوقظنا من هذا الكابوس. ولكن برسنتي كان رجلا يحبّ النظام، ولم نجد مستندًا او ورقة واحدة في غير محلها، أي إننا لم نجد أي عمل يشغلنا.

عُرِضَ جثمان بيرسنتي في مكتبه في الطابق الثاني من بالازو دورليان Palazzo d'Orleans. فوق تابوته علّقت لوحة لفارسين يتبارزان. وهذا مشهد تقليدي في صقلية لفنّان من مدينة صقلية قديمة – كورليونيه. كان بيرسنتي محاطًا بالذين عملوا إلى جانبه. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان. مئات من العائلات الصقلية وقفت أمام تابوت بيرسنتي تقدم له الولاء: الأمهات مع أطفالهن والآباء مع أبنائهم وبناتهم.

كان يوم دفن بيرسنتي يومًا مكفهرًّا وممطرًا وكئيبًا. رفعنا نعشه على اكتافنا وقد تبللت وجوهنا بالدموع والمطر في آن. في الكاتدرائية المكتظّة بالحضور تكلّم كاردينال بالرمو، سلفاتوريه بابالاردو Salvatore Pappalardo عن الشر. لم يكن احد منا ليتصور انه للمرة الاولى يقام الجناز في هذه الكاتدرائية، ويجرؤ الكاردينال بالتلفظ بكلمات قوية ومؤثّرة تنير طريقنا عبر الظلمة التي زجّتنا فيها المافيا.

اغتيل بيرسنتي في 6 كانون الثاني، وفي اليوم التالي تلقّيت مخابرة هاتفية من شتوتغارت جاء فيها: "تلقّينا لتوّنا الخبر. نحن متأسفون جدًا، ولكن في هذه الحال نلغي كل تعهداتنا".

وكذلك قُطعت كل علاقاتنا مع متعهدي بادن- ويرتمبرغ. وكل العلاقات بين الصناعيين اللومبارديين دُفنت قبل أن ترى النور.

4

كارلو البرتو دالا كييزا

أول مخابرة هاتفية تبنّت عملية اغتيال بيرسنتي هي من تجمّع إرهابي فاشستي. لم يحسم الأمر نهائيًا، إذ كان ثمّة علاقات بين بيرسنتي واليسار ولو غامضة. ولكن كذلك كان أَلْدو مورو الذي اغتاله اليساريون في الألوية الحمراء. وأغلب الظن انها المافيا التي لم تدَّعِ قطُّ مسؤوليتها عن أيّة جريمة قامت بها. لأن عداء بيرسنتي لتشيانتشيمينو وكل ما يمثله كان معروفًا وواضحًا، وكذلك عداؤه لأبناء عم سالفو القادمين من ساليمي Salemi، وهي قرية صغيرة من مقاطعة تراباني Trapani التي أتت منها عائلة بيرسنتي.

تشيانتشيمينو وابناء عم سالفو ومن لَفَّ لَفَّهُم هم الذين كانوا الاعداء بنظر بيرسنتي. وواضح اليوم ان هذه القوّة المترابطة هي التي قتلته، لا لما عمله بل لما يستطيع فعله في سبر غور العلاقة بين المال والبناء والسياسة. بهذا المعنى كان بيرسنتي أهم شخصيّة رسميّة شهيرة اغتيلت احتياطيًّا لأنها تهدّد مصالح المافيا.

وقبل ان أَبحث عن آثار واضحة للجريمة بدأت أعمل لانشاء حزب ديمقراطي مسيحي يستوعب الصقلّيين الذين لا يريدون العيش في دولة تتواطأ مع الكوزانوسترا. وشعرت للحال بأنني ضَلَلْتُ الطريق. وكان أحد أصدقائي بارون جيونكارلو فالنتي Baron

Giancarlo Valenti قد فهم كم كان قاسيًا أثر وقع موت بيرسنتي على قلبي، وحاول ان يَنْتَشِلني من وعكتي النفسية، فأتى لزيارتي مساء أحد الأيام.

وقال بعد ان ربط "بوصلة" حول عنقي: "ربما تساعدك على ايجاد الطريق".

وبعد شهرين، كان جيانكارلو عائدًا في مساء ممطر بسيارته على الطريق الرئيسية، فسقط في واد وتوفي على الفور تاركًا لي بيته الجميل، فيلّلا فيرجينيا حيث انتقلت للسكن مع زوجتي وابْنَتَيَّ.

| | |

سنة 1980 كانت سنة الانتخابات للمجلس البلدي في بالرمو، فدفعني سرجيو، أخو برسنتي واصحابه، ومحازبوه إلى أن أقدّمَ ترشيحي لهذا المنصب.

أَلَحَّ سرجيو وقال لي: "لوكا يجب ان تُقَدِّم ترشيحك للمجلس. هذه أوّل انتخابات بعد موت برسنتي، ويجب أن يعرف القتلة أنهم قتلوا بيرسنتي، ولكنّهم لم يقووا على قتل افكاره".

قَبِلْتُ ان أقدّم ترشيحي وللحال اتصلتُ هاتفيًّا بسالفاتوريه مانتيونيه Salvatore Mantione المحافظ السابق. وهو صيدلي بالتَمَرُّس ورئيس جمعيّة الصيادلة في بالرمو، فدعاني إلى منزله. كنا في نيسان والجوّ قد أصبح حارًا قبل الأوان، وأُدْخِلْتُ غرفة الاستقبال حيث تقدم رجل مسن ودعاني الى الجلوس. فكانت جلسة على الطراز المذهبي الصقلي التقليدي.

وبينما كان يحرّك السكر في قهوته، رماني بنظرة فضولية فيها شيء من الشفقة أَثَرَّتْ في نفسي.

وسألني: "بربك، لماذا تريد ان تُرَشِّح نفسك؟ لتدخل السياسة في بالرمو؟ انظر كيف أصبح محافظ بالرمو!"

نظرت إلى وجهه المغطى بالحزن والألم، وإلى التشاؤم المسيطر على نظراته، ولمست سمات الهم والتعب البادية على محيّاه مع العلم أنه لا يزال في منتصف العمر، فكدت أُغَيِّر رأيي في الموضوع.

لو كنتُ مرشحًا ديمقراطيًّا مسيحيًّا فحسب لأمطرت عليّ عروض "المساعدة". ولكني كنتُ مدعومًا بأصحاب بيرسنتي وممثلاً لفلسفته، لذلك لم يَعْرِضْ عليَّ احد المساعدة، كما أني لم أطلب مساعدة من أحد. في بدء معركتي الانتخابية، توجَّهَ إليَّ رجل مسنّ وحكيم من بالرمو يتكلّم اللهجة الصقليّة بالتنبيه التالي قائلاً: "بروفسور انت رجل تفرض الاحترام ولا يعرفك الكثيرون، لكن الذين يعرفونك سيدلون لك باصواتهم. سيكون الفوز حليفك، ولكن لن تصل إلى غير بايبي لونا Baby Luna ولا يمكنك الذهاب أبعد".

والبايبي لونا بار يقع على جسر نهر اوريتو Oreto، وكان في حينه نهرًا ملوّثًا تنبعث منه روائح كريهة، وهو يفصل المدينة عن الضواحي التي يتجمع فيها أكبر نسبة من المافيويّين. وهي احياءُ برونكاكتشيو وتشيياشولا وكروسيفردي جياردیني .Brancaccio, Ciaculla, Croceverde Giardini. وبالفعل عندما بدأنا فرز الأصوات نلت أكبر عدد من المقترعين، ولكن عندما انتقلنا الى صناديق المقاطعات التي هي على الضاحية الثانية من اوريتو أَخَذَت نسبة المقترعين لي تتدنّى. ولكنّي انتُخِبت بالنتيجة.

ككل المواطنين كنّا دائمًا نتجنّب بالازو ديلي اكيليه Palazzo Delle Aquile قصر مدينتنا الرسمي ورمز ما هو فاسد وقذر في بالرمو. الآن أَخَذْتُ مركزي في قاعة الاجتماعات الفخمة. عندما كنت صاعدًا أدراج المبنى الرخاميّة الجميلة أَلْقَيْتُ نظرة على محيطه وعلى أجمل مناظر بالرمو الخلابة: كنيسة القديس كاتالدو العربية – Arab-Norman Church of San Cataldo مع قببها الثلاث، بالقرب منها كنيسة المارتورانا La Martorana وقد بان برج جرسها وهو من القرن الثاني عشر.

كم كان مريحًا ان أُمَتِّع نظري بهذه السكينة، ولكن عندما أصبحت في الداخل، وحاولت ان أباشر وظيفتي كعضو في المجلس البلدي Councilor، وجدت نفسي في جوّ سورياليّ. أتذكَّر أنّه عندما كان علينا ان نناقش في احد اجتماعاتنا الاولى ونصوّت على عقد بناء تبلغ كلفته عدة ملايين من الدولارات، طلبت ما هو بديهيٌّ جدًا، أي أن يتم العقد من خلال مناقصة عامة. فما كان من رئيس جماعة الديمقراطيّين المسيحيّين إلاّ أن صرَّح بأنه راجع أحد القانونيّين الذي أفاده بإمكانيّة عقد هكذا مشروع دون اللجوء إلى المناقصة العامة. واكتشفت منذ اللحظات الاولى ان هناك دائمًا قانونيًّا "مسؤولاً" "موثوقًا به" حاضرًا للمدافعة "بمسؤولية وثقة" لمصلحة مافيويّ. فأشرت بأنني أريد ان أُقَدِّمَ عرضًا قصيرًا للموضوع، وكنت مصمِّمًا على التصويت ضد هكذا مقاربة. ولم أكد اقف حتى دفعني عضو بلدي آخر، وصرخ عاليًا: "إنهم يطلقون الرصاص"!

فكّرت بدءًا أنه يمزح، ولكن عندما تحقّقت أن الانذار واقع في محله اضطربت. ذهبت قدمًا، وتكلّمت، ولكني لم أعارض الموضوع كما خَطَّطْتُ له. تكلّمت وصوَّتُّ ضد المشروع. وكان هذا كل شيء. وبقيت أسمع هذه الكلمات: انهم يطلقون الرصاص! أعرف انهم يفعلون وقد رأيت جثمان بيرسنتي. مع الوقت تعلمت أن فزعي هو ردة فعل طبيعية، ولكنها كانت غلطة تكتيكية. ان نقاوم المافيا علنا أفضل من مقاومتها سرًّا. تعرف المافيا موقفك قبل أن تعلنه، ولكن إذا أعلنت موقفك عاليا، فسيعرف غير المافيويّين بذلك ايضا وسيعملون على انقاذك.

| | |

لن تتوقف مطاردة ممثلي الدولة التي انطلقت باغتيال العقيد روسو وبوريس جيوليانو والقاضي تيرانوفا ثم بالرئيس بيرسنتي.

امانويل بازيل Emmanuele Basile هو الضابط في الجيش *Carabinieri* الذي أجرى التحقيقات مع جيوليانو في قضية تهريب المخدرات عبر مطار بونتا ريزي. كشف ان التهريب مرّ بمدينة بولونيا Bologna (وكان وباء إدمان الهيروين في أوجّه

في إيطاليا) ومنها لِعَمّ توتو رينيا Toto Riina وقريب لوتشيانو ليجيو. في ايار 1980، وكان بازيل قد بدأ تحقيقاته بمراقبة حسابات المهرّبين المصرفية، فقُتِلَ اثناء مسيرة عيد الصليب المقدّس، اذ كان يحمل ابنته وهي في الرابعة من عمرها. اقترب منه ثلاثة مسلّحين وأطلقوا في ظهره ست رصاصات.

بعد شهور قليلة كان غيتانو كوستا Gaetano Costa رئيس النيابة العامة في بالرمو خارجًا من منزله لشراء بعض الكتب والمجلات لترافقه في عطلة على البحر مع عائلته. أَفرغ مجرم في أحد شوارع المدينة سلاحه في وجهه ورأسه. فتشوّه وجهه وبقيت السلطات اكثر من ساعة امام جثمانه لتتعرف إلى شخصيّة بارزة كانت تحمّس منذ سنوات لجنة الانتي مافيا على وجوب حث المسؤولين الرسميّين على درس العقود بدقّة قبل توقيعها. وكان كوستا قد حاول مرارًا ان يلتقي احد زملائه روكو شينتشي Rocco Chinnici رئيس النيابة العامّة الآخر في المدينة. وعندما قصده في مكتب المحقّقين القضائيّين عقدا الاجتماع بينهما في مصعد المبنى، حيث ناقشا التحريات التي اتبعها كل منهما، والمصعد يصعد إلى أعلى الطوابق ثم يعود إلى الأسفل.

اتفق تجمع الديمقراطيّين المسيحيّين على وضع تقرير عن مقتل كوستا لتقديمه إلى المجلس للموافقة. بعض الاعضاء الذين يمثّلون دمى لتشيانتشيمينو عارضوا فكرة استعمال كلمة مافيا في التقرير، واصرّوا على ان يستعاض عنها بكلمة "الإجرام" criminality، أي كأي إجرام موجود في أي بلد في العالم. وكان الجدال ساخنًا، والذي لفتني هو ردة فعل عضو شاب وطموح، وهو جيوزيبي انسالاكو Giuseppe Insalaco الذي كان على علاقة وطيدة بسياسة المافيويّين.

صرخ انسولاكو قائلاً: "كيف يفكّر هؤلاء الشباب؟ لا يريدون استعمال كلمة مافيا؟ لماذا؟ هل امسكوا بدون بيبينو Don Peppino، وهو *Capomafia* في مقاطعة صغيرة، من يهتم بهذه الكلمة؟ أَلَمْ يفهموا بعد ان دون بيبينو ورؤساءه لا يستطيعون غضّ النظر عن استعمال هذه الكلمة بعد اليوم؟"

ان تأتي ردّة الفعل من انسولاكو هذا علامة واضحة على أن زمن نكران وجود المافيا قد ولّى. قبل هذا استعمال كلمة مافيا كان محاولة الكتابة على الرمل. اليوم لا نستطيع ان ننكر وجود المافيا. المافيا موجودة ولو انه يستحيل علينا وجود أي عنصر قد انتمى اليها.

| | |

جاهدت لأكثر من سنة كعضو في المجلس البلدي شعرت خلالها بانني غير نافع ومحبط. بعملي مع الاب بنتاكودا، حاولنا ان نعالج بعض المسائل الاخلاقيّة في حكومتنا وثقافتنا. وقرّرنا ان ننظّم مناقشة موضوعها "السياسة والمافيا" مع بيو لا توريه Pio La Torre، رئيس الحزب الشيوعي الصقلي والنائب في البرلمان. اجتمعنا في بهو البلدية في مونريال Monreale، وهي مدينة صغيرة على تلة فوق بالرمو مشهورة بكاتدرائيّتها، وهذه تحفة في الفن المعماري تحتوي على أجمل وأفخم فسيفساء في ايطاليا، وقناطرها آية في الجمال ومن الطراز العربي–النورماني Arab-Norman. أثناء المناقشة تصدّى لاتوريه لحزبي ولتشييانتشيمينو اسْميًّا، اذ أصبحنا نمثّل في نظره نقطة لقاء عنوان المناقشة وهي السياسة والمافيا. كنت في عمقي ضدّ الشيوعيّة، وأعرف أنَّ للحزب الشيوعي أسبابه المنكَرة لمحاربة المافيا التي تسقط سمعة الحزب في السلطة، ولكنه يبقى في الجانب الصحيح من القضية.

تحدّاني بيو لا توريه أن أوقّع العريضة التي كتبها ضد وضع قاعدة الصواريخ في كوميزو Comiso Cruise missiles، وهي مدينة صغيرة في شرقي صقلية. رضيت بذلك لأن وجود قاعدة عسكرية سيحِدّ من الارتقابات الاقتصادية، ويزيد إفقار هذه المنطقة المحرومة. فكانت ردة فعل الحزب الديمقراطي المسيحي عنيفة لدرجة أنها أَبْكَمَتْني، ووجدت نفسي عاجزًا عن الرد. لقد حوربت علنا وعلى صفحات الجرائد المحلية. وحتى في المسائل الدوليّة التي ليست على علاقة مع المافيا، نحن على خلاف في الرأي.

وهذا ما يعكِّر جو الخضوع والجمود الذي كانت تتميز به صقلية في هذا الظرف. كل مقاومة للأمر الواقع كانت من المحرّمات.

في عودتي من روما إلى بالرمو التقيت صدفة في المطار بيو لا توريه. وكان لا توريه يتميز "بكاريسما" كبيرة تتأتّى من صراحته وقدرته على الدخول في صميم المشكلة. فكان دائمًا في الموقف المناسب، لا في قضيّة المافيا فحسب، بل في عدّة أمور. حارب لتحرير الفلاّحين والعمال الزراعيّين الذين لا يزالون يعيشون في ظلّ النظام الاقطاعي. لا توريه هو أول من تفهم الخطر الذي يهددنا، والذي تمثِّله الثروة الطائلة التي جمعها المافيويّون. وتقدم باقتراح قانون إلى المجلس النيابي يطلب من الدولة وضع يدها على مقتنيات المافيا وحساباتها المصرفيّة وأملاكها لأنها ثمرة نشاطاتها الاجرامية. وكان هذا هجومًا جريئًا على الكوزانوسترا. وأفضل من هذا اقتراح قانون آخر مفاده اعتبار كل عضو في المافيا مجرمًا.

عندما التقيت لا توريه في مطار روما ضحكت، وقلت له: "هل لاحظت ما حدث عندما أيّدتُ وجهة نظرك في الاجتماع؟" قال: "لا، ماذا؟" قلت: "في ذلك اليوم، وجّه اليّ الامين العام في الحزب الانتقادات لأنني وقَّعْتُ عريضتك بخصوص الصواريخ". فابتسم وقال: "ويتهموننا باننا غير ديمقراطيّين".

| | |

عندما بدأ عدد الجثث يتصاعد سنة 1981، كنّا جميعًا أمام جثث رجالات عظام، ذنبهم أنهم حاولوا الادعاء على المافيا أمام المحاكم. ولكن أغلب الجرائم التي تورّطت بها المافيا ذاتها، وما اسميناها حرب المافيا الثانية، شبّت في كل مكان وزمان.

حرب المافيا الاولى كان قوامها معارك بين فئات متعارضة داخل المافيا، بينما كانت الحرب الثانية حربًا خفيّة يقودها الرئيس توتو ريينا الذي كان مجرمًا جافي الاخلاق، ولم يشارك فيها رؤساء المافيا في المدن الكبيرة. وعندما قبضت عليه السلطات

فيما بعد أراد ريينا ان يقول في دفاعه انه رجل ساذج أمّي لا يعرف القراءة، ولكنّه كان رجلاً طموحًا بشكل غريب، متعطشًا للسلطة ومصمّمًا بعناد على السيطرة المطلقة على الكوزانوسترا، بما فيها الارباح التي تجنيها من المخدّرات. لم يكن تطبيق السلطات للقانون السبب الوحيد للوقوف بدربه. ولكن تحذيرات زعماء المافيا الكبار كانت أيضا مشكلة تزعجه بمبدئها القائل: "ابدًا ضد الدولة، دائمًا داخل الدولة". لذلك ثار ضدّ الاثنين معًا: السلطات والمافيا.

أول اشارة إلى ذلك كانت سنة 1978 عندما ذهب جيوزيبي دي كريستينا Giuseppe Di Cristina رئيس مدينة ريزي Riesi في شرقي صقلية من الكورليونيين إلى الأمن ليعلم عن الفرقة التي قتلت العقيد روسو وتنوي قتل آخرين. وبالتالي بدأ يلغي منافسيه في الكوزانوسترا. وَتَنَبّأَ ايضا بقتله هو بالذات وقتل بعد ذلك بقليل. وبين الاغراض التي وجدت في جيب دي كريستينا ورقة دوّن عليها رقم سالفو ابناء عم Salvo cousins، أصحاب الثروات الاسطوريّة الطائلة وأركان العالم المسيحي الديمقراطي. ولكنّهم لم يتتبّعوا هذا الخيط ولم يأبهوا لتحذيرات دي كريستينا عن الكورليونيين.

موت بيرسنتي والآخرين أظهر بأن دي كريستينا كان على حق بجزء من تحذيراته. والآن اغتيالات المافيويّين بمن فيهم بادالامنتي وبونتاتيه والزعماء الآخرين التقليديين يؤكد الجزء الثاني. جرائم ريينا نشرت على الجدران خارج بالرمو، والضحايا لم تكن ذات شهرة بالمعنى الاجتماعي والاخلاقي، ومعظمها لم يعثر عليها قط، فاعتبر امرها اختفاء. لم يشن ريينا حربًا في الشوارع كحروب المافيا السابقة في الستينات وإنّما كان يستفرد اعداءه ويريهم حتفهم المحتّم.

ترك جيتانو بادالامنتي البلاد بعد ان كانت في السبعينات تحت سيطرته مع ستيفانو بونتانيه وتوتو ريينا. وشغل مكانه زعيم يدعى ميشال غريكو Michele Greco من عائلة حليفة للكورليونيين. كان لغريكو عادات وعلاقات غير موجودة عند الكورليونيين. كان يملك ضيعة كبيرة حيث يستطيع الترفيه عن النفس. وفي حرب المافيا

دعا إلى ضيعته أخصام ريينا وقضى عليهم. ولم يلبث ان لُقِّب "بالبابا" The Pope لا بسبب سلطته، لأنها كانت وهميّة، بل لأنه كان يحمل في جيبه صورًا للقدّيسين ويستشهد دائمًا بالتوراة.

كل هذا توضَّح فيما بعد، ولكن في عالم المافيا الدامس حيث لا شيء يظهر على حقيقته كان صعبًا جدًا ان نفهم ما يجري في حينه. تمركزت قوات ريينا في البدء لتسيطر على كاتانيا Catania وآغريجانتو Agrigento وغيرهما من المدن قبل ان تدير انتباهها إلى بالرمو. هناك كان باستطاعة ستيفانو بونتاتيه ان يبقى قويًّا ويقاوم. وعندما تحقّق ممّا يجري خطّط لقتل ريينا. وحين اجبره الآخرون على اخذ ميزان القوى في الاعتبار، أجاب بونتاتيه بكل عجرفته بأن لديه مئتي جندي يحمونه ولا يخاف شرًا، لكنّ محازبيه عَدَّلوا مواقفهم وابتعدوا عنه. حتى ان ريينا استجلب لجانبه أخا بونتاتيه بعد أن حرّك عنده شعور الغيرة والحسد وحوّله إلى "جاسوس" يعمل لصالحه.

في مساء 23 نيسان 1981، وبعد ان كان بونتاتيه عائدًا من حفلة ميلاده الرابع والثلاثين قُتل رميًا بالرصاص عند إشارة سير للتوقّف وهو داخل سيارته البورش. وكذلك انتهت رسميًّا حرب المافيا الثانية.

وتميّزت السنوات الثلاث التي تلت بسلسلة من المجازر لا تنتهي، ومعظمها من اعضاء عائلات مفقودة بكاملها. بعض الجرائم كانت مأسوية. مثلاً ذبح ثمانية اشخاص في اسطبل وغيرها من الجرائم العديدة التي لم يعرف عنها شيء ويسمونها اختفاء "الذئبة البيضاء" *lapara bianca* أي أنهم قُتِلوا دون ترك اي اثر للدماء. ويبقى غير أكيد احصاء عدد الضحايا التي تكبدّتها صقليّة في حرب المافيا الثانية ويقال انها فاقت الألف.

| | |

في اضطرابهم المجنون لم يحصر الكوليونيون انفسهم "باصطياد" المافيويّين "الضالين".

في 30 نيسان 1982، قتل رئيس الحزب الشيوعي الصقلّيّ مع سائقه، وهو في طريقه إلى مركز الحزب الرئيسي في بالرمو، في شارع هادئ وضيّق. لقد أطلق عليهما الرصاص مرارًا وتكرارًا ومن مسافة قريبة. يومها لم يكن هناك قاتل واحد بل عدة قتلة من سائقي سيارات وراكبي دراجات هوائية. كانوا يريدون التأكد من عملهم هذا أي انهم يريدون القضاء على رئيس الحزب الشيوعي مهما كلف الأمر.

عندما كانت تسقط جثث الشخصيات الصقلية الشهيرة كرجال الأمن والقضاة والسياسيين – بيو لا توريه Pio La Torre كان نائبًا في البرلمان – اضطرت روما إلى ان تتدخل، وأرسلت لانقاذ بالرمو بطلا قوميًا لقيادة المعركة ضد المافيا هو الجنرال كارلو البرتو دالا كييزا General Carlo Alberto Dalla Chiesa. كان الجنرال كارلو البرتو دالا كييزا جنديّا carabiniere من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه مع كل الادبيّات "الخادعة" وهيبة "جندي قديم الزمان" ويريد ان ينتصر. لقد ترقّى ضمن السلك العسكري وأصبح أسطورة بعد هزيمة الالوية الحمراء. استعمل طريقة الهجوم المضاد، فكوّن فرقة من النخبة واجبر أعضاءها على قراءة كتب اليسار ودرس وجهات نظر الالوية الحمراء ليتعلموا ان يتكلموا وان يفكروا مثلهم. حاول رجلان من النخبة الدخول في تنظيم الألوية الحمراء ونجحا "بقلب" أول مخبر، واسمه بيتشي Pecci. عندما بدأ بيتشي بقول ما يعرفه كان اختراقًا اوّلاً ولو بكلفة عالية: خطفت الالوية الحمراء اخا بيتشي وسجّلت على الفيديو استجوابه المريع ثم اغتياله.

اذا نظرت إلى دالا كييزا ظننته الممثّل الكبير والمدير المشهور فيتوريو دو سيكا Vittorio De Sica. فهو كبير الشبه به: طويل القامة، أنيق المظهر، جميل المحيّا يرتدي غالبًا درعه العسكري من طراز أرماني Armani. بالفعل كان دالا كييزا بدين وجليل مهيب الطلعة يلقي عليك نظرات ثاقبة يزيد من جمالهما نظارتاه الكبيرتان. كان

يصل إلى حدث ما في قافلة من السيارات مع صفاراتها، ثم يرسل موكبه الرسمي مع الضجيج، بينما يسير هو نحو الحشود التي تنتظره ويدخل كأي شخص آخر.

كادت الالوية الحمراء تقطع الأمل من النيل من دالا كييزا، ولكنها لم تقطعه، وبقيت تخطّط له. كان يتجنّب المرور في الطريق نفسه مرتين عند قيامه بأي عمل. ولم يفعل ذلك قطّ. كان يغيّر برنامج طريقه في آخر دقيقة، ويأتي فجأة حيث لم يكن أحد لينتظر مجيئه، يَحْجِز في مطعم ويذهب إلى غيره، يسافر في التاكسي يومًا وفي الباص مرة أخرى. لم يتبع قط نمطًا معينًا.

كان دالا كييزا من البيامون Piedmont في توران Turin، ولكنه لم يكن غريبًا في صقلية. كان قائدًا في الستينات للوحدات العسكرية المختصة بملاحقة قطّاع الطرق واللّصوص في كورليوني Corleone. ثم عاد في السبعينات عندما وصلت للعقيد روسو إشاعات مفادها ان دالا كييزا مستهدف من الكورليونيين. استنتج من خبرته الاوليّة ان صقلية هي ارض "رسالة". وقام بزيارة كورليونيه، زيارة علنيّة ورسميّة وقضى نصف نهار بعد الظهر يجول على الاقدام يده بيد روسو Russo في شوارع المدينة. فكانت الرسالة واضحة: أنا مسؤول عن أي ضرر يلحق بهذا الرجل. الضرر به يمسني شخصيًا. وكان يأمل أن يحالفه الحظ لتحقيق هذا الوعد.

صدّقنا كلنا ان المافيا لاقت على الأقل من يضاهيها قوة وحنكة وبطشًا. لم نكن نفكر في أن الصلاحيات الخاصة التي طلبها دالا كييزا بصورة ملحَّة سَتُرْفَض، ولم نكن نعرف ان تعيينه لهذا المنصب لم يُلاقِ تأييدًا وافيًا عند النافذين في الحكومة الوطنيّة. وسَرَت شائعة مفادها انه منذ سنوات عندما وصل إلى المبنى حيث قُبِضَ على الدو مورو وجد نسخة من "الاعترافات" "confession" تفيد أن مورو عُذِّبَ أشد تعذيب، وأن هذا المستند كان يحتوي على معلومات شائنة عن بعض السياسيين المؤتمنين على مصير البلاد. قبل ان يتبين من يوميّات دالا كييزا أنه قبل ان يأتي إلى بالرمو ذهب ليقابل جيوليو اندرييوتي Giulio Andreotti، وهو رئيس حكومة للمرة السابعة، ومن أشهر

السياسيّين الايطاليّين البارزين في فترة ما بعد الحرب. كان اندرييوتي براغماتيًا يائسًا من صلاح البشر يمكنه ان يدّعي أنه ماكيافللي زمانه. يستعمل أقوال ماكيافللي المأثورة مثل "الحكم يقوى على من لا يقوى عليه." كان مدينًا جدًّا للذين اقترعوا له من الديمقراطيّين المسيحيّين في صقليّة. دَوَّنَ دالا كييزا في يومياته انه عندما قال لاندرييوتي أريد أن أرى كل شيء، لا النشاطات الاجرامية فقط بل العلاقات السياسيّة ايضًا. "اصفَرَّ وجه" اندرييوتي واضطرب لأن الأمر لم يَرُق له. بعد ذلك بقليل كتب اندرييوتي مقالاً يتساءل لماذا تُرسل إيطاليا شخصيّات سياسيّة مرموقة إلى صقليّة. وصادف ان كان خارج الحكم في ذلك الوقت.

رغم الاخبار القائلة أن دالا كييزا نال مساندة في حربه على المافيا، شعرت بقلق يتزايد على دوري بالذات. لقد انتُخبت لأحمل راية بيرسنتي ماتاريلا للاصلاح والنهضة، ولكن بدل أن أحارب بجدّية من أجل المبادئ وجدت نفسي مكبّلاً بالبيروقراطيّة المدنيّة التي حتى عندما لا تكون المافيا متورطة، تعطل الحياة السياسية. شعرت وكأنني أُمَرِّر الايام، أسرح في ساحة آكيل Palazzo Delle Aquile افتِّش عن محل استطيع ان اكون فاعلاً فيه أو أن يكون لي تأثير فيه. كان من المستحيل في بعض الأيام ان اسيطر على الغضب، أو ألاّ انفعل على ما تلاقيه بالرمو يوميًا من فظائع.

في إحدى الامسيات وجدت نفسي جالسًا في أحد الملاهي مع صديقي رفائللو بوناني Raffaelo Bonanni الذي يحاول ايضا ان يعطي الحياة في المدينة نفسًا ديمقراطيًا بإمكانية إنشاء اتحاد منظَّم.

وفجأة صرخت: "لقد وجدتها. سأستقيل واذهب من جديد إلى عملي في الجامعة".

فكان صدى لرفائللو: "وانا ايضًا وجدتها".

وفي حديثنا ليلاً كنا نقنع أحدنا الآخر بأن تعيين دالا كييزا يشير إلى أنّ روما جادة في محاربة المافيا. ونحن كذلك لاحظنا أن الفجر ينبثق في الخارج. كنا نعمل طوال الليل لننسى يأسنا وينفح كلّ منا الآخر بكلامه ووجوده شيئًا من التفاؤل.

في الأشهر القليلة التالية، انهمكنا بتحضير تسجيلات فيديو تُظهِر عدم فعالية المجالس البلدية، المدارس غير المنجزة، الانحطاط المدني في أطراف بالرمو والفوضى في الوسط التاريخي. بعد أن انهينا هذه التسجيلات عرضناها على شاشات كبيرة في بهو الكنائس والأبرشيّات في مختلف أنحاء المدينة. وطلبنا من المجالس البلدية بأجمعها ان تعالج مشاكل البناء والانحطاط المدني في بالرمو. عَرَّفْنا بأنفسنا كمنسّقين عن الحزب الديمقراطي المسيحي، وتقدمنا بمعروض ضدّ عدم جدوى وجديّة عمل مجلس المدينة بمعالجة هذه المواضيع.

قمنا بهذا العمل مع منظّمة أخرى تدعى "مدينة الانسان" City of Man أسّسها مرشدي السابق الأب بنتاكودا. وهذا يعني أننا نريد ان تكون بالرمو مدينة للإنسان لا مدينة للمافيا. بقي بنتاكودا خارج المنظمة ليهتم بتقوية الكاثوليكيّين دينيًّا ويقنعهم بألاّ يستقيلوا وان **يعيشوا** مسيحيتهم في التزامهم السياسي الذي لا رجوع عنه. وكانت "مدينة الانسان" خطوة رئيسية في النهضة الاجتماعية التي لم تفتأ ان انتشرت في كل انحاء بالرمو.

قام دالا كييزا بواجبه بتواضع يتنقل في المدينة بسيارة فيات بسيطة لا بسيّارته المصفّحة التي قُدِّمَت له. ولكن منذ البداية كان يعمل في محيط عدائي موصد وحقير. كانت المافيا تعرف ذلك. فالجنرال أرمل منذ سنوات، وأولاده الثلاثة بلغوا سن الرشد فتزوج مؤخرًا للمرة الثانية ايمانويلا Emanuela، ممرّضة من الصليب الأحمر فاتنة وتصغره سنًّا. فهذه العلاقة كانت موضوع اقاويل بذيئة، الغاية منها الحط من مقام الجنرال دالا كييزا وهيبته.

القيت نظرة على المهمّة التي أوكلِ َت إلى الجنرال ديلا كييزا وعلى الذل الذي ناله منها. المدينة التي حاول تأهيلها وانهاضها بانت وكأنها تعيش حالة طوارئ غير رسمية فرضت نفسها. لم تكد المحلاّت تُقفل حتى تَفْرغ الشوارع ويعود المواطنون هرولة إلى منازلهم. كان يخيّم على بالرمو نوع من الخوف والرعب والقلق وكأنه غيمة سوداء لا

تفارقها. وحتى في أيام الحر كانت الحياة الليلية شبه مفقودة. وجدت الحياة الاجتماعية مكانها في المنازل وصالات السينما والمطاعم. ان تتأخر على الطرقات أو أن تجلس على الأرصفة وفي مقاهي الأرصفة ليس من المسموحات. الحياة في الخارج التي تجعل من أمسيات المدن المتوسطيّة الحارة والطويلة أمسيات زاهية وفاتنة فقدت من عالمنا.

أدرك دالا كييزا أن أوّل شيء عليه ان يعطيه للصقّليّين هو نوع من الأمان والشعور بأن لهم الحق بشوارع مدنهم وبالتمتع بها. ولما كان يعرف أن المافيا تتكلم عبر رموز حاول ان يوجد رموزًا لا تقل بلاغة عمّا للأنتي مافيا، وأخذ ونحن معه نستوحيها ونوحيها. كان يعرف مثلنا أن الرد "العسكري" لا يكفي. فَهَمَّ الجنرال يتكلم في المدارس، ويجتمع الى رجال الأعمال وإلى عمال بالرمو، ويتصل بعائلات المدمنين على المخدّرات وغيرهم ممن هم في أعماق مجتمعنا الذي لا يُدْرَكُ غَوْرُه. وكان همّه أن يوصل إليهم ويثبت لهم أهمية القاعدة الحقوقيّة. وبينما هو يفعل كل هذه الأمور كانت بالرمو تُمْسِكُ أنفاسها.

في أحد مشاهد فيلم جيوفاني فيرارا Geovanni Ferrara وعنوانه "مئة يوم في بالرمو" *A Hundred Days in Palermo* التي تَعْرِض قصة دالا كييزا في صقلية تتبع الكاميرا الجنرال في زيارة إلى محل بناء سفن وترينا أحد العمال يسأله: "جنرال، ماذا تريد ان تفعل هنا؟ أتريد ان تُحْدِثَ ثورة؟"

فأجابه دالا كييزا مبتسمًا: "ثورة؟ كلا. فقط اريد ان أُطَبِّقَ القانون".

فأردف العامل: "أوَليسَ هذا ثورةً؟"

| | |

أراد دالا كييزا ان يعطي الشعب الطمأنينة والأمان، وان يحثّه على يقظة مدنيّة جديّة، فبدأ يقاوم المافيا من جذورها. قرّر البدء بملاحقة الحسابات المالية، وعلى من لديه معلومات أن يدلي بها كاملة. وكان يقول: "عَرَفَتْ المصارف جيّدًا لسنوات من هم زبائنها

المافيويّون". بنظره، القانون فوق الجميع: لا قضيّة ولا أحد يتخطّى الحدود. كتبت الصحف في عناوينها غداة المداهمة المفاجئة والمحكمة على مكاتب سالفو ابناء عم العديدة "دالا كييزا in action".

تعمد الجنرال ان يكشف الغطاء عن الشر من أعلى إلى اسفل. ولم يكن لديه أي شك في من هم في القمّة. كتب في يوميّاته ان فرقة اندريوتي غارقة إلى رقبتها في الشر. ولكن عندما أَلَحَّ على روما كي توفّر له الصلاحيات الخاصة التي يحتاج اليها – حق السماح له بالدخول إلى الحسابات المصرفية الكبيرة العائدة لأرامل المافيويّين والعمّال وحق التنصّت على المخابرات المشبوهة وغيرها – قابلته بالارتباك والتباطؤ. في حربه ضد الألوية الحمراء امدّوه بكل ما احتاج اليه. لكن في بالرمو كان معزولاً ولا من قوة تسانده أو يمكن الاعتماد عليها.

لم يكن غافلا عمّا يجري، قال: "أنا والمافيا يدرس احدنا الآخر كما في لعبة الشطرنج. المافيا حذرة وبطيئة ومتمهّلة تدرس خطواتك، تستمع اليك، وتراقبك على مسافة".

في هذه الاثناء، استمرّت الجثث التي خلّفتها حرب المافيا بالارتفاع، عَشْر جثث في خمسة ايام من ثلاث مدن صغيرة قريبة جدًا من بالرمو عرفت "بمثلث الموت"، ثم جثّتان مرميّتان على بعد أمتار من أحد متاريس الكارابنياري، ثم اعدام في سوق فوكسيريا Vucciria في بالرمو، ثم جريمة قتل مافيويّ من الكورليونيين اثناء نقله إلى روما للمحاكمة وكان يصطحبه ثلاثة عسكريين والسائق. وكلّهم اعدموا وهم في طريقهم إلى المطار. بعد هذا الحادث الأخير، تلقى مركز الشرطة مخابرة هاتفيّة بصوت مكتوم يقول: "منذ قليل نُفِّذَت عملية كارلو البرتو".

قلق دالا كييزا واضطرب خوفًا. في الثاني من أيلول قصد قنصلية الولايات المتحدة الاميريكية، وتفاوض مع الاميريكيّين لحث السلطة في روما واجبارها على توفير الحماية التي يحتاج اليها.

كنت في منزلي في اليوم التالي عندما رن جرس الهاتف. رفعت يد الجهاز وسمعت دون ان أصدق صديقًا مضطربًا يقول: "قتلوه!"

مسكت انفاسي وسألت: "من قتلوا؟"

دالا كييزا! "!Dalla Chiesa"

رُمي الجنرال بوابل من الرصاص سقط على سيارته، فقتل وزوجته الثانية ايمانويلا Emanuela. في اليوم التالي كتب مواطن لم يَبُحْ بإسمه على قطعة كبيرة من الورق الصقت على حائط مبنى في شارع فيا كاريني Via Carini حيث لقي الجنرال حتفه: "**هنا دفنت آمال أهل بالرمو الشرفاء**".

| | |

عرض جثمانا دالا كييزا وزوجته بحفاوة في فيلا ويتاكر Villa Whitaker، مركز بالرمو البلدي. للمرّة الاولى تعرفت ليلة الدفن على أولاد دالا كييزا من زواجه الأول، ابنه ناندو وابنتيه ريتا وسيمونا. وأصبحنا فيما بعد أصدقاء مُقَرَّبين. عندما أتت السلطات الرسمية الايطالية إلى بالرمو بمن فيها رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة للمشاركة في المأتم، غادرت جوًا من مطار بونتا ريزي إلى فيارجيو Viareggio في توسكانا حيث شاركت في مؤتمر أنقذني من رؤية هؤلاء السياسيّن ودموعهم دموع التماسيح. هم الذين تركوا دالا كييزا في عزلته، وتشاوفوا عليه وحرموه الوسائل التي كان من شأنها ان تُنْجِد حياته، وأن تؤهّلَه لإتمام رسالته على أفضل وجه.

تحوّلت مراسم الدفن إلى مناسبة بالغة الأهمية. عشرات ألوف المواطنين من مختلف الطبقات الاجتماعيّة ومن مختلف التوجّهات احتشدت في ساحة كنيسة سان دومينيكو Church of San Dominico، وهي كاتدرائية كبيرة من الطراز الاسباني المزخرف في وسط المدينة. وعندما بدأت الشخصيات الرسمية بسياراتها الفخمة تتواصل إلى الاحتفال لم يفتح لهم المتجمعون الطريق بسهولة بل أخذوا يرشقونهم بأدنى فئة من القروش (100 lire coins) ووصلت الرسالة واضحة: "لقد شُرِيتُم بالنقود – ولا قيمة أو تقدير لكم عندنا!" وهرع السياسيّون لداخل الكنيسة بين شتائم الحشود وهتافاتهم الحزينة والمستنكرة. ولما دخلوا الكنيسة صدموا برؤية ناندو وريتا وسيمونا أولاد دالا كييزا جالسين بقرب قبعة والدهم العسكرية يغمرهم الحزن والأسى. ورفضوا قبول إكليل الزهور الذي أرسله صباحًا رئيس منطقة صقلّية. وتجاهلوا غير مبالين التعازي المقدمة من الرسميّن في روما. ولم يتبادلوا القبلات إلاّ مع رئيس الجمهورية ساندرو برتيني Sandro Pertini.

احتفل بالقداس الكاردينال بابالاردو Pappalardo، وهو ابن كارابنيري صقلي، وتجاهل بصراحة فاضحة وجود الرسميّن باستثناء الرئيس برتيني. وبدأ تلاوة رقيمه بالتالي: "يوجد قول ماثور من الأدب اللاتيني Sallust يراودني الآن:
Dum Romae consulitar… Saguntum exugnator أي عندما تَعْرِف روما ماذا عليها ان تفعل، تُسْتَباح مدينة ساغنتوم Saguntum. واليوم ليست ساغنتوم من يُسْتَباح. اليوم بالرمو! بالرمو الحزينة!"

أيّ لحظة كانت تلك! أمير الكنيسة الذي لسنوات كان صامتًا وكأنه لا يبالي، وهو وضع عقلاني سلبي تجاه أي قضيّة، يأتي ببيان واضح وصريح يعلن فيه عن المسؤول عن مأساتنا ويتكلم عن المافيا.

وصلت الرسالة إلى الكل فردًا فردًا. اغتيال الجنرال دالا كييزا لم يكن مصادفة، ولم يحدث عفوًا، بل **أجيز له** أن يحدث. فهو نتيجة منتظرة من النظام الذي لا يَأْبَه لحياتنا. المافيا هي ما هي، لأنها موجودة **داخل** الدولة، والكنيسة، والثقافة. والنتيجة واضحة ايضًا: الطريقة الوحيدة لخنق المافيا هي ان **تُرْمَى خارجًا**، خارج الدولة والكنيسة والثقافة، خارج المجتمع المدني.

كلمات الكاردينال هي خطوة ثابتة أخرى في نهضة المجتمع المدني في بالرمو. وكما في الخطوات الأخرى، لم نلحظ هذا كما هو في حينه، إذ باشر بابالاردو نزع المافيا من قلوبنا. ما نتج عن كلمة الكاردينال يختلف فقط في الوقت عن كلام البابا عندما تكلم عن الامبراطورية الشيوعية في اوروبا الشرقية.

عند عودتي من فيارجيو Viareggio، وجدت أنّ بالرمو لمّا تَسْتَفِق بعد، بل مازالت ترزح تحت الصدمة التي أحدثها اغتيال دالا كييزا وردة فعل الكاردينال وكلماته القاسية. نَقَلَت بعض الصحف خبر الزيارة التي قام بها الجنرال لقنصل الولايات المتحدة في بالرمو في اليوم السابق لمقتله، وهي الزيارة التي طالب فيها بأن توفّر حكومته الدعم له، وتعمل على حمايته لا على عزله. لكنه تأخر، لأن ساعته كانت أسرع.

انتظر البرلمان الايطالي حادث اغتيال دالا كييزا والعار الذي لحق به، ليستفيق وأخيرًا ويناقش ويُمَرِّر اقتراح القانون الذي قدمه بيو لاتوريه قبل اغتياله. وبالرغم من صعوبة الاجراءات المطلوبة، ومنها اعتبار تأسيس أي منظمة من نوع المافيا جريمة بذاته، وأَخْذ اجراءات لملاحقة وتجميد ووضع اليد على كل ممتلكات المافيا، صدق قانون رونيوني – لا توريه Rognoni – La Torre Law. اضاف وزير الداخلية رونيوني اسمه إلى اسم لا توريه. يبقى ان الذين ارتكبوا فظيعة اغتيال الجنرال لم يهدأوا روعًا، ولم يكونوا بعيدين عن عالم السياسة. اعطى ناندو دالا كييزا مقابلة لصحيفة محلية هي لاريبوبليكا La Republica عرض فيها الوضع بالحقيقة المجردة: "أظن ان اغتيال والدي هو جريمة سياسية، أُتُّخِذَ بها القرار ونُفِّذت في بالرمو. لا أنا ولا اي من عائلتي يهمّه ان يعرف من هم القاتلون... يهمنا ان نعرف هوية الذين حَرَّضوا على الجريمة، وان ينالوا عقابهم. وفي رأيي يجب ان نبحث عنهم داخل الحزب المسيحي الديمقراطي."

| | |

بعد اسابيع قليلة قام الحبر الأعظم البابا يوحنا بولس الثاني بأوّل زيارة له لبالرمو. وبعد عظة الكاردينال بابالاردو Pappalardo في مأتم دالا كييزا، كان سكان بالرمو الكاثوليكيون وغير الكاثوليكيين يتوقعّون ان يَحْرُمَ الحبر الأعظم المنتسبين إلى المافيا من الكنيسة. في الواقع كلمته التي وُضِعَ عليها الحَظَر، والتي وزعت على الصحافيين احتوت على فقرة عنيفة عن الكوزانوسترا، ولكن هذه الفقرة لم تكن في الكلمة التي قرأها البابا. ومضى أحد عشر عامًا قبل ان يعود الباب يوحنا بولس الثاني إلى صقلّية للمرة الثانية، ويرفع صوته ويتهم ويقدم شكوى علنية ضد "رجال المافيا".

العبرة التي اتخذناها من اغتيال الجنرال كانت التالية: من يكن معزولاً يُقْتَل، والآن نحن خائفون على الكاردينال. فقرّر عدد منّا ان نؤلّف للحال كتابًا يكون عنوانه "**صوت واحد، مدينة واحدة**" "*One Voice, One City*". وان يكون لكل واحد منا

مقال في الكتاب لموضوع واحد: الكاردينال باباالاردو Pappalardo لم يأت بأي جديد، ونحن **كلنا** نشاركه وجهات النظر والأفكار. اردنا ان نوضح للكنيسة وللمافيا أن الكاردينال ليس وحيدًا، ولكن كاثوليكيين عديدين يهمّهم الأمر ويقفون إلى جانبه لا وراءه.

عندما انظر اليوم إلى تلك الاحداث، لا يسعني الاّ ان أعترف بصراحة بأنني اذا كنت ما أزال مُؤْمِنًا أي محتفظًا بالإيمان، فذلك بفضل الكاردينال باباالاردو. اظهر لنا باباالاردو أن الإيمان والشرعية وحدة لا تتجزأ، في حين كانت الشخصيات البارزة في مجتمعنا ماتزال تعتبر القانون لقيصر والإيمان لله. عندما صرّح الكرادلة السابقون بأن لا وجود للمافيا، أي ان المافيا غير موجودة، وعملوا بموجب هذا الاعتبار، شجعوا الكهنة في الأبرشيات في كل قرية مهما كانت صغيرة على ان ينالوا رضى الكابومافيا المحلّيّن، فيكرمونهم بإقامة حفلات الزواج، واعطاء المعمودّية إلى أبنائهم واحفادهم، واقامة صلاة الجناز يوم دفنهم. ولكن عندما صرّح رأس الكنيسة الصقلية بأن المافيا هي الشر والمافيويّين خطأة، أصبح هؤلاء الكهنة يفكّرون مرتيّن قبل ان يتجاهلوا علاقة المافيويين بأبناء الرعيّة. ما أتى به الكاردينال باباالاردو من جديد هو ان الكاثوليكيين يعارضون المافيا بصورة علنية ومكشوفة.

كنت أتمنّى ان يُشْهَد لشجاعة الكاردينال وان يُكافأ، ولكن لم يكن ذلك. في سنة 1983، ويوم عيد الفصح، اراد الكاردينال ان يقيم القداس في كنيسة اوكسياردونيه Occiardone وهي سجن بالرمو الذي بُنِيَ على عهد الصقلّيتين Kingdom of Two Sicilies في القرن التاسع عشر. كان كثير الشبه بالقلعة، وقريبًا جدًا من المدينة المواجهة للبحر، وكان سكانه على الأخص مافيويّن. والذهاب إلى اوكسياردونيه هو طريقة باباالاردو في القول لهؤلاء الجنود "الصغار" الحقيرين "انا ضد المافيا، ولكنّي راعيكم، وقلبي وكهنوتي مفتوحان لاستقبالكم". عندما وصل إلى السجن، أبلغه المدير المسؤول وهو جدّ مرتبك، أنّه لَمْ يأت أيُّ سجين إلى الكنيسة. هذا مع العلم أنه كان عيد الفصح، وانه حتى في ايام الآحاد العادية كانت الكنيسة تمتلئ بالمافيويّن الذين لا يجدون

أي تناقض باعتبار انفسهم مسيحيّين متعبّدين. ولكن ردّة فعل المافيا اليوم ليست سوى رسالة توجّهها للكاردينال بعد اتهاماته المفتوحة لها والتشهير بها. ومع ذلك احتفل الكاردينال بصلاة القدّاس الذي حضره مدير السجن وعدد قليل من الحراس.

ما جرى في اوكسياردونيه ليس اهانة وتحقيرًا فقط، بل هو تهديد واضح نشرته الصحف في كل انحاء صقلية مع عناوين عريضة. على أثره قدمت لجنة الأمن الوطنية National Committee for Security للكاردينال حراسًا ومرافقين لم يَشَأْ ان يقبل بهم. استمرّ في التعاطي مع السلطة ولكن بغير طريقته السابقة وعدائه المفتوح، لا بسبب تخوّفه بل بسبب اوامر أَتَتْهُ من الفاتيكان. يبقى ان الكاردينال دلَّنا على الطريق. والآن علينا نحن الذين نعيش في عالم قيصر ان نعمل من جهتنا لنوصل الله إلى هناك.

5

انتخبت محافظًا لبالرمو

أحب الفيلة، وأظن انها مع غلاظتها تبقى حيوانات لطيفة. هي كائنات من الماضي تعيش بقربنا وترافقنا. حبي لهذه الحيوانات الرفلاء التي تقطن الأراضي النائية حملني على جمعها بكل الأشكال والأحجام. مجموعتي من الفيلة تبلغ اليوم المئة: فيلة زجاجية، وفيلة من الخشب، وفيلة بشكل اجراس ترن، وفيلة بين الكتب، وفيلة افريقية، وابناء عمها من الهند. بعضها جميل وبعضها بشع. ولكني احبها كلها. وعندما اضيف فيلا جديدًا إلى مجموعتي، أشعر بفرح كالأطفال. وتقول زوجتي ميلّي: "سنضطر يومًا لاخلاء المنزل وتركه للفيلة".

روكو شينتشي Rocco Chinnici كان لي فيلا، بالشكل والروح. كان رجلاً كبيرًا يتهدّل في مشيته، شرسًا ورفيع الذوق في آن. صوته جهوري وذاكرته ممتازة. هذه الذاكرة كانت **موهبة** مميزة لرئيس مكتب قضاة التحقيق في بالرمو. لم يشأ شينتشي ان يركن إلى نفسه او إلى أي فرد آخر ليعرف أي شيء عن قضية معينة. لأنه لجأ إلى فكرة جديدة، فكرة ايجاد فريق او تجمع Pool للنيابة العامة يتعاون على محاربة المافيا. هذه الفكرة الجديدة نشأت اثناء حرب ايطاليا على الارهاب في السبعينات. فهذا الفريق من قضاة التحقيق بعمله مجتمعًا يعطي نتائج أفضل، كما أنه، وبصورة أهم، لا يؤدي إلى انفراد كل نائب عامّ بمعرفة أو قراءة حدث ما، ويمكن بعد اغتياله، اذا حدث، متابعة القضايا من قبل افراد الفريق الآخرين.

صادفت شينتشي للمرة الاولى بعد مقتل بيرسنتي ماتاريلا. كانت غاية مقابلتنا كشف أي معلومات عن القتلة. ذهبت إلى مكتب شينتشي وبُحْت له بصراحة كيف ان بيرسنتي فَشَّلَ مصالح تشيبانتشمينو وآل سالفو الذين كانوا بدورهم يعملون على إحباط مصالح زملائهم في المافيا. عندما انهينا حديثنا، أمسك شينتشي بذراعي، ورافقني إلى الباب، وقال: "هل تدري ما هو الفرق بينك وبيني؟ ان نفس الافكار تجول في ذهننا، أنت كسياسي يمكنك ان تقولها وليس عليك ان تثبتها، ولكن لوضع هذه الاتهامات في محضر تحقيق، عليّ ان أجد الاثباتات والبراهين."

بعد هذه المقابلة بقينا أنا وشينتشي على اتصال. كنا نذهب احيانًا مع الأب بنتاكودا ونتكلم مع الأطفال عن المافيا. الشباب يعرفون قصص الحرب ويرى روكو شينتشي من المهم ان يخبرهم عن تأثير المافيا على حياتهم كونها تحاصر عالمهم وتحيط بهم.

كانت الصحف تتكّلم احيانًا عن التحقيقات التي تجريها السلطات الأمنية، وكان العنوان "التقرير عن الـ 162". ولكن العنوان الأصح يجب ان يكون "تقرير الـ 161 بالاضافة إلى ميشيل غريكو Michele Greco"، لأن الاضواء كانت موجّهة إلى الرجل الذي وضعه توتو Toto Riina على رأس اللجنة. عندما علم الصحافيّون أن التقرير سلّم إلى شينتشي توقعّوا ان شيئًا كبيرًا او امرًا خطيرًا ينتظرهم. تحدثوا عن قاضٍ في مكتب شينتشي يدعى جيوفاني فالكوني Giovanni Falcone يلاحق هذه القضية مع زميل له، ويدعي انه المتفوّق في ملاحقة تهريب الاموال وغيرها من تقنيات التحقيق. وفي اول تموز 1983 وقَّع فالكوني مذكرات توقيف بحق أربعة عشر مافيويّ بتهمة التورط في اغتيال دالا كييزا، وبينهم أسماء أصبحت فيما بعد ذات شهرة عالمية: غريكو، ريينا، برناردو بروفانزانو، وكلهم رؤساء في الكورليونيين.

في صباح التاسع والعشرين من تموز، وكان صباحًا صافيًا وحارًا، حيًا روكو شينتشي الحارس الذي كان يقف خارج شقة سكنه في فيا بيبيتوني فيديريكو Via

Pipitone Federico حيث يقف اثنان من حرسه المسلحين. كان سائقه على مقود السيارة المصفحة، وإلى جانب الطريق الآخر كانت تنتظر سيارتا المرافقة. وقبل ان ينطلق الدراج دوّى انفجار كبير اقتلع نوافذ المنازل. فتطايرت قطع الحديد والزجاج في الهواء، وانتشرت في الحي بأكمله على بعد ميل. وتقطّعت الاجساد الاربعة وقذفت على بعد مئات الامتار – روكو شينتشي ومرافقاه وحارس المبنى. لم يسلم سوى السائق بأعجوبة لأنه كان داخل السيارة المصفحة. وللمرة الاولى استعملت المافيا قنبلة مفخخة من نوع Semtex اشترتها من تاجر سلاح لبناني. وفي اليوم التالي نشرت الصحف الخبر تحت عنوان: "بالرمو مثل بيروت".

| | |

حاول المسيحيون الديمقراطيون في الأشهر التالية ان يحسنوا صورتهم قليلاً، ولكن لم تكد تمر حادثة اغتيال شينتشي ويطمر جثمانه حتى عادوا رويدًا رويدا إلى اساليبهم القديمة.

كنت في مكتبي عندما دخل عليّ جيوزيبي انسالاكو Giuseppe Insalaco، عضو المجلس البلدي "الفاسد" الذي أصر على الاعتراف بوجود المافيا. وكالمعتاد أخذ يتكلم بدون توقف، وقبل ان اطلب إليه أن يجلس على الكرسي قال: "انظر، ارى امكانية انتخابي كمحافظ للمدينة. انه حلم العمر ان اصبح محافظ بالرمو، ولكن اذا قدمت ترشيحك أسحب ترشيحي. فلا أمل لي بالنجاح ضدك، انا لست سوى بيبوكسيو انسالاكو Peppuccio Insalaco... وانت البروفسور اورلندو ".

وللحال طمأنتُه بأنني لا أفكر في ان أقف بدربه في هذه المرحلة من تاريخ مدينتنا.

في هذا الوقت لم يكن المحافظ منتخبًا مباشرة من الشعب، بل تختاره اكثرية اعضاء المجلس البلدي. جرت الانتخابات في الطبقة السفلى من مبنى المركز الرئيسي

للمسيحيين الديمقراطيين (ما كان في نفس الوقت رمزيًا وفيه شيء من السخرية). وعندما أعلنت النتيجة نال انسالاكو جميع الاصوات باستثناء ورقة واحدة بيضاء هي ورقتي.

وفاز بالفعل بيبوكسيو انسالاكو، وكان انسالاكو يعطي نفسه هذا الاسم في حديثنا Peppuccio.

وقف انسالاكو وقال: "اشكركم أيها الزملاء الكرام. باستثناء صوتي، لقد اوليتموني كلكم الثقة".

في اليوم التالي ذهبت إلى مكتب انسالاكو. تقدم مني وعيناه تلمعان في وجهه القاتم، وقال: "والآن، سيعرفون من هو بيبيوكسيو انسالاكو سيرى هؤلاء اذا كنت خادمًا مأمورًا أو محافظ بالرمو!"

لم اسأله من يعني "بهؤلاء".

ثم تفرّس في وجهي، وتابع: "اول الأمر سأغطي بالرمو بالاعلانات الكبيرة Posters في الذكرى الثانية لموت بيو لا توريه! وكذلك لموت تشيانتشيمنو. استعماله لاسم تشيانتشمينو كان على شيء من الأهمية، لأن سالفو ليما الذي بقي اسمه عالقًا في الاذهان مع تشيانتشيمينو ارتبط بفرقة بونتاتيه –بادالامنتي، وعندما اتى تشيانتشيمينو من كورليونيه ارتبط بالكورليونيين. حتى سنة 1979 كان ليما على رأس الهرم، وأصبح عضوًا في البرلمان في روما، وفي نفس الوقت بقي يتعاطى السياسة المحلّية. عندما شعر ليما ان رياح كورليوني بدأت تهدأ قدّم ترشيحه وانتخب عضوًا في البرلمان الاوروبي، ما ألهاه عن الاهتمام مباشرة بسياسة بالرمو، بينما اليوم تشيانتشيمينو هو على الرأس وليما في الأسفل.

بعد ان تسلم انسالاكو مهام محافظ بالرمو عزم على افتداء ماضيه. لماذا أراد ذلك؟ هل يخاف من الكورليونيين، هو الذي كان دائمًا على علاقة بفرقة بونتاتيه – بالادامنتي المنشقّة؟ هل يريد ان ينظر إلى اولاده وجهًا لوجه؟ مهما يكن الجواب، انسالاكو يعلم اين دُفنت الجثث، ونستغرب ان يعمل اليوم على اخراجها من تحت التراب.

لخمسة وثلاثين عامًا جدُِّدت عقود التزام صيانة الشوارع والمجارير والانارة العامة استزلامًا لنفس الشركة. وفي ذلك مخالفة لقانون البلديات الذي يفرض تلزيم هذه الاشغال بطريقة المناقصات العامة. ولم يستغرب احد ان تفوق تكاليف الانارة في بالرمو ثلاثة اضعاف تكاليف انارة ميلانو أو توران Milan or Turin التي تزيدها مساحة بفرق شاسع. ولم يستغرب احد ان تبقى الشوارع والمجارير بوضع مُذرٍ ومروع، ولو ان مصاريف صيانتها تفوق كثيرًا تلك في المدن التي تقاربها مساحة. رفض انسولاكو طريقة التلزيم الماضية، وأعلن عن مناقصات مفتوحة، وقرَّر بسرعة ما أيقظ عداء الشركات المستفيدة سابقًا، وكان عداؤها فوريّا وقاسيًا نظّمه محامو تلك الشركات.

اتخذ المحافظ انسالاكو قرارًا باطلاق اسم كارلو البرتو دالا كييزا على أحد شوارع المدينة الرئيسية. ويوم كُشف الستار عن اسم الشارع بحضور كل السلطات ومنها المافيويّون قال: "على عهد محافظ بالرمو ببوتشيو انسالاكو، اطلق اسم الجنرال كارلو البرتو دالا كييزا على احد الشوارع، وعلى عهد المحافظ تشيياننتشيمينو اطلق على هذا الشارع اسم لوتشيانو ليغجيو". عند تلفّظه بهذه الكلمات حبس الحضور انفاسهم.

في تموز 1984 كنت في احدى المناطق في ضاحية بالرمو أمثّل انسالاكو في أحد الاحتفالات لأنه كان على ارتباط آخر، فوصل على غير انتظار، وجلس بقربي وهمس مضطربًا: "لا يمكنني ان آخذه! لا يمكنني ان آخذه مرّة ثانية! سوف يقتلونني! هل فهمت! اذا لم استقل من منصبي سأقتل... حاولت... ولكن الآن قرّرت ان استقيل. انت وحدك يمكنك ان تكون محافظ بالرمو. اذا أنت خابرتَ روما، سيجيبونك. اذا أنا خابرت روما، تكون الخطوط بانشغال دائم".

ما يمكن ان اقول انه كان مرتاعًا، كان يرتجف رعبًا. كان ينظر بكل الاتجاهات، وكأنه يفتش على الذين يستعدون لقتله، وباح لي بأنه ارسل ابنته إلى لندن ليبعدها عن الخطر. وبعد ذلك بقليل استقال من منصبه. وفي وسط الساحة المقابلة

لقصر ديلا آكيل سمعت بالقرب مني احد رجالات تشييانتشيمينو يقول لآخر: "هذا السافل! يظن نفسه مرشدًا اخلاقيًا...!"

في ثقافة المافيا، كلمة سافل infame لا تعني سيّئًا أو رذيلاً infamous. تستعمل الكلمة في صقلية بمعنى خائن Traitor، وتحمل شيئًا من الاحتقار والبغض وامكانية الانتقام منه. ولم تكن سوى أيام قلائل حتى اتهم انسالاكو بأنه استعمل لمصلحته أموالاً مخصصة للمؤسّسات الخيريّة. تهمة معقولة وربما صحيحة. لا اريد ان أنسبها اليه. وما كان واضحًا هو ان تشييانتشيمينو كان وراء هذه الاتهامات لا القضاء الجزائي المختص.

| | |

مع سقوط انسالاكو وجد الحزب الديمقراطي المسيحي نفسه في ورطة. فأرسل الحزب موفدًا إلى روما محاولاً السيطرة على الوضع. عند عودته أعلمني بان روما قررت ان أكون انا محافظًا لبالرمو، فأجبت للحال بان الوضع السياسي الراهن في بالرمو يحول دون ذلك بل يجعله مستحيلاً. بَقوا على اصرارهم وبقيت على رفضي لعدة ايام.

طلبت النصيحة من الآخرين. في بادئ الامر التقيت صديقًا شيوعيًا قديمًا، ميشيل فيغوريلي Michele Figurelli الذي حثّني بقوله: "اذا قبلت ستكون محافظًا للحزب المسيحي الديمقراطي التابع لليما ولتشييانتشيمينو أمّا الحزب الشيوعي فسيعارضك بكل قدرته". ثم قابلت اصدقائي الكاثوليكيين في مدينة الانسان City of Man وكانت نظراتهم الحزينة تعبر عن ألمهم أكثر من الكلمات. ثم زرت الأب بنتاكودا الذي كان كعادته غارقًا بين كدسات الكتب وقصّاصات الصحف والمجلاّت. عرضت له مشروعي. لم يظهر على وجهه أيّ تعبير صريح، وقال: "اذا قبلت، فأنت تقترف خطأ جسيمًا. وبعد ان ناقشنا الامكانيّات الاخرى أردف يقول: "واذا قبلت سأكون عدوّك الألد".

وعندما هممت بتوديع الأب بنتاكودا الذي لا يزال مرشدي الروحي كنت منهوك القوى وكأنني سكران، اذ انه في جلستنا تناولنا زجاجة كاملة من آمارو افيرنا Amaro Averna، وهو مشروب صقلي من الأعشاب، شديد المرارة.

قال لي: "لوكا، لا تيأس. اقرأ رسالة مار بولس إلى الرومانيين".

عندما وصلت إلى المنزل كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، وكانت ميللّي وابنتايَ غارقات في النوم. اخذت الكتاب المقدس وقرأت رسالة مار بولس إلى الرومانيين.

كانت ملأى برجاء كبير وبتحذيرات كثيرة. ونمت مستغربًا ماذا يجول في ذهن الاب بنتاكودا لينصحني بقراءة هذه الرسالة. استيقظت في اليوم التالي متجاهلاً الآراء والنصائح التي طلبت بالأمس وقرّرتُ المغامرة. سأخوض المعركة.

وفي المساء كان التصفيق يلعلع في المركز الرئيسي للحزب الديمقراطي المسيحي والهتافات تردد: "اورلندو المحافظ" وتمتد الايادي لتقبض على يدي بشدة وحماس فصرخت فجأة: "اسمعوني! دقيقة واحدة! دقيقة واحدة فقط! أريد أن تصوتوا لي بالاقتراع... لا أريد تأييدًا بالاجماع... أريد أن تصوّتوا لي بالاقتراع السري!"

ساد جو من الذهول والوجوم على المجتمعين ونظر كل واحد منهم إلى الآخر يتساءلون.

فاردفت جازمًا: " الاقتراع السري أو لا أتولى المهمة."

تم الاقتراع، 7 فقط من 41 عضوًا حاضرًا من الحزب الديمقراطي المسيحي لم يدلوا لي بأصواتهم. بعد ذلك انسحبت فريدًا وحيدًا، ودخلت مطعما اتناول بيتزا. وهو المطعم الوحيد الذي بقي مفتوحًا لهذه الساعة المتأخرة من الليل، وشعرت بان حملا ثقيلا زال عن كتفيَّ.

وعلمت فيما بعد انه في أثناء تناولي الطعام كان يعلّق فيتو تشيانتشيمنو على ما جرى قائلاً: "من يظن نفسه ليولوكا اورلندو؟ من هو؟ هل يظن بأنه يصبح محافظًا لبالرمو اذا لم يتصل بي هاتفيًا؟"

في اليوم التالي قمت بزيارة أخرى إلى الأب بنتاكودا. كانت أجهزة الهاتف الثلاثة الموجودة في مكتبه ترن دون توقف، وللمرة الاولى كان وجهه مبتهجًا بشوشًا.

كان يرد على المخابرات بفرح قائلاً: "نعم، صوّتوا ضده! نعم، سبعة اصوات من واحد واربعين صوتًا! انتصار كبير! انتصار كبير!"

| | |

صيف سنة 1984، وقبل ان أصبح محافظًا لبالرمو، باشر القضاء الجزائي تحركه ضد المافيا، وكانت الغاية وضع صورة نهائية ومعرفة ما هو نوع هذا التنظيم الذي نتعامل معه. جدار الصمت الذي لا يخرق لم يتصدع فقط، بل فتح على مصراعيه. وبدأ تومازو بوسيتا Tommaso Buscetta يتكلم وهو مافيويّ معروف "بزعيم العالمَين"، لأنه يمارس نشاطه من جهتي الأطلسي. وعندما ينطلق بوسيتا بالكلام يسترسل فيه ولا يتوقف.

وبوسيتا يكاد يكون "جنديًا" بسيطًا في تراتبيَّة المافيا القاسية. لم يصبح ابدًا "كابو" Capo رئيسًا بسبب حياته المشبوهة – ترك زوجته الاولى ويعيش مع عشيقته التي انجبت ولدين، ثم تزوج بامرأة ثالثة – والمافيا متشدّدة بقوة لهذه الناحية فجنحت عنه. ولكن بوسيتا كان مقتدرًا ولعب ادوارًا كثيرة. فلم يقتصر دوره على ان يكون جنديًا صغيرًا. كان لوجوده ولشخصيته حضور الزعيم. ومع السنين أصبح شخصيّة "كاريسماتية" وقائدة في الكوزانوسترا، فنال شهرة دولية.

كانت انطلاقة بوسيتا في حرب المافيا الاولى، وعند انشقاقها وتضعضعها على اثر الحرب، اخذ طريقه إلى الولايات المتحدة الاميركية، حيث ساعد على تقوية الروابط بين فريقي كوزانوسترا في صقلية وامريكا إلى حين ايقافه وطرده منها. ولأنه لا يزال

مطلوبًا من العدالة في ايطاليا، قصد البرازيل حيث عاش كالأشراف البرتغاليين لحين توقيفه بسبب المتاجرة بالمخدّرات سنة 1972 واعادته إلى ايطاليا حيث سجن لمدة. أطلق سراحه سنة 1980، فعاد ثانيةً إلى البرازيل وبقي على علاقة مع فريقه وبنفس الوقت بعيدًا عنه. عندما اندلعت حرب المافيا الثانية، حاول غاتانو بادالامنتي ان يقنع بوسيتا بالعودة إلى صقلية واعادة الامن إلى ربوعها. ولكن بوسيتا كان يرى من البعيد ما لم يره من هم في الداخل، وهو ان الكورليونيين نالوا الضربة القاضية. ولأن بوسيتا رفض العودة والتورط في النزاع، اتهمه الكورليونيون بمساندة اعدائهم، وقتلوا ابنه وصهره وأخاه وابن أخيه واثني عشر من اقربائه. وعندما أوقف للمرة الثانية في البرازيل قبل بوسيتا أخيرًا ان يبوح بأسراره.

نال بوسيتا حتمًا شهرة صحافية في ايطاليا، وأصبح مثلاً جيدا لتحدي المافيا ما شجع سالفاتوريه كونتورنو Salvatore Contorno وانطونيو كالديرونيه Antonio Calderone وبالتالي – عندما بدأت تظهر معالم النصر ضد المافيا –سيلاً من "التائبين" على ان يأتوا من الأقاصي، وان يكسروا جدار الصمت، وان يرسموا واحدًا تلو الآخر لوحة دولة الشر داخل الدولة. وبدا بوسيتا بوجهه وشعره اللزج وشاربيه الطويلين صورة تجسّد فكرة المافيويين. رفض بقوّة كلمة تائب عندما استعملتها الصحافة في وصفها له. وقال: أنا رجل شرف، ولم افعل شيئا لأندم عليه، وأنا أتكلم عن المافيا فقط، لان المجانين طعنوا مبادئها من الداخل بطريقة عنفية ولاأخلاقية. وأصرّ على "اخلاقية" المافيا القديمة التي اقتحمها المتطفلون. وبتعبير لا يشوبه عيب تكلّم إلى محقّقي الدولة عن الرومانسية الصقلية التي رافقت انتقال العصر والتي قرأها له والده في نشأته، والتي تعود إلى اسطورة نشوء المافيا. عنوان الكتاب بيتي باولي *Beati Paoli*، وبطله يتيم مسكين من أم ارستقراطية يقتله أحد اقربائها وهو رجل نافذ في المجتمع. نشأ الطفل وترعرع في شوارع بالرمو بين جماعة سريّة تدعى بيتي باولي، ويعيش اعضاؤها في سراديب المدينة، حيث يخرجون احيانًا لأخذ الثأر وزرع العدل في العالم الفوقي الفاسد. يوجد اليوم في

بالرمو مطعم للبيتزا يدعى بيتزا بيتي باولي حيث كان مدخل السراديب بحسب الاساطير. يقول بوسيتا: بيتي باولي هو ما كانت عليه المافيا قبل ان يغدر بها من الداخل.

بالفعل لم يكن توماسو بوسيتا المخبر الاول. سنة 1973 مافيوي آخر يسمّى ليوناردو فيتاليه Lenardo Vitale اعترته نوبة روحية، فكانت منعطفًا في حياته. فأخبر الأمن عن ليجيو وريينا وفيتو تشيانتشيمينو، واعترف بأنه اقترف جرائم قتل، ولأنه برر اعترافاته هذه بتعابير دينية، واعتبر نفسه ينبعث من جديد ولحياة جديدة لم يصدقوه. فاعتُبر معتوهًا وأُرسل إلى مصح للمجرمين.

بعد خمس سنوات، سنة 1978، اعترف زعيم آخر إلى الكارابنياري. تجاهلوه في حينه علمًا أن اللوحة المفصلة والمؤذية التي رسمها عن الكورليونيين كشفت عن بدء تحركهم الجموح إلى السلطة التي تبلورت بإيصال بوسيتا إلى الساحة.

بوسيتا كان مختلفًا عن المخبرين الآخرين. كان يعرف كل الأسرار وتعاطى لسنوات مع الزعماء الآخرين على قدم المساواة. كان قادرًا على تفسير وتوضيح أي شيء – القوانين، العادات، الأعمال، المخدّرات والعقاقير – بدقة لا تصدق. وصف المنظمة من الباطن ومع كل خفاياها، موضحًا الترتيب التسلسلي الذي يربط الجنود في الشارع بالزعماء اعضاء اللجنة *Commission* في رأس الهرم. كانت قصة حقيقية معاشة. وعاد بذاكرته لسنة 1963 عندما نظم المافيويّون الاميريكيون – بإلحاح اميريكي بعد تصاريح جوزف فالاشي Joseph Valachi – اجتماعًا مع الصقلّيين في فندق ديلي بالميه Delle Palme في بالرمو واقنعوهم بالعصرنة والدخول في القرن العشرين. واصبح بوسيتا فالاشي صقليّة Valachi of Sicilia.

| | |

بوح مافيويّ عالي المقام للمحقّقين بقيَ سرًا لأكثر من شهرين. ثمّ في 29 ايلول 1984 مفاجأة مذهلة نزلت كالقنبلة على وكالات الأنباء في جميع أنحاء ايطاليا: صدور

366 مذكّرة توقيف للمافيويّين الرئيسيّين، كان معظمهم قد أصبح في السجون إثر تمشيط قامت به قوى الأمن في منتصف الليل. فانطلقت صفارات الشرطة طوال النهار في بالرمو، وسياراتها جالت الشوارع تنقل الموقوفين إلى السجون في كل المناطق باستثناء اوكسياردونيه حيث تسيطر المافيا. حتى ان القيود قد نَفِدَت ليلاً عند قوى الأمن.

والحدث المفرح بعد توقيف مئات المجرمين وتجار المخدّرات، القبض على "دون" فيتو تشيانتشيمينو بعد اسابيع قليلة، فانهارت قواه كليًا، وأُجبر رجال الأمن على نقله محمولاً إلى السيّارة، ومنها إلى السجن. وبعد عشرة ايام فقط، لاقى اصحاب السلطة الاقوياء نينو وانيازيو سالفو المصير نفسه.

تجاه هذه الاجراءات كانت ردّة فعلي مشابهة لردّة فعل معظم سكان بالرمو: دهشة وارتياح وابتهاج، وتفاؤل حذر بامكانية حدوث تغيير فعلي على الأرض.

كانت الانتخابات ستجري في الربيع المقبل، فقرّر سيرياكو دو متيا Ciriaco De Mita، وهو أمين عام الحزب الديمقراطي المسيحي، بكل شجاعة ان يقوم بعمل جذري في هذه الظروف. ان فكرة توقيف تشيانتشيمينو، لا لأنه على علاقة بالمافيا فقط، بل لأنه كان عضوًا أقسم يمين الولاء للحزب واضرَّ بسمعة الحزب. ولإعطاء تغطية شرعيّة للديمقراطيين المسيحيين، عُيِّن سرجيو ماتاريلا Sergio Matarella، وهو أخو الرئيس بيرسنتي ماتاريلا، مبعوثًا في بالرمو، وطلب أن أكون ممثّلاً له.

أوّل شيء أردنا عمله هو التحضير للانتخابات القريبة ووضع لائحة بالمسيحيين الديمقراطيين. بدأنا ندرس إمكانية انتخاب كل مرشّح على أساس معلومات تحقّقنا منها. فاقترحت ان أعلم بعض المرشحين بأن الحزب قرر إبعادهم أو إخراجهم منه. أحد المندوبين السابقين، وكان يحميه تشيانشيمينو، بكى، وأقسم بأنه كان شريفًا، ولم يسرق أحدًا، وعليه ان يوفّر حاجات عائلته. مندوب آخر استمع اليه، ثم توجه اليّ سائلاً: "كم عدد اولادك"؟

وبينما الحملة الانتخابية تسير في طريقها، كان دوميتا De Mita يسافر غالبًا بين روما وبالرمو. كان خائفًا اثناء وجوده في بالرمو، وكلّما كان يهمّ بالذهاب كان يكلّم عائلته من هاتف السيّارة ويقول: "اني اغادر بالرمو الآن." وكنت أفهم ما يريد قوله ضمنًا، وهو "إنّي ما ازال سليمًا". اعتباره ان بالرمو هي مدينة الذعر، وكأن باقي الجزيرة بعيد عن المافيا، كان يؤلمني كثيرًا. وبملء ارادتي تحرشت لازعاجه، وليفهم الحقيقة، التي نعيشها والتي تهدّد حياتنا كل يوم. وبينما نحن في طريقنا إلى ترميني اميريزي Termini Imerese وهي مدينة صغيرة شرقي بالرمو، أجرى مخابرته الهاتفية كالمعتاد. لم أقل شيئًا قبل ان اصل إلى ترميني. وعند خروجنا من السيارة أشرت إلى أحد المارين، وقلت لدو ميتا: "هل تعرف هذا الرجل الملتحي؟ انه مافيويّ شرّيب دماء ومعروف".

أبيضَّ وجه دو ميتا خوفًا، وقال: "ماذا؟ حتى هنا في ترميني ؟"

فأردفت: "هل تظن ان المافيا تنتهي في بالرمو؟ راقبه! اذا رأيتك برفقته، اعتبر ان وظيفتك السياسية قد انتهت!"

قضى الأمين العام للمسيحيين الديمقراطيين يومه متخوّفًا ينظر ذات اليمين وذات اليسار، لأنّ تعييري له قد اصاب الهدف.

6

عربة بعجلتين: القاعدة الحقوقية والثقافة

28 تموز 1985 هو آخر يوم عشته كرجل حر طليق. مشيت دون مرافق في الشوارع لآخر مرة، ونزلت إلى بائع الصحف واشتريت جريدة. وآخر يوم ارتشفت فيه القهوة في المقهى وتمتّعت بفنجان القهوة. كان آخر يوم أقود فيه سيّارة. اليوم انتهت مدة رخصة السوق التي أحملها، وسيارتي الالفاروميو من طراز 1985 التي لا يخرقها الرصاص استُبْدِلَت بها سيّارة لنسيا مصفحة. والوفد الذي كان يرافقني وعدده اثنان، سائقي المدني المسن والبوليس البلدي، انضم اليه عدد من أفراد الحرس الخاص المتخصّصين والمدرّبين. اينما اذهب الآن، حتى عندما اكون في الخارج، تتقدّمني دائمًا سيارة توطئة وتتبعني أخرى.

خسر الحزب الديمقراطي المسيحي عشرة مقاعد في الانتخابات البلدية سنة 1985، لكنّه حافظ على الاكثريّة في المجلس الجديد المنتخب. كان السبب الأول لاختياري محافظًا لبالرمو شعور المسؤولين في الحزب بالحاجة إلى إعطاء المجلس وجهًا جديدًا، أي الانفصال تمامًا عن الماضي الملوّث لا لأن الناخبين اصبحوا ناقمين فقط، بل لمصادفة وجود محاكمة ضخمة للمافيا تُلوِّح بوجود ادعاء ضد بعض مؤيّدي الحزب القدماء.

يوم 28 تموز، يوم الوداع لحريّتي، كان آخر يوم على الأرض لرجل أمن نبيه وفَطِن وشجاع يدعى بيبي مونتانا Beppe Montana. كان بيبي يحب البحر والبواخر،

وكان قد أمضى يومًا مع خطيبته وبعض الأصدقاء في نزهة في قارب آلي يروح ويجيء بين الخلجان والرؤوس في شرقي بالرمو. عندما عاد إلى بورتيتشلو Porticello، وهي قرية صغيرة لصيد السمك، لارساء قاربه، لم يكد يحاول ارتداء ثيابه حتى أصيب رميا بالرصاص وقتل على الفور. وبقتله بدأ صيف آخر مرعب في بالرمو.

كان بيبي مونتانا رئيس فرقة من القوات الخاصة تدعى كاتوراندي *Catturandi* من كلمة ''capture'' أي "قبض عليه"، وكان عليه ان يرمي بالرصاص العديد من المافيويين المطلوبين من العدالة والمطارَدين، ونفّذ لحينه عدة توقيفات مهمة. وبعد موته قيل ان نزهة يوم الاحد لم تكن كلّيًا لغايات ترفيهية. فقد ظن انّ بعض الفيلات التي تمتد على الشاطئ أَوَت بعض المافيويين الفارين، وربّما كان يحاول ان يلقي نظرة على ما يجري، فرأت المافيا دافعًا للتخلص منه.

تميز يومي الاول كمحافظ بالدم، الدم القديم والدم الذي يسفك من جديد. وفي الصباح، في الذكرى الثانية لوفاة روكو تشينتشي، ذهبت لأضع اكليلاً من الزهر على قبره، وبعد الظهر قصدت كنيسة صغيرة في سانتا فلافيا Santa Flavia، قرب بورتيتشلو، لأحضر صلاة الجناز الذي يقام لبيبي مونتانا.

عندما قتل مونتانا لم يكن وحدَه. احد الذين كانوا معه استطاع ان يصف السيارة، وان يتذكر اول ارقام لوحة تسجيلها. لاحقت الشرطة السيارة وقبضت على شاب يدعى سالفاتوريه مارينو Salvatore Marino. وعندما فتشوا منزله عثروا على مبلغ كبير من المال: 34 مليون لير ايطالي نقدًا لُفَّت في جريدة تحمل تاريخ 28 تموز أي يوم الضربة القاضية. أمّا الذي جرى في مركز الشرطة ليلة توقيف مورينو فلا نعرفه بالتأكيد، بل الأكيد الذي نعرفه هو ان مورينو توفّي في اليوم التالي وجسمه منتفخ ووجهه مشوّه من الضرب.

في الاسبوع الاول من تسلّمي مهامي كمحافظ عزمت لا على التمسك بالقوانين فقط بل على تقويتها. فكانت غلطة مأسوية روّعت مجندي الديمقراطية، وسمحت للممثلين

السياسيين لأصحاب الجرائم وطبقة المجرمين بمهاجمة الشرطة والنيابة العامة. فقد جالوا المدينة بتابوت سالفاتوريه مارينو – لا بتابوب بيبي مونتانا الذي اغتيل – كأنه هو البطل والشهيد. وعندما رأيته يمر وسمعت بعضهم يصرخ: "عاشت المافيا!" لم أعرف ماذا جرى لي.

ساد المدينة جو من التوتّر. وفي مركز الشرطة الرئيسي تراكمت التهم والفضائح. وأمر وزير الداخلية، اوسكار لويدجي سكالفارو Oscar Luigi Scalfaro، بإبعاد رئيس الوحدة الخاصة مع اثنين آخرين. مقابل هذا الوضع عرضت برنامجي لمجلس المدينة.

بعد ظهر اليوم التالي كنت في مكتبي أعمل. بعد ساعات قليلة سيناقش المجلس اقتراحاتي لاطلاق وتحسين الحياة في مدينتنا. ولم يكن حولي سوى سائقي ومرافقي الخاص وبعض موظفي البلديّة النائمين. رنّ جرس الهاتف، وكان المتكلّم صحافيًا من جريدة الـ "اورا" Ora. انقطع صوته وهو يكالمني.

"قتلوا نيني كسارا Ninni Cassara".

لم اصدق الخبر ولكني لم ألبث ان سمعت صفارات السيارات المعتادة المتجهة نحو فياليه كروس روسا Viale Croce Rossa حيث يسكن صديقي نيني وهو نائب رئيس الأمن في بالرمو.

قصدت المكان، فرأيت جسمه وسط بركة من الدم على أوّل الدرج. حاول ان يقحم نفسه في مدخل البناء، ولكنّه أصيب برصاصات عديدة فمات. بالقرب منه تمدد جثمان، رجل أمن آخر هو روبرتو انطيوشيا Roberto Antiochia، وهو لا يزال في العشرينات. كان روبرتو في روما عندما سمع بمقتل بيبي مونتانا فعاد للحال إلى بالرمو، وطلب ان يعود لعمله كمرافق خاص لنيني كسارا. فرقة من القوات الخاصّة تفوق الخمسة عشر نفرًا كانت تنتظرهم عندما خرجوا من سيّاراتهم واقتربوا من منزل نيني. ووجد في الشارع اكثر من مئتي رصاصة كلاشنيكوف فارغة. وشرطي آخر، يدعى ناتاليه موندو

Natale Mondo كان جالسًا على حافة الحديقة وكأنه مائت. وقف وشهق وقَبَّلَني. امسك بي وكان يرتجف من الذعر والألم.

وللحال بدأت اصرخ: "Basta ! Basta ! Basta!" أي كفى! وكان صراخ غضب ويأس، صراخ مواطن، وفي ذات الوقت صراخ محافظ مدينة تؤلمها الحرب. وكان كذلك يأسًا وغضب صديق.

ترافقنا انا ونيني في اكثر من صف في الجامعة. كان مولعًا بلعب الورق وكرة المضرب. كان ينجز عمله بذكاء وشغف. تلاقينا لآخر مرة في مأتم بيبي مونتانا، ولكن كان لي الحظ ان أتكلّم اليه طويلاً قبل شهر من ذلك عندما صادفته في الشارع. كنت اتجه نحو منزلي ونيني كان خارجًا من حانوت وبيده علبة سجائر.

سألته: "كيف تسير الأمور؟"

فأجاب: "ليست بالجيّدة لوكا، ليست جيّدة ابدًا. بالفعل سوف أكلمّك يومًا وأخبرك كم سيئة هي الأحوال."

لم يسمح له الحظ باخباري تمامًا ماذا كان يعني، ولكن جثته الممددة على الطريق والمغطاة بالدم برهنت لي كم سيئة هي الأحوال.

تسرّب إلَيَّ ان نيني عمل لأيام، ولم يذهب إلى بيته ليأكل أو ينام. كان يحاول ان يدرس الظروف التي احاطت بجريمة مونتانا واسباب موت سالفاتوريه مارينو. ولذلك بعد ايام عديدة، خابر نيني فجأة زوجته لورا، وأخبرها بأنه سيعود للبيت لتناول الغداء متأخرًا. كيف عرف القتلة انه يعود إلى المنزل؟ هل كان هاتفه على لوحة التنصت؟ أخذت الصحافة تتكلم بشكل مفضوح عن وجود علاقة بين المافيا وبين عناصر في صفوف قوى الأمن.

عدت إلى بالازو ديلي آكيله وخابرت رينو نيكولوزي Rino Nicolosi رئيس المنطقة لعقد اجتماع طارئ. وصلت إلى مكتبه – كان لفترة سابقة مكتب بيرسنتي ماتاريلا – وأصرَرْتُ عليه بأن يخابر رئيس الحكومة ووزير الداخلية في روما. لا نستطيع

ان نكون لوحدنا: هذه كانت الرسالة. قيل له ان رئيس الحكومة بيتينو كراكسي Bettino Craxi منهمك ولا يمكنه الرد على نيكولوزي، وكذلك كان وزير الداخلية اوسكار لويدجي سكالفارو. فغضبت، وأخذت الهاتف، وطلبتُ ان أتكلم مع رئيس الحكومة. عندما أجاب اخبرته بأن وفدًا صقليا سيأتي للاجتماع به للحال وأصررت. تردّد قليلاً ثم وافق.

سافرنا جوًّا على متن طائرة خاصة في صباح اليوم التالي، وكنا ننتظره في مكتبه عندما وصل اليه. اقترح ان يأتي إلى بالرمو مع سكالفارو Scalfaro وفرنشسكو كوسيغا Francesco Cossiga. لم أكن اعرفه بعد ولكني للحال قَدَّرتُ فيه حسّه الثابت للمبادئ. ولكن الآن بسبب الارتباك في تطبيق القانون في بالرمو، انفردت مع وزير الداخلية وكلمته على حدة عن مشكلة صعبة، فقلت له:

"سيدي الوزير، ربما ليس من الحكمة ان تأتي اليوم إلى بالرمو".

فكان جوابه درسًا لي: "وزير الداخلية يذهب إلى حيث يصفقون له، ويجب ان يكون مستعدًّا كذلك لقبول الشتائم".

ثم عدنا جميعنا لمأتم رسمي آخر في كاتدرائية بالرمو الرائعة لأن ارملة نيني كاسارا لورا اصرّت على ان تحتفل بالصلاة لزوجها بصورة خاصة. ثم كان مأتم روبرتو انتيوشيا. غصّت الكاتدرائية بالجموع، وكان الغضب هذه المرة يتصاعد لا من المواطنين العاديين كما في مأتم دالا كييزا، بل من رجال الأمن الذين عاشوا اغتيال بيبي مونتانا، والاشاعات التي تلت موت مورينو، والآن اغتيال نيني وروبيرتو انتيوشيا. كان رجال الأمن وقد ارتدوا لباسهم الرسمي يزاحمون وزير الداخلية بطريقة قاسية ما حمله على مغادرة المكان من الباب الجانبي والتوجه للحال إلى مطار روما.

اما الرئيس كوسيغا فأخذ ذراعي وهمس في اذني: "رافقني، رافقني." فمشينا معًا بين صفي رجال الشرطة الغاضبين.

| | |

تعج بالرمو بالصحافيين، كطيور جارحة تنتظر جثث شخصيات مشهورة اخرى. الصحف الايطالية ارسلت أهم مخبريها الذين يجمعون القصة تلو الاخرى عن التوتر الموجود بين الشرطة والقضاء، والاشاعات عن أهداف المافيا التالية وعن خطورة وضع المحافظ الجديد.

دخل صحافي الماني مكتبي لاجراء مقابلة معي، وقال: "سيّدي المحافظ، كنت الآن في مركز الأمن الرئيسي، هل تعلم ماذا يسمّونك هناك؟"

فأجبت:"لا، لا أعلم".

قال: "انهم يطلقون عليك لقب جثة تمشي. انهم متأكّدون انك التالي".

كانت فترة حرجة. منذ زمن بعيد أخذت جانبًا في هذه الحرب الاهلية. وللمرة الاولى أرى النتائج الممكنة والمتأتية من القرار الذي اتخذت، وهو ان أَلْعَب دورًا في هذا الظرف بين قوّات القانون وقوّات الفوضى. وعرفت انه اذا لم أعمل على إنشاء حركة للتغيير والتجديد ستكون آخرتي.

أول خطوة هي ان أُحرّر المدينة من ثقافة قديمة، ثقافة الزبائنية، والتبعية. بالرجوع إلى الفكرة الصقلية، وهي ان أي شخص ينتمي إلى عائلة ما، او قبيلة، او اخوية، يفرض حقوقًا خاصة. بهذا المفهوم، ضروري أن نفهم أنَّ الحكومة تحترم

حقوق كل انسان بالمساواة، والا فهي توفّر امتيازات ومنافع. بعدما اصبحت محافظًا بفترة قصيرة، زارني وفد في مكتبي. وقف المتكلم باسمه وقال:

"سيدي المحافظ، انا عضو في حزبك وصوَّتُّ لك..."

أسرعت للحال إلى احد مساعديّ، وقلت له: "أرجوك أخرج هذا الرجل. سوف أتابع اجتماعي مع الآخرين".

حاولنا عرض ومعالجة المشاكل اليومية التي تعاني منها بالرمو. نحن في مدينة مشهورة بمسرحها، مسرح ماسيمو العظيم Theatro Massimo، ولكنه أقفل بحجة إعادة

ترميمه منذ سنوات. كان عندنا شركة نقليّات عامة في البلدية، فأصبحت اليوم تقريبًا غير موجودة، لأن عدد الباصات اصبح في حده الأدنى. عندنا مدارس، ولكن لا يوجد أبنية للمدارس، بل مدارس بديلة في أبنية خاصة تستأجرها البلدية بمبالغ طائلة من اشخاص مُشْتَبَه بهم.

أوّل قضيّة عالجتها هي عقود تلزيم الشوارع والمجارير، لا لأنها كانت فضيحة، بل لأننا نحتاج إلى مدينة نظيفة، فالشوارع باتت في حالة مذرية وكذلك المجارير. نظّمنا مناقصة عامة لهذه الأشغال، فتقدمت شركة جديدة بأدنى العروض، وللحال لُزِم مشروع تجهيز الطرقات والمجارير بأدنى الاسعار، بل بسعر أدنى بكثير من الاسعار الخيالية التي كانت تُلَزَّم بها في الماضي.

وكنا ننتظر ردة الفعل والتحدّيات، ولكننا حاولنا ان نفعل أي شيء. البطالة حالة مَرَضية في بالرمو، وتوقيع هذا العقد يعني ان مئات العمال سيفقدون عملهم. فكانت التظاهرات اليومية امام بالازو ديلي آكيل. وطافت العائلات مع ابنائها تحمل "اليافطات" وتجول في الشوارع وتهتف: "عاشت المافيا!" وقرأت على يافطة اخرى: "المافيا توفّر العمل".

خابرت روما واعلمتها بان القضية قضية مافيا وليست قضيّة عمال. وفي وقت قصير، أقر البرلمان قانونًا يسمح للشركة المتعاقدة باللجوء إلى تشغيل عمال الشركة القديمة الذين تحتاج اليهم، وأَلا تلجأ إلى الطريقة البيروقراطية والرجوع إلى لوائح العاطلين عن العمل الرسمية. وتوقفت التظاهرات.

| | |

قمت بهذه الأعمال جهرًا وعلنا، لأن السنين علّمتني خطورة السكوت والانعزال. كنت اظهر في حياتي العامة وكنت غير منظور كليًّا في حياتي الخاصة. حياتي العائلية انحصرت داخل جدران الشقة الصغيرة التي كانت تشاركني في سكنها ميللّي وابنتايَ.

حتى عندما كنا نخرج إلى المكان نفسه كان يجلس كل منّا بعيدًا عن الآخر. لم يأخذ مصور **واحد** صورة لي مع زوجتي في حفلة رسمية أو أي استقبال. طوال تلك السنين لم ترافقني ميللّي وابنتايَ **ابدًا** في سيارتي.

محوت وجودهم من الحضور الرسمي، لأني توهَّمت أنّهنّ بهذه الطريقة يكُنَّ معرضات أقل للخطر. ذكَّرتني مؤخرًا ميللّي بحادثة تُعبِّر تمامًا كيف كنا منفصلين علنا في هذه الاثناء. كنت أذهب لحضور القداس وكذلك هي. ولكن يصل كل بمفرده ويجلس في مقعد بعيد عن الآخر. وتتذكّر انه في أحد أيّام الآحاد كنت داخل الكنيسة فرأت احد الحضور يلتفت إلى فتاة جالسة بقربه، وسَمِعَتْهُ يهمس لها: "أنظري، أَلَيْسَ هو المحافظ؟"

ابتسمت الفتاة وقالت: "نعم، هذا هو المحافظ". وتابعت: "أتظن انه متزوّج؟"

فأجاب رفيقها: "كلا، ليس متزوجًا".

وتساءلت ميللّي الجالسة وراءهما: "وانا، من أكون اذًا؟"

لسنوات لم يَأْتِ احد للعشاء في بيتنا أو لزيارتنا، وكذلك لم أذهب يومًا للعشاء أو لأكون ضيفًا في بيت أحد. الآن، والحمد لله، تَغَيَّرَت الأشياء، وأرى أنَّ قراري هذا الذي اعتبر وسواسًا ومبالغة في حينه نجّاني من ان أُصادف يومًا القاتلين الذين ما زال طيفهم يلازمني احيانًا.

| | |

في تشرين الاول 1985 تلقيت مخابرة هاتفية من وزير الداخلية سكالفارو مفادها انه يرسل لي في الغد طائرة عسكرية تقلّني مع اشخاص آخرين "لم يُسَمِّهم" إلى روما للاجتماع به. عندما استقللت الطائرة رأيت في داخلها ثلاثة قضاة محقّقين: جيوفاني فالكونيه وباولو بورساليno وانطونيو كابونيتو. وكنت قد سمعت عنهم سابقًا، ولكن لم اصادفهم شخصيًا قبل اليوم.

كان انطونيو كابونيتو رجلاً متقدمًا في العمر، نحيلاً أصلع الرأس عيناه الرماديتان غارقتان في وجهه. عندما اغتيل روكو شينتشي ترك هذا الرجل الجبار وظيفة

مهمة في فلورنسا وتقدم ليستلم مكانه. كابونيتو Caponnetto من اصل صقلّي هاجر اهله من توسكانا في صغره. وعندما عاد إلى مسقط راسه استبدل بيته الكبير وحياته الاجتماعية الزاهرة ليعيش في غرفة في المبنى العسكري دون اصطحاب عائلته.

كابونيتو هو صاحب الفكرة التي اعتمدها شينتشي لتأسيس "جمعية انتي مافيا" Antimafia Pool وتنظيم بنيتها. والغاية منها ان "تجمع" "pooled" الاخبار بين "مجموعة" محققين ونوّاب عامين يشاركون في المعرفة ووجهات النظر، وان تبقى تلك الافكار محفوظة ولا تتشتت عند اغتيال احدهم. بدأت جمعيّة الانتي مافيا بدرس "تقرير الـ 162" الذي وضعه رجال الأمن سنة 1982، واعترافات توماسو بوسيتا سنة 1984، والتوقيفات التي تَلَتْها والتي تبعها اعترافات وتوقيفات اخرى. توسّعت هذه التحقيقات والتحريات لتصبح برهانًا ضخمًا على اجراميّة المافيا عبر السنين.

قصة فالكوني و"فرقة الانتي مافيا" ومصادرة الكورليونزي تناولها الكسندر ستيل Alexander Stille تفصيليًا في كتابه بعنوان جثث ممتازة *Excellent Cadavers* (رندوم هاوس، 1995). ستيل هو من أدق المراقبين الذين تابعوا الحرب ضد كوزا نوسترا.

بدأ "تجمُّع الانتي مافيا" يحضّر لمحاكمة واسعة ضد المافيا عرفت فيما بعد بالمحاكمة الكبرى Maxitrial بسبب عدد المدعى عليهم الذي يبلغ 476. سابقًا كان المافيويون يحاكمون كأفراد ويُخلى سبيلهم بسبب قانون السكوت الذي كان يُخيف الشهود. ولكن اليوم سيحاكَمون كجماعة، لأن القانون الذي يعتبر المافيا سلطة متآمرة يُلزِمُهم البوح وعدم الرضوخ لقانون السكوت code of silence الذي ساد سابقًا.

قدمت الاحترام لكابونيتو وفيما بعد أحببته، وككل سكان بالرمو لم نلبث ان أحببنا جيوفاني فالكونيه وباولو بورسللينو. كنا في أوج عزّنا عندما اولى كابونيتو هذين القاضيين مهمة محاكمة المافيا.

أبصر فالكوني وبورسيللينو النور في كالسا Kalsa، شارع عربي قديم في المدينة. تعرفا إلى بعضهما صغيرين، ولعبا كرة القدم في ساحة ماجيوني Piazza Magione حيث تقوم الكنيسة العربية–النورمانية الجميلة وحيث تزوّجتُ. وتأثرت عائلتهما بالحياة المدنية الفاسدة في بالرمو. وكان قد استولى المافيويون على بيت بورسيللينو. والساحة التي نشأ فيها بورسيللينو هدمت بحجة شق طريق لأحد احياء بالرمو الفريد من نوعه: شق طريق لم ولن يُشَقّ ابدًا.

شوارع كالسا Kalsa ضيقة ومتهدمة. وكالسا كانت سابقًا حي صيادي الاسماك، ومع الايام اصبحت تُعرف بمملكة مازينو سبارادو Masino Sparado رئيس المافيا في تلك المنطقة، "ملك مهربي السكائر" في الخمسينات، واصبح فيما بعد تاجرَ مخدّرات كبيرًا جدًا. أهل كالسا يعرفون جيدا عدوهم هذا، أي المافيا لأنهم نشأوا معها. قال لي فالكوني: "هل تعرف لوكا لماذا أجيد محاربة المافيا؟ لأنني انا ايضا مافيوزو". ويعني بذلك، طبعًا، انه نشأ قرب مناطق المافيا، ويعرف عقليّتهم وتفكيرهم تمامًا. باولو بورسيللينو ايضًا عاش نفس الشيء، وقال لي يومًا: "تَنَشَّقْتُ رائحة المافيا النتنة منذ ان كنت صبيًا". وفي احدى مقابلاته التلفزيونية، وكانت على محطة تلفزيون سويسرية سنة 1992، اعترف بأنه عندما كان صبيًا في ساحة ماجيوني، كان يغار من بعض رفاقه في الصف، ابناء الكابيمافيا، لأن آباءهم ذوو أهمية بينما والده صيدلي بكل بساطة.

كان كلاهما متوسطي القامة. وبينما كان بورسيللينو رفيعًا وعصبيًا يدخن دون انقطاع، كان فالكوني قد اصبح في منتصف العمر يتمالك أعصابه وخجولاً ويفكر بهدوء، ما يتطابق تماما مع انفعال بورسيللينو. فروقات اخرى كانت تميّزهما. فالكوني تحمَّل طلاقا مؤلمًا، واصبح بالتالي اكثر تطلبًا ودقة، فَدَفَنَ نفسه في العمل. بورسيللينو كان متزوجًا وأبًا لثلاثة أولاد، أنعم عليه الله بروح الفكاهة، وهو لا يصبر على المعاكسات. في السنوات التي تلت، عندما كان "مُوَسْوَسًا" بالمافيا، كان احيانًا يُبْعِدُ مرافقيه بسرعة، ويمتطي دراجة ابنه الهوائية، ويتجوّل في المدينة. فالكوني كان يساريًا دخل قضية المافيا

بسبب خبرته بدقة تفاصيل العمليات المصرفية اللاشرعية. بورسيللينو كان يمينيًا يكره المافيا ويريد ملاحقة المجرمين الذين قتلوا صديقه في الجيش ايمانويل بازيل Emanuele Basile. كلاهما كانا صقلّيَّين في الصميم، متميّزَين بالشجاعة والعناد.

كلاهما كان لهما القدرة الصقلّية على التكلم بعيونهما. عندما وصلت الحرب مع المافيا إلى النطقة الحرجة أتى برنامج تلفزيون "60 دقيقة" *60 Minutes* إلى بالرمو ليصوّر مرحلة منه. أخبرني بعدها مترجم فالكوني الايطالي كيف ان الصحافي الاميريكي توجّه إلى فالكوني مرارًا وتكرارًا يسأله اذا كان خائفًا من الاغتيال. ولكن يومها وقد سئم من هذا السؤال الذي يطرح عليه يوميًا ومنذ سنوات، لم يقبل فكرة مشاركة الآخرين في موته الممكن، وعندما طرح عليه نفس السؤال اثناء المقابلة، نظر بعيدًا ورفع كتفيه كأنه لا يبالي ولم يُعْطِ أيّ جواب. حاول محاوره في برنامج "60 دقيقة" ان يعيد السؤال، فلم يجب فالكوني، بل بقي موجّهًا نظره إلى كاميرا التصوير صامتًا، عندها قال المترجم الذي فهم أن فالكوني يتعمد عدم الاجابة إلى من يجري المقابلة: "الا ترى بأن السيّد فالكوني اجاب عن سؤالك؟"

بدأ فالكوني عمله ضد المافيا سنة 1980 بعد مباشرته بدرس الانتهاكات النقديّة. عند توقيف بوسيتا سنة 1984 كان فالكوني المحقّق المنطقي الأفضل لاستجوابه في البرازيل. في البدء رفض بوسيتا البوح لأي كان، وحاول بعد توقيفه ان يشرب السمّ محاولاً الانتحار. ولكن فالكوني ربح ملاطفته، لا باعطائه دروسًا في الاخلاق، بل بكل بساطة أعجب بوسيتا بدراية فالكوني واحساسه. أحد المحققين التابعين لفالكوني قال مرة: "لو كان جيوفاني من الجانب الآخر، لكان مافيويًا كبيرًا". اظهر فالكوني لبوسيتا أنه معجب به وبقصته، وحمله على قبول البوح الغزير في روما. ووجد بوسيتا لذة في ديناميكية الاستجواب فشرع يعطي فالكوني المعلومات الواحدة تلو الاخرى.

تعرفنا إلى امور كثيرة عن المافيا، تجمّع يتراكم يومًا بعد يوم عبر السنين يبوح بها أشخاص مثل سيزاريه تيرانوفا وروكو شينتشي. بوسيتا كان آخر قطعة في اللعبة

puzzle. أعطى لوحة تامة عن كوزانوسترا من ساعة دخوله، حيث يكون المافيوي جنديًا صغيرًا *picciotti*، ومن ثم يتدرج ليصبح في قمة الهرم رجلاً "مصنوعا" a made man. من بتشيوتي *picciotti* إلى اللجنة Commission. أخبر تماما كيف نشأت المافيا الكورليونية، وكيف تمّ اختراق المخدرات الصقلية للسوق الاميريكية بواسطة "صلة البيتزا" "Pizza Connection".

وعندما قُبض على جيتانو بادالامنتي، وهو يعمل لأحد التجار في نيويورك، قال: "انهم بحاجة الينا لأن رخصة الاستيراد في يدنا". بُعد النظر عند بوسيتا في علاقة المافيا مع الغامبينوس Gambinos وعائلات اميريكية اخرى، وكيف استعملوا البيتزا في قاعات الوسط الغربي Pizza Midwestern لوضع شبكة توزيع المخدرات سمح باقامة علاقة وطيدة بين فالكوني ورودولف جيولياني (محافظ نيويورك السابق) Rudolph Giuliani ولويس فريش Louis Frech (الرئيس السابق للمكتب الفدرالي للتحقيقات FBI) ومحقّقين آخرين في اميركا. قبل بوسيتا ان يأتي إلى الولايات المتحدة، ويعيد التحقيقات، ويعيش في ظل برنامج الحماية الاميريكية U.S. Witness Protection Program عندما تنتهي المحاكمة الكبرى كليًا.

في ذلك الوقت لم يعلم فالكوني اذا كان عليه ان يصدّق أو لا اقوال بوسيتا التي اعتبرها المحققون الآخرون تضليلاً. عندها سأل فالكوني بورسيللينو، لأن هذا يفهم جيدًا عقلية المافيا، ما رأيه في الموضوع. عندما قال بورسيللينو انه يصدق بوسيتا اعتبر فالكوني ان المعلومات صحيحة.

فالكوني وبورسيللينو اسمان يترافقان وكأنهما اسم واحد. في صيف 1985 المشؤوم بعد مآسي مونتانا – مارينو – كاساره – انطيوشيا–سرت اشاعات في سجن اوكسياردوني وصلت إلى السلطات بانهما سيقتلان. اخرج للحال من بالرمو فالكوني وخطيبته، فرنسيسكا مورفيللو Francesca Morvillo وبورسيللينو وزوجته وابنه وابنتاه خوفًا على سلامتهم. وارسلوا إلى سجن في جزيرة آزينارا Asinara مقابل شواطئ

ساردينيا، حيث اقاموا في جناح السجن المخصّص للحرس وقضوا عطلتهم الصيفية. الاولاد يعيشون دائمًا تحت الحراسة المسلحة، والآن يمضون ستة اسابيع منفردين في سجن. اصبح باولو انطوائيًا، ولوسيا البالغة السادسة عشرة فقدت شهيتها للأكل، وسبق ان كانت تشكو الآنوريكسيا. قلق جيوفاني جدًا عليها، وعندما عاد إلى البيت حاول ان يجد لها طريقة للخروج من بالرمو، ليبعدها عن المضايقات الامنيّة والخوف من امكانية الموت المستمرة. فانتقل إلى مدينة مارسالا Marsala في شرقي صقلية التي تواجه ايضا مشكلة مافيا. فقد وجد عملا موقتا هناك وتابع التعاون مع فالكوني من مسافة بعيدة.

| | |

اللقاء الذي جمعني مع فالكوني وبورسيللينو وكابونيتو في تشرين الاول 1985 مع وزير الداخلية في روما وطد العلاقة بين بالرمو والحكومة الوطنية، ووضع أسسًا واحدة للتعاطي مع المافيا. أحد القوانين التي انبثقت من المناقشات نَصَّ على اعطاء عائلات ضحايا المافيا حقوقًا كادخالهم في الوظائف العامة دون اللجوء لطريقة المسابقة النظامية. وأَعْطَيْتُ الامر بان يطبق هذا القانون على الفور في بالرمو.

اجتماعنا في روما اقام ايضا جسرًا منيعًا بين المحكمة وبالازو ديلي آكيل الذي بدا كفريق في الحرب ضد المافيا، لا كمركز للعار والشؤم، حيث المافيا قضت على كل ما له صفة "الشيء العام"، واستعملت آلية الحكم لغاياتها الغامضة. يعرف كل منا، نحن الاربعة، ان يكون زعيمًا في القتال في المقدمة، وكانت معركتنا واحدة لا معارك منفصلة. هم في المجال القانوني وانا في المجال الثقافي. في الصورة التي عرضت عربة نقل بعجلتين: عجلة العدالة والقانون والأمن والمحاكم والسجون، وعجلة المجتمع الاهلي، أي مجتمع مطلّع ومواطنية مسؤولة واقتصاد نام، وكانت معركتنا واحدة لا معارك منفصلة. اذا دارت عجلة العدالة ولم تدر عجلة التنمية الثقافية والاجتماعية، سيقول الشعب كما فعل بعضهم في أسوأ ايام الحرب ضد المافيا: "كنا أحسن في الايام الرديئة". ولكن اذا دارت عجلة المجتمع المدني ولم تدر عجلة العدالة تكمن المخاطرة في بروز حيوية اجتماعية تضع القناع على عمليات المافيا. يجب ان تدور العجلتان معًا وبنفس السرعة اذا كنا نريد ان تتقدم والا تبقى في مكانها.

في الأشهر القليلة التي تلت تقرّبت كثيرًا من بورسيللينو، وهو من الأشخاص النادرين الذين يتوقّف الزمن عندما تكون معهم لتوقّد ذكائهم. كان اصعب ان تعرف فالكوني، ولكن علاقتنا تبدّلت عندما كلّمني هاتفيًا بعد ظهر أحد الأيام يطلب مني خدمة خاصة، قال: "قرّرت ان أتزوّج وأريد منك أن تعقد زواجي. ولكن أرجوك، أريد أن يكون الزواج خاصًا وسريًا وألاَّ يعلم أحد عن أمره شيئًا". فطمأنته بأن الصقلّيين، وهو يعرفهم

تمامًا، يحفظون السر بشكل جيد، وان الاحتفال سيكون على أحلى ما يرام وكما يتمنّاه. حددنا التاريخ ليوم السبت بعد الظهر، واحترمنا العادة القديمة بإعلان المنع، ولكننا وضعناه بين أوراق كثيرة في المنشورات البلدية.

في اليوم المحدّد، بعدما أَقْفَلَت المكاتب في المدينة أبوابها في وسط النهار والتزم كل بيته لعطلة آخر الأسبوع، طَلَبْتُ ان يوضع سجل الزواج على مكتبي، لأنني أريد أن أتحقق من صحة شيء ما. مرَّ الوقت والموظّفون المولَجون بِقَفْل الأبواب أخذوا يراقبون ساعاتهم. فجأة دق أحدهم بابي وقال:

"سيّدي المحافظ... دكتور فالكوني على الباب!"

فقلت: "نعم،، أنا بانتظاره، فليتفضل".

دخل جيوفاني فالكوني مع أعز اصدقائه نينو كابونيتو رئيس فرقة الانتي مافيا. وبعده بقليل وصلت فرنسيسكا مورفيللو مع صديق وهي سيدة جذّابة ونائبة عامة ايضًا. فَعَقَدْتُ زواجهما، ودَوَّنَت أمينة السر الزّواج في السجل. ثم تناولنا كأسًا من الشامبانيا كنت حضرتها في البراد. ولم تعلم الصحافة بالزواج سوى بعد مغادرة العروسين لتمضية شهر العسل.

| | |

إحدى أكبر المحاكمات في تاريخ ايطاليا ستبدأ. ولكن لا يوجد قاعة يمكنها ان تستقبل مئات المدعين وعشرات المحامين وعائلات الضحايا الذين يأتون للادلاء بشهاداتهم والقاضي وأعضاء المحكمة والصحافة والحضور. ولم تكن مساحة الغرفة فقط هي المشكلة، بل يوجد ايضا مشكلة الأمن. ان ينقل كل يوم مئات المافيويّين من سجن اوكسياردونيه واليه عبر شوارع المدينة، لا يخلو من المخاطرة. قرّرنا بناء قاعة خاصة للمحاكمة الكبرى بمحاذاة السجن – "جناح" من سجن اوكسياردوني تحميه ابواب حديدية عالية.

مشاكل ومشاكل اخرى يجب معالجتها. يجب ان تكون قاعة المحاكمة مقاومة للقذائف. قرّرنا اخيرًا ان نجلس في مبنى كبير من البناء المقوّى والمسلّح يقاوم ضربات مباشرة من الصواريخ الموجّهة للمصفّحات. ويجب ايضًا ان يقف مئات المدّعى عليهم في "أقفاص" مقفلة، جوانبها من القضبان لئلا يتآمرون أو يقتل بعضهم بعضًا او يُهدِّدون الحضور. فالمساحة اذًا يجب ان تكون كبيرة لتستوعب كل الذين يأتون بمن فيهم ممثّلو الحق المدني ويجب توفير أجنحة مخصّصة للّجنة الحاكمة اثناء اعتزال القضاة. يجب ايضا إحداث موقف للسيارات يستطيع النوّاب العامّون والقضاة الدخول اليه والخروج منه دون ان يمكن استهدافهم او رميهم بالرصاص. يجب توفير أمن شديد مع تقنيّة عالية بما فيها الأشعة والتحقّق من هوية الحضور.

شيء لا يصدق! خصوصًا لمن يعرف البيروقراطية الايطالية. ولكن القاعة كانت جاهزة متحديّة كل هذه العوائق. وكانت نموذجًا في الهندسة. وان تكون كلفة البناء عالية جدًا، وفي وقت قصير نسبيًّا ومحدود، كان برهانًا ان الدولة أخذت تعهدًا جديدًا وقررت احتواء المافيا.

ولكن في أواخر تشرين الثاني 1985، بعد ان ملأ المدّعون العامون اثنين واربعين مجلّدًا من الإحالات إلى المحاكمة الكبرى . جاءت المأساة اليونانية لتحدث سخرية جديدة. كان باولو بورسيللينو عائدًا إلى بيته في سيارته المصفحة لتناول الغداء. جانبت سيارته سيارة متوقّفة في فيا ليبارتا Via Liberta اجبرت السائق على ان يفقد سيطرته على السيارة ويغير اتجاهه "فصدم" باصاً متوقفًا مملوءًا بالاولاد العائدين إلى منازلهم وهم يهتفون ويصفقون فرحين. وبينما كان السائق يبعد السيارة نزل المرافقون الآخرون منها، وشهروا سلاحهم، واطلقوا الرصاص، ظنًا منهم بان هجومًا ما يواجههم. مرت الاحداث بسرعة، ثوان معدودة وجدوا أنفسهم بعدها امام مشهد من الرعب. تلميذان قتلا على الفور: صبي يدعى بياجيو Biagio وفتاة تدعى جيوديتا Giuditta. وتلميذ آخر اصيب بجروح بالغة وكثيرون آخرون كانت جروحهم أقل ضررًا.

كانت مناسبة استغلّها اتباع المافيا. فهم ينتظرون فرصة سانحة يستغلّونها لمصلحتهم فبادروا بحملة مدسوسة عبّروا عنها بافتتاحيات الصحف. حَوَّلَ المدّعون العامون بالرمو إلى "مدينة مدجّجة بالسلاح"، ووصلت الرسالة: ان الاجراءات الامنية التي يتخذونها لحمايتهم الشخصية هي غير ضرورية ومبالغ فيها. صفّاراتهم تقلق المواطنين التوّاقين إلى السلام والهدوء وسيّاراتهم تقتل الاطفال. نعم! كان الوضع سيئًا في السابق، عندما كانت المافيا تغتال الشعب. ولكن اليوم اصبح أسوأ. تُعَرِّضُ شخصيات الانتي مافيا حياتنا وحياة اطفالنا للخطر. متى نعيش حياتنا الطبيعية العادية؟ أين هي هذه "المدينة الاوروبيّة" التي لا يزال يعدنا بها المحافظ اورلندو؟

قصدت مكان الحادث، ورأيت الطريق مغطى بالدم، والرعب في عيون التلامذة الذين لا زالوا على قيد الحياة. لما عدت إلى مكتبي كان هاتفي يَرِنُّ بدون توقف، وطُلِبَ منّي ان أعلن بالرمو "مدينة في حداد". ولكني فكرت لو فعلت ذلك لا يكون الحداد على التلامذة بل **ضد** المدعين العامين والكارابينياري والشرطة، وأكثر من هذا ضد التغيير الذي بدأ يأخذ جذوره في المجتمع المدني. فأعلنت أني لا أريد أن أعلن الحداد رسميًّا في بالرمو، لأن موت الأطفال هو بالنسبة لي كموت أفراد عائلتي الخاصة، سأُعلن الحداد الشخصي، وأطلب من كلّ مواطن في بالرمو ان يفعل مثلي.

غصّت غرفة الانتظار في فيلا صوفيا Villa Sofia – وهو المستشفى الذي نقل اليه الاطفال المصابون للمعالجة – برجال الأمن واعضاء النيابة العامة وقد بان الأضطراب على وجوههم. لم يجرؤوا على الدخول إلى حيث يعالج الجرحى، لأنهم يخشون إيلام أمهات وآباء الاطفال. فطلبت منهم أن يدخلوا ويزوروا الجرحى واحدًا واحدًا في أسِرَّتِهم ويعبّروا عن حزنهم وتضامنهم معهم. أقيم جناز بياجيو في كاريني Carini، وهي قرية صغيرة قرب بالرمو وجناز جيوديتا في كنيسة الرعيّة في بالرمو. وصادف ان تكون جيوديتا ابنة ضابط عالي المقام في الأمن. وقت الصلاة جلس بورسيللينو في الكنيسة بقربي، وكان حزينًا منكسر القلب.

في الأسابيع القليلة المقبلة كان باولو بورسيللينو يمضي ساعات طوالاً يوميًا قرب سرير التلميذ الذي كان في الغيبوبة. وصادف أنّه كان صديقًا شخصيًا لعائلة التلميذ. وطمأنه الأهل إلى انهم لا يعتبرونه مسؤولا عما جرى حتى في حال وفاة ابنهم. ولكن بورسيللينو كان يتألم أشد الألم ويصلّي بقرب السرير.

عندما كان الولد الصغير لا يزال في المستشفى، نظّمت المافيا مناصريها المدنيّين، وجالت في الشوارع تشن هجومًا قويًا ضد القاعدة القانونية والنظام المدني محاولة ان تقبض بيدها على بالرمو. اما الحديث فكان على الشكل التالي: هل نحن اليوم افضل بهذا النوع من القتال عما كنا سابقًا؟ في الختام، اختار الشعب الدفاع عن الدولة التي يمثلها المدّعون العامون والادارة. في اجتماعات التلاميذ في المدرسة، اعلن هؤلاء ان المافيا هي المسؤولة عن موت بياجيو وجيوديتا، ووافق أهلهم على ذلك. فكانت هذه ساعة مهمة في تجربتنا لتجديد المجتمع المدني.

عندما رأت المافيا ردّة الفعل هذه، وكانت سلبية تجاهها، رجعت إلى عهدها السابق. وفي كانون الاول، وكانت المحاكمة الكبرى تسير في طريقها، قتلت المافيا رجلاً مسنًا كان يخرج من الكنيسة برفقة أمه وأخته. كان يُدْعى ليوناردو فيتاليه Leonardo Vitale، وهو اول التائبين *pentiti* الذي منذ اثنتي عشرة سنة اعتبره رجال الشرطة مختل العقل، اذ أتى ليدلي بشهادته عن أعمال المافيا الباطنيّة. لماذا قتل الآن، هذا الرجل المسنّ وذو المقام العادي؟ لم يكن ذلك لأن لديه بعض المعلومات ليدلي بها. كان هذا رسالة إلى بوسيتا وإلى كونتورنو وإلى كل الذين يجرُؤون على ان يحذوا حذوهم: اذا حضروا إلى المحكمة وأدلوا بشهاداتهم سيدفعون ثمن ذلك غاليًا.

| | |

ثمّة نص في القانون الايطالي يعطي الأطراف المتضرّرة حضور المحاكمات كمدّعية بالحق المدني *partie civile*. مثلاً، اذا قتل او اغتيل احدهم، فعائلة القتيل هي partie civile أي يمكنها ان تدّعي على المجرم. وغالبًا ما يكون طَلَبُ المدعين بالحق المدني للاضرار رمزيًا جدًا، ووكلاء المدعين بالحق المدني *partie civile* حاضرون خصوصًا لحث النائب العام على مقاضاة المجرم.

حتى لا ينظر المواطنون إلى المحاكمة الكبرى كدعوى شرعيّة نظريّة، ولاعطاء فكرة بان مدينة بالرمو وكل سكانها – لا من سقطوا في شوارعها فقط – تضرّروا من اجرامية المافيا، قَرَّرْتُ أن أكونَ مُدَّعيًا بالحق المدني في المحاكمة الكبرى. بعضهم اعتبر هذا التصريح وهميًا ونظر اليه محامو المافيا باستخفاف. ولكن المواطنين الشرفاء نظروا اليه بشكل آخر. عندما كنت أمشي بينهم كانوا يردّدون: "انت على حق!" "نحن معك!" "يجب ان تنال من هؤلاء الرعاع!"

قبل المحاكمة بايام قليلة، دعت مدينة بالرمو إلى "جمعية وطنية ضد المافيا" National Assembly Against the Mafia. هذا للدلالة على اننا لسنا وحدنا، وان البلد بكامله له موقف مما يحدث. مئات من المحافظين ومن الاداريين المحليين من كل انحاء ايطاليا اتوا إلى بالازو ديلي آكيل، وحوّلوا غرفة الاجتماعات فيه – التي كانت لسنوات رمز سلطة ومؤامرات المافيويّين – إلى مجلس وطني يتّخذ القرارات ضدّها ويقاومها.

في الكلمة التي ألقيتها ترحيبًا برئيس الجمهورية فرنسيسكو كوسيغا قلت ببساطة: "بالرمو هي عاصمة المافيا، ولكن بالرمو تنوي ان تكون عاصمة **الانتي مافيا** في العالم". وبعدها دعوت الى مؤتمر صحافيّ لأعلن عن صفتي كمدَّعٍ بالحق المدني Civil plaintiff، وممثل بالرمو مع لجنة شرعية من ثلاثة اعضاء، يرأسهم أحد أكبر محامي روما، جيوفاني ماريا فليك Giovani Maria Flick، وهو خبير في الجريمة المنظمة

اصبح بعد عدة سنوات وزيرًا للعدل، ثم عضوًا في المجلس الدستوري الايطالي. قَبِلَ هذه المهمة بشرط واحد هو ان لا يتقاضى أيَّ أجْرٍ، حتى ولا تلك المصاريف العالية التي تقتضيها أسفاره ذهابًا ايابًا بين روما وبالرمو لمدة سنتين.

أظن، ككلّ كاثوليكيّ آخر، أني أؤمن إيمانًا قويًا بان في هذا العالم اولاد نور واولاد ظلام. لسنوات ملكني التشاؤم، اما الآن فازداد اقتناعي بان قوّات النور، واخيرًا، تحرّكت في بلدي الجريح.

7

المحاكمة الكبرى

افتتحت المحاكمة الكبرى في 10 شباط 1986، وكان يومًا غزير الامطار. انتشرت الحواجز في كل أنحاء المدينة، وتوقف أكثر من ثلاثة آلاف جندي ودبابات الجيشين امام قاعة المحاكمة. وحلّقت المِروحيّات قريبة فوق الرؤوس، ومرّت صفوف المواطنين التي لا نهاية لها أمام تفتيش الأمن قبل دخولهم إلى الصالة العامة. كان يمتلك الجميع جو من الفرح والابتهاج رغم رداءة الجوّ. اليوم سيرون في قفص الاتهام المافيويّين الذين ولّوا أنفسهم عليهم لسنوات. اليوم سيشهدون اول تصدّعات هيكل بناء المقاطعة السياسيّة التي أقامتها المافيا في صقلية لمئة سنة مضت.

لمّا دخلت قاعة المحاكمة، القيت نظرة على جماعة الصحافيّين الذين أتوا إلى بالرمو من كل دول العالم تقريبًا، وحوّلوا شوارعنا إلى برج بابل. أخذت مكاني في الجانب المخصّص لمدعي الحق المدني ولمحاميهم. ولما مررت أمام المافيويّين رأيتُ الحقد يلمع في عيونهم. وسمعتُ الهمس بينهم: "المحافظ! انظروا، انظروا، المحافظ!"

لم يكن لديهم أي شيء آخر يقولونه، لكنَّ محاميهم لم يتردّدوا في التعبير عن ازدرائهم نيابة عنهم. عندما وقفت أمام المحكمة أؤكد حضوري – وقد أدرت ظهري إلى أقفاص الاتهام – قال أحدهم بشكل جارح: أحرى بمحافظ بالرمو ان يهتم بتنظيف الشوارع ومراقبة احترام ساعة انطلاق الباصات بدلاً من مطاردة المدّعى عليهم المساكين.

لم يكن من المستغرب وجودي كمدعي الحق المدني، او وجود عائلة دالا كييزا، او أرملة سيزاريه تيرانوفا Cesare Terranova، او ممثلين عن الكارابينيري المغدور بهم أو رجال الأمن. اما المستغرب فهو وجود سيدة متقدمة في السن، قصيرة القامة، سمينة، مرتدية ثيابًا سوداء، تحمل حقيبة يد سوداء، وهي تمشي بثبات إلى قاعة المحاكمة، وتسحب من كيس حملته صورة كبيرة "مُبَرْوَزَة" تصرخ وتسأل وهي تنظر في أنحاء الغرفة: "أين هو العدل؟"

هي فيتا رونياتا Vita Rugnetta، وكانت كثيرة الشبه بأحد أشخاص سينما روسوليني Rosselini الآتية من الريف الصقلي. هي من أولئك السيدات اللواتي يفتخرن بأنّهنّ ينتمين إلى عائلة تحوي بين أعضائها "رجل شرف". لكنّ كل عالمها تصدّع وهبط عندما رأت جثة ابنها الوحيد في صندوق سيارة متوقفة امام المركز الرئيسي للشرطة. انطونيو رونياتا Antonio Rugnetta كان مافيويًّا من الصفوف السفلى ولا يزال متدرّبًا، كان اصابة مميتة للكورليونيين اثناء المحاكمة الكبرى. لقد كان عرضة لنوع من الاجرام الوحشي استعملها المافيويون لمعارضيهم بنوع خاص خلال حربهم الثانية: موت العنزة. والطريقة ان يكبل ذراعا وقدما الضحية وتربط بشكل قوس وراء ظهره، اما الحبلة فتربط حول عنقه. لقد رُمي بالرصاص أيضًا. والأرجح انه مات موتًا بطيئًا ومريعًا بطريقة "موت العنزة" *incaprettatura* ثم خُنِقَ بطريقة بطيئة وبربريّة.

هذه السيدة التي وقفت في المحكمة تسأل عن العدل كسرت بطريقة مأسويّة أقدم المحرمات عند المافيا. كان ممكنًا ان يلجأ المافيويّ اذا تجنّى عليه أحد إلى مافيوي آخر، ولكن لا يلجأ أبدا إلى الدولة. نعم كانت هنا أمام الصحافة العالمية مع شكواها.

كانت السيدة رونياتا تملك محلاً صغيرًا للمفروشات في أحد الشوارع الضيّقة في وسط بالرمو التاريخي. كان ابنها يعيلها، ومنذ وفاته لم يبق لها سوى هذا المحل الصغير لتوفير لقمة عيشها. ولكن منذ وقوفها امام المحكمة لطلب العدالة لم تعد تبيع قطعة بسيطة واحدة. لا شيء. حتى ولا الأشياء الرخيصة. لأن الكابي مافيا أصدرت أوامر

جازمة: لا أحد يشتري من محل فيتا رونياتا. وبقيت، بعد سنوات من انتهاء المحاكمة الكبرى، بكل عزم وعناد تفتح كل يوم المحل عند التاسعة صباحًا، وتقف بلباسها الأسود بين البضائع الكاسدة، أو تجلس طوال النهار امام محلها قرب مزار في وسطه صورة ابنها "المُبَرْوَزَة". ازدادت ديونها، ولكن المحل بقي مفتوحًا كعلم كبير ضد المافيا.

كانت فيتا رونياتا بوقفتها هذه، المرأة الاولى التي أصبحت مفخرة للنساء اللواتي يطلبن العدالة. أحد أهم مقتنيات المافيا هو الايهام الخبيث انهم يتمسكون بالقيم الصقلية التقليدية وعلى رأسها أهمية العائلة. عندما بدأت النسوة توجه انتقاداتها إلى المافيا، وأسّست جمعية دعتها "النساء ضد المافيا" اعتبرت المافيا، بأن جدارًا كبيرًا في الكوزانوسترا تزعزع وتهدم أي سقط "جدار برلينها".

| | |

كانت المحاكمة الكبرى لا تزال في مرحلتها القضائية البدائية، حين أتى، بعد عشرة ايام من افتتاحها، أحدهم وهمس لي باضطراب أنهم اوقفوا ميشيل غريكو Michele Greco! ما يزيد على اربع مئة رجل من الجيش اوقفوا في عملية سرية غريكو عند الفجر في بيته في الريف عند جبال مادونيه Madonie شرقي بالرمو.

انتشرت الاخبار في المدينة كالنار. الآن "بابا" المافيا سيكون هناك، في قفص مع الآخرين في قاعة المحاكمة أمام القضاة. ميشيل غريكو الذي استضاف لسنوات في ضيعته في كروسيفرديه جياردیني Croseverde Giardini، وهي ضاحية من خراج بالرمو، عائلات الاعيان، والسياسيين والاساقفة وحتى القضاة وممثّلين غيرهم من سلطات القانون والنظام! ميشيل غريكو الذي استضاف "عشوات" المافيا، ونظم قممها، وابتهج بحفلات الصيد، واستمتع بجلسات "البربوكيو" على شرفته، عندما كان الذين يعملون تحت إمرته يجولون في المناطق الأخرى يغتالون رجال المافيا الآخرين المعادين له وللكورليونيين سيقف وأخيرًا في المحكمة. وعندما هذا "البابا" بنظرته "البريئة" و"جنتلمان

الريف" المسنّ نودي عليه ليقف امام اللجنة للاستجواب، فتح يديه وبدأ كلامه بقوله: "العنف وكرامتي لا يلتقيان". وهي تركيبة مافيويّة نموذجية.

بعد ذلك فهمنا بأن توتو رينا السلطان على عرشه هو الذي قدم غريكو ليكون "زعيم الزعماء" boss of bosses ظنًّا منه بأن السلطات ستعتبر القضية منتهية بالقبض عليه وتحل المشكلة نهائيًا، ويكون هو في مأمن. ولكن هذه المعلومات لم تكن لتحدَّ من عملنا. كان باولو بورسيللينو خبيرًا في دنيا المافيا، وكان جد مضطرب في بدء المحاكمة الكبرى. عندما رأى ابن ميشيل غريكو يمر بين المشاهدين، وتأوه أحد المواطنين مستهزئًا عندما جانبه بصوت عال قائلا: "آه !" لم تكن سوى كلمة صغيرة ولكن باولو شعر بأن هذه "الآه" تعبر كثيرًا عما كان يجري في مدينتنا.

| | |

منذ بداية المحاكمة الكبرى، كانت كل مقابلة، وبصورة خاصة تلك التي أجريت مع الصحافة الاجنبية، تنتهي بالسؤال نفسه: "سيّدي المحافظ، هل انت خائف؟"

كنتُ دائمًا أصرف النظر عن هذا السؤال ولا أجيب، ليس بسبب تواضعي، بل لأنني لم أكن فعلاً أعرف الجواب. تقاعسي الصحي اثناء طفولتي، والدلال في نشأتي وتربيتي على الرفاهية كانت بالنسبة لي انذارات تحدثني دائمًا بالموت المبكر. لذلك كنت ربما أقل خوفًا مما يراود آخر في نفس الموقع. ولكن كانت مخيّلتي واسعة، ولم يكن صعبًا علي أن أفكر في أحداث كانفجار قنبلة أو هجوم ناري بالكلاشنيكوف، أو في خطف يليه موت على طريقة "موت العنزة" *incaprettatura*. استلمت رسائل غير موقعة تطفح بالتهديدات والجدية فيها – وكانت كثيرة – لم تكن تصلني مباشرة. كانت تأتي عن طريق الأمن بواسطة مخابرات هاتفيّة أو مخبرين يحضرون شخصيًّا، او تهديدات مسجلة على الهاتف، أو مخابرات هامسة تفيد ان شيئًا ما يتحضر.

وضعت نوعًا من الشيفرا مع مرافقي، أفهم من خلالها وعبرها على أيّة درجة من الخطورة هي التهديدات بنظر رجال الأمن. عندما كان هؤلاء يتناوبون صباحًا، كان رؤساؤهم يتصلون بهم هاتفيًا لتوقيع نماذج خاصة تفيد بأنهم أخذوا علمًا بأن ليولوكا اورلندو وهم مسؤولون عن سلامته، يعتبر حاليًا "بحالة خطر شديد". وفي تلك الايام عندما كنت أدخل السيارة كانوا يقولون لي: "سيّدي المحافظ، وقّعنا صباحا". عندها كنت أتأكّد تمامًا أنّني في خطر.

جميل ان نقول انه رغم تظاهرنا بالشجاعة "وعنتريّاتنا" كنا نعيش في حالة من الاحتراز والحذر. اجتماعاتي مع فالكونيه، وبورسيللينو وكابونيتو، كانت اغلب الاحيان تتمّ في مكاتبهم حيث الأمن نسبيًّا موجود. ولكن في أحدى الامسيات دعاني فالكونيه إلى منزله، وبعد الفكاهات المعتادة قال لزوجته: "فرنسيسكا، لماذا لا تذهبين وتأتين بقهوة للوكا؟"

فتردّدت لبرهة. مدَّعٍ عامّ، عالي المقام يلجأ إلى السرّيّة أي يخاف على ذاته.

وكرَّر مصرًّا يقول لها: "هيا فرنسيسكا، لا تتركي اورلندو بدون قهوة، ارجوك، اذهبي وهاتينا بفنجان قهوة".

عندما تركت فرنسيسكا الغرفة، أخرج فالكوني رسالة من جيبه. كانت تحتوي على تهديدات لشخصه ولي. وكانت تدلّ اشارة البريد على أنّه وارد من ألمانيا من ويبرتال Wuppertal في الرور Ruhr. وتفيد معلومات مكتب الادلة الجنائية Bundes Kriminal Amt، وهم الاختصاصيّون الألمان في الجرائم، بأن ويبرتال هي إحدى المدن الثلاث في ألمانيا حيث المافيا الصقلّيّة قوية جدًا.

وقال لي فالكوني: "هل علمت؟ انها جدية".

واذ رأى فرنسيسكا تعود من المطبخ خبّأ فالكوني الرسالة في جيبه وهمس لي: "لا أريد أن أُقلق بالها".

| | |

كانت الاسابيع تمرّ والمحاكمة الكبرى تدخل في الروتين القانوني من الكلام الطويل والمطاط، وبالتالي اختفت التعليقات عنها من الصفحات الاولى من الصحف. وكانت المحاكمة تجري في الظلمة وتحاط بالصمت، وهذا بكل تحديد ما كانت المافيا تنتظره.

كانت النصوص والشهادات والاعتراضات التافهة ووجع الرأس المؤلم يسيطر على المحاكمات. وعندما أصبح محامو المدعى عليهم بعيدين عن الاضواء أخذوا يستعملون كل الشعوذات والاساليب لاطالة المحاكمة ما أمكن. والغاية من ذلك اعطاء ما أمكن من الفرص واطالة الوقت الوقائي قبل السجن الممكن في النظام الايطالي. بدونا وكأننا امام مبارزة غير منظورة. في البدء كانت تنتاب المدّعى عليهم "نوبات". أحدهم خاط شفتيه وسكَّرهما. (فعلاً في قفص الاتهام خاط شفتيه بالابرة والخيط!)، وآخر ابتلع مسامير. أمرت المحكمة باخراجهم وتوبعت المحاكمة. ثم أتى دور محامي المافيا. فطلبوا ان تقرأ مئات آلاف الصفحات **كلها** – ما يفوق ثماني مئة ألف صفحة – على مسمع من الناس. احدى الصحف قدّرت المدّة التي تستغرقها القراءة بسنوات عديدة. قبلت المحكمة بهذا الحق للمدعى عليهم، ولكن قررنا أن الايام التي تتطلبها هذه الاجراءات لا يمكن طرحها من المدة المحددة بالقانون للمدعى عليهم والذين سيحكم عليهم، بها بالسجن فيما بعد. بناء عليه سحب المحامون هذا الطلب للحال.

طوال هذه الاجراءات كانت كوزانوسترا تتربّص وتنتظر. لا جرائم باستثناء بعض عمليّات سلب مسلّحة فقط. ساد جو من السكون الملائكي بسبب هذا الانتظار، وذلك عملاً بالمثل الصقلي الذي ينصح سكان ارض تُغزى باستمرار بأن يصبروا ويترقبوا الفرصة ويترصدوها حتى تتسنّى لهم فرصة الخلاص.

وبالفعل – بعكس ما توقّعه المحامون – عاد توماسو بوسيتا من الولايات المتحدة حيث كان يقيم في ظل برنامج حماية الشهادة، ليثبت بشخصه كل ما قاله لجيوفاني فالكوني. ورغم شهادة سالفاتوريه كونتورنو Salvatore Contorno وشهادات غيره من المخبرين الذين وصفهم وكأنهم يقرأون فاتورة مبيعات، فاتورة القتل والتعذيب بالجملة والاجساد المحروقة بالآسيد والمخطوفين والذين اختفوا ولم يتركوا اثرًا *lupara Bianca* التي أثارت استغراب وسائل الاعلام والشعب.

| | |

في أواخر حزيران 1987، نشرت جريدة *Il Corriere della Sera*، وهي أقدم الصحف الايطالية واعلاها مكانة، مقالا كتبه ليوناردو سياسيا Leonardo Sciascia أحد أكبر الكتّاب الايطاليين في القرن العشرين. كان سياسيا صقليًّا من مدينة صغيرة اسمها راكالميتو Racalmuto من مقاطعة آغريجنتو Agrigento، ولكنّه عاش لعدة سنوات في باريس. من أشهر قصصه، وربما الأكثر شهرة: *The Day of the Owl*، يوم البومة، التي علّمت جيلا من الايطاليّين ذهنيّة المافيا ورموزها. يعرف سياسيا Sciascia قليلاً عن المافيا التي نشأت في السنوات الاخيرة في المدن، ولكنه يفهم جيدًا ذهنية المافيا الريفيّة. أحد ألطف شخصيات روايته، عراب قرية صغيرة يميز بين أربع طبقات من الرجال: "الرجال، والنصف–الرجال، والرجال الحقيرين، والرجال – البط المُعَقْعِق." في الخمس كلمات– الاخيرة منها خصوصًا، يدل سياسيا على العقل الميّت أو العقل المفقود عند أتباع الكوزا نوسترا ويرسم لوحة رائعة عن نظرة رؤساء المافيا إلى العالم.

ذكر سياسيا باولو بورسيللينو بالاسم، مشيرًا إلى انه اختير لوظيفته كرئيس مكتب المدعين العامين في مارسالا، وهي مدينة مواجهة للحرب ضد المافيا، على مدَّعٍ عامّ آخر يفوقه قدمًا وعراقة. لم يذكر أية اشارة عن هذا المدعي العام الأكثر عراقة والذي لم

يكن له خبرة مع المافيا. وذكر سياسيا محافظًا آخر لم يذكر اسمه وضع نفسه تلقائيًا تحت الاضواء باعطائه المقابلات للصحافة والتحدث في المدارس والمحاضرات ضد المافيا، وهو بذلك يعمل على انجاح مهنته، ولا يجرؤ أحد على التهجّم عليه أو مهاجمته خوفًا من ان يتهم بأنه مافيوي. يقول سياسيا: "هؤلاء الرجال وآخرون مثلهم هم انتي مافيويّون مهنيّون" من خلال السياسة. بدون شك يدل سياسيا في مقاله على بورسيللينو وعليّ شخصيًا.

في اليوم الذي تلا المقال امتطينا الطائرة قاصدين موسكو أنا وميللّي مع جيوفاني فالكوني وزوجته فرنسيسكا، حيث يلتقي فالكوني قضاة سوفيات ورجال الاستخبارات الذين يعملون في روسيا ضد الجريمة المنظمة، بينما التقي انا السلطات البلدية المحلية في موسكو وفي لينينغراد Leningrad حيث يواجهون المشكلة نفسها. ناقشنا أنا وفالكوني مقال سياسيا. فقلت له ان كلمات سياسيا كان لها اثر المطر، كما في المثل الصقلي القائل: "عندما تمطر، يخرج البزّاق من الصدفة".

فقال فالكوني: "انتظر سترى كم من بزّاقة ستظهر فجأة ساحبة اللعاب اللزج وراءها". سياسيا المعروف جيّدًا بعدائه للمافيا لم يلاقِ ابدًا هكذا عددًا من المعجبين. فتزايد عدد مؤيدي وقراء سياسيا في كل مكان كالفطر. الذين لم يقرأوا قط في حياتهم كتابًا واحدًا لسياسيا حتى والذين لم يسمعوا عنه من قبل اليوم يمدحونه ويثنون على بعد نظره وفراسته. الذين لم يتذوّقوا أبدا حدة ذهنه وفطنته والتنوع في نثره الجميل أصبحوا اليوم ناقدي أدب يمدحونه ويُثنون على عمله.

هكذا كان الجو السائد في المدينة عندما كنا نقترب من الانتخابات الوطنية المنتظرة في ربيع 1987. عندما بلغت المعركة ذروتها ظنّ البعض أن المرشحين سيهابون المافيا. ولأول مرة استهدفَ بعض مرشحي الحزب المسيحي الديمقراطي، هذا الحزب الذي، مع بعض استثناءات، كان يمثل شيئًا أكيدًا لشعبنا. وصلني تقرير من زميل لي يخبرني بأن ترشيحه لخوض المعركة في منطقته رفض. ومن آخر ديمقراطي مسيحي

من الحركة العمالية ان سيارته قد احرقت، ومن آخر ان عجلات سيارته قد شرمت وشقت. كان واضحًا ان الكوزانوسترا تنوي لأول مرة معاقبة هذا الحزب، بعد اتخاذ الامين العام دي ميتا De Mita الموقف القوي، وبعد انتخابي ونشاطاتي كمحافظ اصبح في نظرهم غير موثوق به. وبالفعل حوّلت المافيا انتباهها، ودفعت بأصواتها نحو حزب آخر ومرشّحين آخرين.

قرّرت أن أقاوم هذه الميول بتنظيم تجمع في كورليونيه. لم يؤسس المسيحيون الديمقراطيون أي تجمع في تلك المدينة المشهورة عالميًّا بأنها رمز المافيا، لأنهم لم يجدوا أي حاجة لذلك. عرفت المافيا لمن تقترع، وأرغمت أهل المدينة على تنفيذ ارادتها.

عندما توقفت سيارتي المصفّحة في الساحة الكبيرة وترجّلنا منها، مرافقيّ ثم انا، تقدم اليَّ بعض اصدقائي المسيحيين الديمقراطيين الاوفياء واحاطوا بي. سرنا في طريق المدينة الرئيسي متجهين نحو الساحة الصغرى مقابل قصر المدينة، وكان اسمه فيما مضى ساحة كاماراتا (على اسم عائلة والدتي)، حيث طلبت ان يكون المنبر. وكان ظاهرًا على وجه رفاقي السياسيين الاضطراب والخوف. أحدهم صعد لجانبي وقال بلطف:

"لوكا، لا تمر على ذكر المافيا".

فقلت: "طبعًا، جئت لكورليوني لأتكلم عن "الروبو"!"

عندما صعدت إلى المنبر، كنت وحدي مع المرافقين. فلم يقدّمني أحد من الحزب الديمقراطي المسيحي، ولم يقف أحد بقربي. مقابل المنبر، في الساحة الصغيرة، وقفت شلة صغيرة من الشجعان. كل سكان كورليوني الذين أتوا ليسمعوني اتكلّم – وكانوا كثيرين – وقفوا في الشارع. اذا تحدّوهم فهم قادرون على المجابهة!

استهللت كلامي قائلاً: "قولوا لهؤلاء الجبناء الذين يقتلون ويختبئون، انهم ليسوا مجرمين فقط، قولوا لهم انهم ليسوا حتى صقلّيّين! قولوا لهم انهم ليسوا أهلاً لأن يطلق عليهم اسم صقلّيين! فالصقلّي الذي يقتل لا يختبئ في الظل!"

لم أكد أنهي كلمتي حتى أحاط بي اصدقائي القدماء، وقد نسوا انهم دعوني مسبقًا إلى عشاء في مطعم محلّي ذاعت شهرته بالمعجّنات والحلويات، ودفعوني بسرعة إلى سيّارتي مصرّين على ان أعود فورًا إلى بالرمو لأنهم كانوا شديدي الخوف على سلامتي.

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الليلة، والقي نظرة على الريف الصقلي وقد غطته احر شعاعات شمس الغروب أشعر "بلذة غريبة". لقد التزمت ربما بما يسميه الفرنسيون عملا مجانيًا، وامتلكني شعور بالوفاء، لأنني بذلك كرّمت ذاكرة عائلتي، وأدّيت واجبي لجدودي وأسلافي القدماء الذين خلفوا عالمًا اقتحمته المافيا وبنت فيه عرش ملكها دون ان يدروا.

| | |

سنة 1990 برزت الدفعة الثانية من المخبرين بعد بوسيتا وكونتورنو، وكان أهمها ما أتى به فرنسيسكو مارينو مانوايا Francesco Marino Mannoia الذي اكد ان انتخابات 1987 كانت معاقبة للمسيحيين الديمقراطيين، لأنه لا يمكن الركون اليهم أو الوثوق بهم بعد ان سمحوا باجراء المحاكمة الكبرى. عند الفرز تفوّقت الاحزاب الاشتراكية والراديكالية بعدد كبير من الاصوات وخصوصًا في المناطق المافيوية مثل برنكاكسيو وسجن اوكسياردوني، فكانت النتيجة درسًا مهمًّا للمسيحيين الديمقراطيين.

من الناحية النظرية لم يكن للانتخابات أثر على السياسة المحلية. وندد بي الحزب الاشتراكي مستعملاً ما قاله عني سياسيا Sciascia: "انتي مافيوي مُحترف ويثير الجماهير". ووردني تساؤل لماذا التحالف المحلي في مدينة يجب ان يعكس التحالف في كل المناطق. ألم يُقَل لنا أن الحرب ضد المافيا تفوق أهمية الاحزاب؟ أريد أن أبث عند باقي الاحزاب الشعور بأهمية هذه الحرب وان يروا أنه بامكاني أن أحصل على أكثرية –

ولو أكثرية ضئيلة – باستبعاد الاشتراكيين ومحالفة "الخضر" The Greens ويساريين آخرين مستقلين.

بعد سنتين من توليتي منصب المحافظ، انتُخبت للمرة الثانية بالتحالف الجديد الذي اصبح معروفًا للحال "بالحكومة الشاذة" أو "الحكومة غير المألوفة". الاعضاء المسيحيون الديمقراطيون الذين ينظرون الى سالفو ليما ومرشده الوطني صاحب السلطة جيوليو اندرييوتيه كمرجعيّة يكرهونني، ولكن يتمنّون الا تضيع سلطة الحزب، فاطاعوا اوامر دي ميتا De Mita وادلوا لي بأصواتهم. الذين انضموا إلى التحالف لم يعرفوا ذلك في حينه بل عندما أعلن عنه وأُطلق عليه الاسم في "ربيع بالرمو" Palermo Spring. أتى التعبير مما شاهده المراقبون الذين اتوا ليروا ما يجري في مدينتنا بعد سنتين ونصف مقارنة بما بدأ يظهر في براغ على عهد دوبتشك Dubcek بعد عشرين عامًا.

بدأنا اختبارات دقيقة من نوع يقظة المشاعر الدينية التي كانت القاعدة في أعظم مدن اوروبا واميركا. الحرب التي بدأنا شنها على المافيا لم يتورط فيها الجيشان محتشدين، بل كان القتال يجري من منزل إلى منزل محاولين ان نستعيد مدننا وأهلنا شارعًا شارعًا.

أعرنا مدارسنا في هذه المعركة اهتمامًا خاصًا. الوضع لم يكن ممكنًا تصوره في أي دولة اوروبية أخرى. عدد كبير من مدارس بالرمو كان مستعملاً للسكن كما ذكرت ذلك سابقًا. كانت تعطى الدروس لا في مبان مدرسية بل في شقق خاصة. وهذا يعني ازعاجًا للتلاميذ وللاساتذة ومصاريف ضخمة للبلدية التي تستأجر المباني من اصحابها المافيويين او اتباعهم الذين يبتزون اموالا باهظة.

قابلت بعض رؤساء المدارس وأهالي التلامذة الذين شكوا اليَّ امرهم، اذ ان اولادهم يذهبون صباحًا إلى مدارسهم، وبعد الظهر تتحول هذه المدارس إلى شقق سكنية يأوي اليها مالكوها. في نهاية هذه الاجتماعات أخبرني أحدهم بوجود أبنية قريبة لتأجير الشقق ربما نجد فيها حلا لمشكلة "التحويل" هذه. كنت أُسْمِعُهم دائمًا ان الادارة تنوي

اقامة مدارس جديدة، ولكن يتطلب هذا سنين طويلة واموالاً طائلة. ولكن حتى ذلك الوقت يذهب التلامذة إلى المدرسة لا على فوجين بل ثلاثة أو اربعة اذا كان ذلك ضروريًا ولا نُجبر على استئجار اي مساكن اخرى. عندما اصبح واضحًا للجميع أنني باق على مبدئي ولن أبدله، تذكر احد رؤساء المدارس قال: "لدينا عدة غرف للدرس في مدرستنا أقفلت منذ سنوات بسبب حاجتها للترميم يمكن ان نباشر فتحها..."

ثمّة حالة أخرى طريفة بالفعل، إذ أتى لمقابلتي وفد من المعلمين والأهل من منطقة تدعى سيب Cep، وهي مقاطعة محرومة عند اطراف المدينة تطورت سنوات استباحة بالرمو، ومنذ ذلك الحين اصبحت مرتعًا للمخدرات والإجرام. ينتظر التلامذة صفوفهم مداورة في المدرسة الوحيدة هناك. طلب الوفد ان تستأجر البلدية مبنى بقرب المقاطعة وان ينقل التلاميذ بالباص ذهابًا وايابًا. ارسلت من يستعلم عن اسم مالك البناء، فاكتشفت بان المالك هو شركة على علاقة قوية مع المافيا فرفضت طلبه فغادر مستاءً. وبعد ساعات اتصل بي شخص لم يعطِ اسمه، وافادني بوجود مدرسة بلديّة حديثة في نفس المنطقة لم تستعمل منذ بنائها وبقيت مقفلة لسنوات. تأكّدت للحال من صحّة الأمر. نعم، ثمّة مدرسة متضررة لأنها كانت مهملة، ولكنها كبيرة، ولا تزال مناسبة وحديثة. اجرينا الترميم اللازم في غضون اشهر، وبعدها افتتحت المدرسة – مدرسة يملكها الشعب ولا أحد غيره – وانتهينا من قصّة التحويل والأفواج.

في كروسوفردي جيارديني، مقاطعة ميشيل غريكو، كانت البلديّة تشغل بالايجار أربع غرف صغيرة كمدرسة ابتدائية، تمامًا مقابل فيلّلا "البابا" الزعيم المافيوي. المالك هو عائلة برستيفيليبو Prestifilippo، وأحد اعضائها ماريو برستيفيليبو هو أحد الجنود الكورليونيين الأكثر فعالية، وهو مَن اقترف اكثر من اربعين جريمة قبل ان يُقتل. عندما سمعت هذه الورطة، ألغيت عقد الايجار للحال وطلبت أن ينقل الأولاد بالباص إلى مدرسة في تشييياكولي Ciaculli، وهو أقرب قضاء في المنطقة. فبدأت الاحاديث الهامسة: "عندما كانت المافيا، كان عندنا مدرسة على الأقل...".

أتى اليّ جمع من سكان كروسفردي جيياردييني يتقدّمهم كاهن الرعية، وقالوا لي: "حضرة المحافظ، من الصعب جدًا ان نصادف في منطقتنا أي مبنى نستأجره لا يكون ملكًا أو مشغولاً من المافيا، فلماذا لا نحاول نحن بناء مدرسة؟...". أجريت البحث في الموضوع، فوجدت قطعة من الأرض اختير موقعها من زمن لبناء مدرسة للبلدة، ولكن لم يتم استملاكها. والسبب كان معروفًا: الأرض هي ملك للسيدة غريكو زوجة "البابا" ميشيل غريكو. عندما اكتشفت ذلك طلبت من السلطات البلدية ان تتبع الاصول القانونية لاستملاك الأرض.

استملكت الأرض، وبدأنا نضع تصميم المدرسة، فكان ذلك من أصعب المغامرات التي صادفتها في سنوات ولايتي كمحافظ. يومًا نُسي وضع توقيع ضروري على المعاملة، ويومًا آخر فُقد الطابع المالي عن أحد المستندات، أحد المتعهدين لم يجر الحسابات الصحيحة لكمية الإسمنت الضروريّة وهلمّ جرّا. ولم يقل أحد بوضوح وشفافية: عندما كانت المافيا تحكمنا في كروسفردي جياردييني، كان التلامذة يؤمون مدرسة صغيرة من أربع غرف دكناء ووسخة، أمّا اليوم وقد استلمت الانتي مافيا، فيذهب اولادنا إلى مدرسة حديثة ومؤهلة لاستقبالهم وفي وسط مقاطعتهم.

الأولاد هم مستقبلنا، ولكننا معنيون بماضينا ايضاً. وسط بالرمو، وهو ايضا وسط ارثنا وثروتنا، اصبح قذرًا وملوثًا. شوارعه مكتظّة بالسيارات التي تُرمى في الشوارع ولا من مواقف. لا يوجد في وسط المدينة سلال للمهملات، لأن المافيا لسنوات طويلة لزّمت هذا العمل غير المنظور إلى أزلامها. وكان أهل بالرمو يرمون نفاياتهم في الشوارع، ويحافظون على منازلهم ناصعة لا غبار فيها. فارسلنا اليها من يجمع النفايات، ثم أنشأنا شرطة لتنظيم السير، اذ لحينه كانت الشرطة أشبه بالقوى المتطوّعة في العالم الثالث، لا تظهر بزي رسمي وكانت غير فعالة وعملها باطلاً. قرّرنا اقفال أحد الشوارع في وسط فيا برنسيب دي بلمونتي Via Principe Di Belmonte، وحولناه إلى متنزَّه عامّ للمشاة مع ملاءٍ على الأرصفة، وزيّنّاه بالأزهار والشجر والشجيرات. ولم ينتظر أهل بالرمو

طويلاً، بل أخذوا يخرجون من منازلهم – التي لزموها طويلاً وكأنها قلاع – ويتجمعون هناك.

أما أعضاء الحكومة فزادوا على مهامهم كسياسيين واداريين وظيفة معلّمين، فشرعوا يربّون أهل بالرمو على تراثهم الثمين. وليتيزيا باتاغليا Letizia Battaglia هي أحد من لعب هذا الدور. فهي مصورة ذات شهرة عالمية انتخبت عضوًا في المجلس من الخضر Greens، واصبحت "مساعدتي للحدائق ولنوعية الحياة" Commissioner for Gardens and Quality of Life. ربحت جائزة اوجين سميث W. Eugene Smith Award الرفيعة المقام لصورها التي التقطت عن أعمال المافيا في صقلية. وقد نقلت ليتيزيا احداث بلدنا لسنوات، وهي تمشي دون خوف في الأماكن الخطرة مع آلة تصوير 35 م م حول عنقها. فكانت تصل احيانًا إلى محل الجريمة والمجازر قبل السلطات وتلتقط روح الرعب، والوحشة والفاجعة. لصورها لا تكفي آلاف الكلمات في وصف قذارة الممرّات الضيّقة في وسط بالرمو التاريخي، والفقر المنتشر فيها، وحيوية أولادنا التي لا تُكبت، والعظمة الارستقراطية المخبأة في بعض القصور الباقية التي ما تزال قائمة.

ليتيزيا امرأة في الخمسين من عمرها قصيرة وبدينة، شعرها خروبي اللون متدلٍ على كتفيها. لا تعرف شيئا عن ادارة المدينة، ولا تهمها الاجراءات الرسمية. ولكن كل صباح في السادسة، وتنسى احيانا ان تضع قفازيها لحماية يديها. كانت تساعد في الشوارع عمال البلدية. تنزع الازهار اليابسة من الاحواض وتزرع غيرها. اذا ارادت مجلة ان تستأجر ليتيزيا لالتقاط صورة ما، فما كان عليها الا ان تفتّش عنها في المدينة بين الحدائق المهملة والساحات الخضراء. أو عندما كان الجوّ يتحسن على الشواطئ القذرة التي كانت أجمل شواطئ المتوسط واليوم تستعمل كمستودع نفايات يرمي الصقليون فيه كل ما لا يحتاجونه من اثاث أو ثياب، فأصبح المشي عليها خطرًا بسبب وجود حثالات المحقنات.

اعتبرها البعض مثالية تعيش في الاوهام، لكن ليتيزيا كانت تعتقد ان انشاء ساحات عامة مدنية جميلة هي الخطوة الاولى لبناء ثقافة احترام واعتبار للمدينة. الساحات العامة هي الأمكنة حيث الجميع يتساوون رغم تفاوت الثروات. تعتقد ليتيزيا انه اذا قدمنا للمواطن حديقة عامة معتنى بها منمّقة وشواطئ كثيرة النظافة، فسيراهن على انه سيحافظ على نظافتها. وبالفعل، عندما كانت ردة الفعل عكس ما توقعت كانت معنوياتها تهبط، وكنت اراها تبكي بسرعة في احدى زوايا الحديقة العامة. ثمّ تعود في اليوم التالي مع عدّتها والأدوات اللازمة، ومع افكار منوعة وهي مستعدة لمعركة جديدة.

وعندما زرت الصحافيين الذين تابعوا نتائج استباحة بالرمو، قال لي بعضهم: "هل تعرف سيدي المحافظ. لم ألاحظ سابقًا كم هي جميلة فيلّلا بونانو، وشجرات النخيل الرائعة!" أو "سيدي المحافظ! لم ألاحظ ابدًا وجود حديقة في شارع فيا ليبرتا Via Liberta، فهل كانت دائمًا موجودة؟"

بالرمو ملأى بآثار الحضارات، وبالاخبار التي دفنتها المافيا بفسادها، ومحت آثارها بالهدم الذي نفذته خلال مئة سنة من الحروب على صقلية. بدأنا نُخرج هذا الماضي من تحت التراب.

اشترت البلدية فيلّلا جميلة جدًّا تملكها صقلّيتان اميريكيتان، وهما ابنتا امير نيسيمي Prince of Niscemi، وتعيشان في نيويورك. كانتا بحاجة لبيع هذه الفيلّلا الجميلة، فيللا العائلة التي لا زالت تحتفظ بغرفها المزخرفة بالفسيفساء وكل اثاثها القديم ولوحاتها وأوانيها. في هذا الوقت، وكانت بالرمو تغرق في مشاكلها الكثيرة، تساءل كثيرون: أليس من الجنون انفاق المال العام لشراء فيللا؟ السيّدتان نيسيمي قدّمتا الفيلة بسعر متدنٍّ جدًا. والفيللا اصبحت جزءًا من تراثنا، فلو اشتراها غيرنا لهدمت. بعد ترميمها جعلنا منها مركزًا لحكومة المدينة وفتحت للجمهور. العائلات التي لم تحظَ يومًا بالدخول إلى قصور الارستقراطيين في بالرمو تأتي اليوم مع اطفالها، فتسرح وتمرح في غرفها الرائعة، وتتأمّل سكونها المهيب ورونقها الزاهر.

اقامة البناء الشاهق والقبيح المنظر والرديء في نواحي وضواحي المدينة وضواحيها هي المرحلة الثانية في تصميم المافيا على استباحة بالرمو، وهي التي توقعت هدم وسط المدينة برمّته. أحد المستندات التي وقّعَتْ عليها بين ملفات المدينة جارح بصراحته: "من الضروري هدم هذه القصور القديمة والقبيحة". وتتناول هذه المباني الكنائس والقصور في القرنين السادس عشر والسابع عشر، والأحياء العربية بساحاتها الواسعة وممراتها الضيقة. وبعد اخلاء هذه الاماكن وبيعها بثمن بخس، ستعمد المافيا إلى تشييد الأبنية الجديدة لتجني منها اموالاً طائلة.

وليس بالمستغرب ان يقول توماسو بوسيتا لفالكوني انه، عندما كان في البرازيل سنة 1980، طلب منه بيبو كالو Pippo Calo امين الصندوق في الكوزانوسترا الذي كان يعيش برفاهية يومها في روما، ان يعود إلى بالرمو لأن أموالاً طائلة سنحصل عليها من اعادة بناء الوسط التاريخي.

فكّرت ومستشاري للتنمية المدنية ريناتو بالازو Renato Palazzo في استراتيجية إبعاد أيادي المافيا عن هذا الإرث الثمين. عند الساعة الثالثة فجرًا، وبعد اجتماع طويل جدًا لمجلس المدينة عرض بالازو مشروعه، وهو أن يستعين بثلاثة مهندسي بناء – لا يكون أي منهم صقليًّا منعًا لتضارب المصالح – يضعون تصميمًا جديدًا للوسط التاريخي تستبعد منه امكانية الهدم. اعتمدت الاقتراح وأيّدته برمَّته.

وافقنا على العرض، وسلكنا طريقنا رغم المعارضة القوية التي رافقتنا، وبدأنا بترميم مبنى رسمي هنا، ومبنى خاص هناك. ورويدًا رويدًا أخذنا نرمّم الساحات مثل بيازا تافولا توندا Piazza Tavola Tonda وهو موقع مواجه للبحر، وأبنيته العديدة ما زالت معالم قصف الجيوش الحليفة بادية على بعضها بعد الحرب العالمية الثانية بخمسين سنة.

| | |

في أحد الأيام كنت أتمشى في محلات بالارو Ballaro Market في الشوارع الضيقة من أحد الاحياء العربية القديمة مع قببه المزخرفة الملونة التي تلفت النظر، عندما سمعت صوتًا يصرخ في الخارج: "ملعون كل من يقول سيئًا في المحافظ!". كانت هذه طريقة للتعبير عن فرحهم وحماسهم تجاهي، وهي مأخوذة من اغنية للباعة المتجولين، مما أثار الضحك بصوت عالٍ في كل المتجر. وفيما كان الناس ينظرون إلى عدد مرافقيّ قال احدهم باللهجة الصقلية: "هنا، لا يحتاج المحافظ لمرافقين. هم (أي المافيويون) عليهم ان يقتلونا اولاً!"

هذه هي إحدى الصور التي نقلتها معي لأتذكر ربيع بالرمو، والتي تعبّر عن الذهنية. يومًا آخر، بقرب عيد الميلاد، كنت ذاهبًا إلى فكسيريا Vucciria، وهي ربّما اشهر أسواق بالرمو. رآني بعض التلامذة في ساحة فوكسيريا، فتجاهلوا وجود مرافقيَّ، واقتربوا مني غير مبالين بنظرات مرافقيَّ المهددة، فدخلوا بين حرسي، وأحدهم شد بذلتي ليثير انتباهي. وقال: "ايها المحافظ، ايها المحافظ! هلا تذكّرتني؟ أتيتَ إلى مدرستي!" وآخرون اخذوا بعض دفاترهم، وقال أحدهم: "أيها المحافظ، اسمي سالفاتور، اكتب لي أي شيء!" وقالت أخرى: "انا روزالي، حضرة المحافظ... اريد توقيعًا منك على دفتر ذكرياتي".

حادثة ثالثة أحببتها بصورة خاصة لأني أرى فيها تفاؤلاً بالمستقبل. وجدت نفسي أمام احدى سيّدات الأعمال، لائقة اللباس والمظهر في وظيفة رسمية. شرعت تحدّثني بنوع من السطحية والسخافة، فكانت أجوبتي بعيدة عن الموضوع، لأنني علمت انها ستستعمل اجوبتي ربما للممازحة والتعليق في أحد "العشوات". قالت: "استقبل بصورة مستمرة المتعهّدين على العشاء، وأكثر ما يدور الحديث عن شخصك وعن حكومتك". وسكتت تترقب مني سؤالاً، ثمّ استأنفت الحديث بكل صراحة: هم لا يحبّونك، يقولون أنك تحبّ الأجانب، بقدر ما أنت متكبّر وفخور بنفسك... وتقبل بالاكراميّات! وهم يسألونك، على أي حال، من تخال نفسك؟".

واضافت: "ولكن كلما تحدّثوا ضدّك، غابرييل وهو اصغر ابنائي يدافع عنك بكل قدرته".

عندها سألتها: "أصحيح هذا؟ كم يبلغ عمره؟"

أجابت: "إحدى عشرة سنة. رآك عندما ذهبت إلى مدرسته وتكلّمت مع التلامذة".

بعدها نظرت إليّ مهتمّة لتنهي قائلة: "هل تعرف؟ لا يمكنك ان تكون محافظًا لي my mayor لقد فات الزمن لذلك. ولكن اصبحت محافظًا لابني وربّما هذا المهم".

8

الدولة تحمي المافيا

في مساء 16 كانون الاول 1987، كانت صالة المحاكمة تغص مرة أخرى بالحضور، اذ أعلنت محكمة المحاكمة الكبرى بعد سنة تقريبًا من المقاضاة، وأكثر من شهر من الاعتزال، انها مستعدّة لاصدار الاحكام، وان القاضي الفونسو جيوردانو Alfonso Giordano سيقرأ القرارات.

عندما بدأ جيوردانو: "باسم الشعب الايطالي..." سيطر على القاعة هدوء غريب دام لساعات طويلة دون ان يعكّره أي صوت آخر. بعض العسكريين العاديين أُعفي عنهم. حكم على انيازيو سالفو الذي توفي ابن عمه نينو في سويسرا، حيث كان مختبئًا من العدالة، بست سنوات. ولكن جيوردانو كان يردّد أيضًا عبارة "حكم عليه بالسجن المؤبّد" مع اسم كل زعيم كبير في المافيا وعددهم تسعة عشرة زعيمًا. بعض الذين كانوا موقوفين كميشيل غريكو مثلاً سيبقون داخل السجون مدى الحياة، أي حكم عليهم بالسجن المؤبد. والذين لا يعرف مكان اقامتهم مثل توتو ريينا وبرناردو بروفنزانو لم تصدر أحكام بانتظار القبض عليهم. وبلغ مجموع سني السجن 2665 سنة والغرامات المالية المفروضة 11،5 بليون من الليرة الايطالي.

حكمت المحكمة وقالت الدولة كلمتها، كذلك ايضًا كوزانوسترا التي منذ سنتين تطأطئ رأسها وتنتظر النتيجة أصدرت هي ايضًا احكامها. في تلك الليلة بالذات حيث صدر حكم اخلاء سبيل أو تبرئة انطونيو تشييولا Antonio Ciulla – وهو مافيوي

صغير – قتل على عتبة منزله حاملاً في يده قنينة شمبانيا اتى بها للاحتفال مع عائلته. ولم تكن هذه الحالة الوحيدة، سبعة عشر مافيوي آخر مبرّؤون لاقوا حسابهم مع المافيا.

عادت المافيا لعاداتها وهي بالطبع القتل والاغتيال. والجثة المشهورة الثانية هي جثة جيوزبي انسالاكو الذي اغتيل في سيارته في ساعة متأخرة من الليل بعد شهر من صدور الأحكام. إنسالاكو الذي كان محافظ بالرمو لأربعة أشهر لم ينج من النبوءة الشائعة: آجلاً أو عاجلاً سينالون منه.

كنت في مكتبي عندما وصلني خبر اغتيال انسالاكو. شعرت بأنني وصلت إلى آخر الطريق التي اخترت عندما بدأت أعمل مع بيرسنتي ماتاريلا منذ عشر سنوات. ان يُقتل انسالاكو حماقة ولا شك، لأن اغتياله جسّد حقيقة لم تفهمها الانتي مافيا الا بعد حين. الرابط بين المافيا والسياسة الذي كان يسير في طريق باتجاه واحد، يسير اليوم في الاتجاهين. تستعمل المافيا السياسة لتحقيق مصالحها، وتستعين السياسة بالمافيا لتقوية سلطتها. اليوم، جيوزبي انسالاكو كان عاجزًا كليًا ومغلوبًا على أمره، ولا يمثّل خطرًا للكوزانوسترا، ولكنه يهدّد البنية السياسية التي كان جزءًا منها. اثناء اغتياله كان يعمل على مخطوطة أعلنَ عنها متفاخرًا بأنها تتناول "الجيد والسيّئ" في العالم السياسي في بالرمو. من السهل ان نتصوّر قلق بعض السياسيّين من ان يأتي انسالاكو بمثل ما أتى به توماسو بوسيتا. نعلم ان المافيا كانت تستعمل علاقاتها السياسية للحصول على غاياتها، واليوم يلجأ السياسيون إلى المافيا لتنفيذ الجرائم.

عندما ذهبت إلى الدفن، لاحظت انني كنت السياسي الأوحد، أي انه لم يشارك أي سياسي آخر في المأتم. كانت عائلة انسالاكو موجودة ولم يحضر أيّ من رفاقه الحزبيّين الذين كانوا يتمسكون به خلال السنوات العديدة التي كان فيها مستشارًا ومحافظًا للمدينة. مسكين انسالاكو الذي كان في حياته ركيزة ثابتة في صالونات السياسة المعقّدة لم يعد له أي صديق في الموت.

يوم دفن انسالاكو، قتل ناتالي موندو Natale Mondo حين كان يفتح باب محل زوجته للألعاب، وهو رجل الشرطة الذي نجا بحياته من عاصفة الرصاص التي قتل أثناءها نيني كسّاره وروبرتو انتيوشيا. لأنه لم يقتل مع نيني، اتهم موندو بالتواطئ مع الأمن الذي اجبره، دفاعًا عن حياته، بالاعتراف بالتحقيقات التي كان يجريها. وبأوامر من كاساره اخترق عالم المافيا في منطقته وطارد تجار الهيروبين. والتثبت من ذلك كان بالدخول إلى يوميات نيني Ninni الشخصية. ربما نسي سكان بالرمو ان موندو بقي على قيد الحياة، ولكن كوزانوسترا لا تنسى، فقد انتظروا الانتهاء من المحاكمة الكبرى ليقضوا عليه ويمحوه من الوجود.

| | |

في تموز 1988 كان الناس ينظرون بتقدير كبير إلى انطونيو كابونيتو باعتباره عراب تجمع الانتي مافيا وهو على بعد سنتين من تقاعده. ولكن في بالرمو، وبعد سنوات من الانعزال وراء حواجز الأمن حيث أُجبِر هو والآخرون على البقاء، كان يضعف شيئًا فشيئًا وهو بطبيعته نحيل البنية. فقد نصحه جيوفاني فالكوني بالعودة إلى بيته وعائلته في فلورنسا. ومن مارسالا حيث ترأس مكتب النيابة العامة، ضم باولو بورسيللينو صوته شاكرًا له اتعابه: "اذهب نينو، يجب ان تضع حدًا للتضحيات التي نطلبها منك". لكنّ تراجُع وضعِه الصحي أجبره على الاستقالة من المجلس الأعلى للقضاة.

كان قَلَق كابونيتو مركّزًا على مشكلة النيابة أي من يحل محله، لكنّ جيوفاني فالكوني كان المرشّح الأكيد لينوب عنه. ولكن هل يستطيع تأدية هذا الدور، في السياسة "البيزنطية" التي تقود العالم السياسي في ايطاليا؟ لقد نصح كابونيتو بفالكوني، وترشّح فالكوني لهذا المنصب. فكّرنا جميعنا في أن المجلس الأعلى سيصوت لمصلحته، ولكن بدأنا نسمع كمًّا من الاعتراضات والانتقادات: فالكوني يمارس مهنة خارجة عن فلسفته للأنتي مافيا، وهو يستعمل مهنته لمصلحته الشخصية وللتوصل إلى مركز أعلى. هذا

الخبر نشرته المافيا نفسها للتضليل، وردّدته الصحف، وأخذ يتفاعل في الرأي العام. اختار مجلس السبعة عشر عضوًا مرشحًا آخر يدعى انطونيو ميلي Antonio Meli الذي نال جميع الأصوات ضد فالكوني. لم يستطع كابونيتو ان يغيّر مجرى الاختيار. ومثلنا بقي ينتظر مغلوبًا على أمره. كيف ان وريثه الطبيعي سقط مقابل رجل ليس فقط مسن – ثمانية وستون عامًا – ولكن غضوب معجب بنفسه وبصورة خاصة ليس بوسعه فهم او تفهم المافيا.

برهن ميلي Meli ان الاشاعات التي سرت ضدَّه صحيحة عندما عمل، بعد ان تسلّم منصبه بقليل، على تفكيك تجمع الانتي مافيا. فقد اصدر قرارًا لا يجيز للقضاة ممارسة مسؤولياتهم في مناطق خاصة بهم؛ بل يجب ان يعالجوا القضايا التي تعرض عليهم. فهو لم يفرض اي خبرة خاصة لقضيّة المافيا. أمّا فالكوني فهو معروف اليوم دوليًا بخبرته المميزة في المافيا التي تجعله قادرًا على ملاحقة قضية خطف أو "نشل" مثل الكابومافيا *Capomafia*.

لم يلقَ نجاح المحاكمة الكبرى الصدى الذي يستحقه، اذ اصبح مكتب التحقيق القضائي مركزًا لا يقاوم، واخذ فريق ميلي يطالب ويحث على تطبيع المافيا في حين أصرّ الذين كانوا من فريق فالكوني على توجيه ضربة إلى قلب كوزانوسترا لأن الفرصة ملائمة لذلك. وبسبب هذا الانشقاق تباطأت التحقيقات الجارية ضد المافيا وتوقفت. الانجازات والتحقيقات العظيمة التي حُقّقت في السنوات المنصرمة والمعلومات الدائرية عن ظاهرة المافيا وما خلفته بدا وكأنه لم يحدث قطّ. وهذا ما عبّر عنه أحد اعضاء تجمع الانتي مافيا بقوله: "كنّا ننظر سابقًا إلى قطع بسيطة وصغيرة من الحجارة لا تعني شيئًا، أمّا اليوم، وقد جمعناها بعضها إلى بعض، فقد اصبحت لوحة جميلة من الفسيفساء". الآن، عاد الناس ينظرون إلى قطع الحجارة الصغيرة المبعثرة.

رافقت في هذه الاثناء كاهنا يقود مجموعة من التلامذة من منطقة في بالرمو تتواجد فيها المافيا بكثافة إلى روما لمقابلة البابا ثم رئيس جمهورية ايطاليا. عندما ذهبت

إلى كيرينال بالاس Quirinal Palace مركز الرئاسة، قابلت الرئيس كوسيغا وكلمته على انفراد. كلمته مطوّلا عن شكوكي ويأسي والاحباط الذي اشعر به ممّا يجري في بالرمو. ليس من الفوضى التي رافقت المحاكمة فحسب، بل من التورّط في اغيتال انسولاكو. استمع كوسيغا دون التزام، وعندما رافقني إلى الباب قال: "أعدتُ مؤخرًا قراءة ما كتبته عن التنسيق الاداري"، ثم ذكرني بما كتبته من سنوات عندما كنت اعطي دروسًا في القانون. قال: "لماذا لا تعود إلى تأليف كتب في القانون؟"

هل كان يوحي اليَّ أنني ابالغ في تقدير مخاطر المافيا التي تهدّدنا، او انه يوجه اليّ تنبيهًا ما؟ كان من الصعب ان اعرف.

| | |

كنا في منتصف تموز، وكنت في دير كنيسة مار نقولا في آغريجانتو مع باولو بورسيللينو والفردو غالاسو المحامي الذي مثّل عائلة دالا كييزا في المحاكمة الكبرى. كنا هناك لأننا دعينا لنحتفل باصدار كتاب عن التحقيقات القضائية مع المافيا في أغريجانتو، وكانت مناسبة مهمة لأنها تعني نشر التنبّه لمراقبة المافيا خارج حدود بالرمو.

كان بورسيللينو غاضبًا وشديد اللهجة بسبب تطوّرات الامور في مكتب التحقيق القضائي في بالرمو، فارتجل كلمة قاسية بصراحتها لمدة تفوق الساعة: "نحن في جو من الفلتان العام... انهم يفكّكون تجمع الانتي مافيا في بالرمو..." كانت ساعة مهمة حركت مشاعر الحضور، ولم يكن بينهم سوى صحافيَّيْن احدهما من *La Republica* والآخر من *L'Unita* نشرة الحزب الشيوعي. هذا الصحافي الاخير أتى في اليوم التالي لمقابلة بورسيللينو في مارسالا، حيث عبر باولو عن شعوره بوضوح: "لوقت سابق قريب، كل تحقيقات الانتي مافيا كانت مركزة في التجمع Pool، وذلك بسبب وحدة الكوزانوسترا... أمّا اليوم الحالات مبعثرة في الف اتجاه... بقيت الشرطة بعد مقتل كاسار ومونتانا دون مسؤول يقودها. وجهاز الاستخبارات اصبح اليوم وكأنه غير موجود".

لم يمر كلام بورسيللينو في ذلك اليوم مرور الكرام، فاتهمه الفريق الجديد في مكتب التحقيق القضائي بأنه متآمر مع صديقه فالكوني ضد رئيسه انطونيو ميلي. نشرت الصحف الاخبار والاخبار المضادة التي وصلت برمّتها إلى روما. طلب رئيس الجمهورية كوسيغا من مجلس القضاء الأعلى ان يتحقّق من اقوال بورسيللينو عن تعليق الحرب ضد المافيا.

باشر مجلس القضاء الأعلى استجواب كل القضاة المعنيين، ليل نهار وبدون توقف. اخترق بورسيللينو الصمت الذي التزمه منذ ترشحه لرئاسة تجمع الانتي مافيا، وكتب اربع صفحات يرفض فيها بمرارة تجميد التحقيقات ضد المافيا، ويطلب ان ينقل إلى مكتب آخر. فما كان من مجلس القضاء الأعلى الا ان رفض طلب بورسيللينو، وتجاهل كل ما ورد فيه من ادعاءات.

في اليوم التالي تلقّيت مخابرة هاتفية من بورسيللينو وهو يسألني: "لوكا؟ هل وصلك ما فعلوه؟ انا قلق، ساعدني لوكا، ساعدني، انا خائف على سلامتي."

صُعقت للخبر. فالكوني هو الرجل المثالي في قول الحقيقة، ومعتدل لم اسمعه قط يقول لي كلامًا كهذا، ولم أعرف بما اجيب.

قلت لجيوفاني: "اتصل بالرئيس، اتصل بكوسيغا، لك مكانة دولية سيعيرك اهتمامه".

عرفت ما الذي كان يقوله. اذا رفضت ادعاءات بورسيللينو وقبلت ادعاءات المافيا، واذا قاطعته السلطات الرسمية فسيكون وحيدًا ومضلَّلاً. ونعرف، من التجارب السابقة، ان عزل أيّ شخص هو مقدمة لقتله.

كنت أعلم انه يجب ان نعمل ما بوسعنا لنتجنّب صيفًا آخر من سفك الدماء. وبعد ان انهيت مخابرتي مع فالكوني دَعوت إلى مؤتمر صحفي، فلبّى الصحافيون الدعوة وحضروا على الفور. كنت شديد اللهجة أكثر من أي يوم مضى، وقلت لهم: قولوا للشعب ماذا يعمل العالم السياسي غير المنظور بفالكوني وبكل الآخرين الذين حاربوا المافيا.

"يجب ان نعمل لنتجنب مأتمًا رسميًا آخر". الدولة ليست معنية بمحاربة المافيا، بل الدولة **تحمي** المافيا. كنت واضحًا جدًا وكان كلامي لا لبس فيه ولا إبهام أكثر من أي يوم مضى.

في اليوم التالي كنت في سفيراكافالو Sferracavallo وفي فيلّلا والدي على البحر، عندما كلّمني فالكوني للمرة الثانية. قال:

"لوكا، هل رأيت الأوراق؟"

ولما كنت لم اتسلَّمها تابع يقول: "ألم تتسلَّمها؟ انهم كلهم يتناقلون تصريحك، والانظار توجّهت اليك. ربما ساعد ذلك على نجاتي ونجاة باولو. شكرًا".

| | |

ولم تمض ايام قلائل على المؤتمر الصحفي الذي عقدت حتى وصلني إخبار من وزير الداخلية هاتفيًا مفاده أني وعائلتي في اشدّ الخطر، ونصحني بأن اذهب في عطلة، والأفضل خارج البلاد. بعد ايّام كنت مع زوجتي ميللّي وابنتيّ اليونورا وليلى Eleonora and Leila في تبيليسي Tbilisi في جيورجيا، وكانت لا تزال جزءًا من الاتحاد السوفياتي.

لا أنكر ان هذا الاختيار كان غريبًا نوعًا ما، ولو ان العالم الشيوعي كان احد الأماكن الآمنة التي لم تخترقها المافيا. ولكني اخترته لحادث وقع قبل أشهر من ذلك. كنت غائصًا في العمل أبحث بين بعض المستندات في مكاتب المدينة، فاكتشفت ان اوّل كتاب قواعد كتب باللغة الجيورجية جمعه سنة 1600 راهب من بالرمو يدعى فرنسيسكو ماريو ماغجيوه Francesco Mario Maggio، اذ كان مبشّرًا في تلك المدينة. راعني ذلك واخذت افتش عن معلومات اكثر فأكثر بما فيها يوميات الأب ماغجيو عن اسفاره. اتصلت بمحافظ تبيليسي، واخبرته عن اكتشافاتي هذه بما فيها ان بالرمو وتبيليسي هما "مدينتان اختان". كانت بالرمو تأتي بعمل كهذا لأول مرة – وسهل ان نقول لماذا لم تقدم

طلبات عديدة من مدن اخرى تطلب هذا الشرف – ولما كان علي ان اختار مكانًا آمنًا بانتظار عودة السكون إلى بالرمو، فكّرت في أن أذهب إلى مكان بيننا وبينه على الأقل علاقة قديمة.

رأت السلطات أن غيابي إلى جيورجيا في هذه الاشهر لم يكن للأمان فقط، بل كان عطلة حقيقية. وأعجبت اثناء هذه الخلوة بما لاقيناه في جيورجيا من مودة وحسن الضيافة. وعندما كنت اسأل الجيورجيين عن اخبار ايطاليا وصقلية كان جوابهم: كُلْ واشرب ولا تفكر في ما يجري. فاستطعت لأول مرة منذ سنوات طويلة ان أنسى قلقي وهمومي الوطنيّة والخاصة.

أقمنا في سلسلة من المساكن الرسمية الكبيرة والآمنة، وكنا كلما وصلنا إلى احد المنازل تتسارع اليونورا وليلى لاكتشافه، وتصرخان بتعجب: "كم هو كبير هذا المنزل يا والدي، هو اكبر من بيتنا بعشرة اضعاف على الاقل".

تنقّلنا في جيورجيا، البلاد الجميلة، تُقِلّنا وفود السيارات الطويلة التي بصفاراتها ومكبرات الصوت تأمر السيارات الأخرى والمشاة باخلاء الطريق لتوفير السرعة والأمان. وعندما كانت المسافات طويلة كنا ننتقل جوًا بطائرات رسمية. زيارتي إلى جيورجيا، وبعدها لموسكو سمحت لي بالاطلاع على الشفافيّة قبل ان تندثر تحت انقاض جدار برلين بعد سنة.

كانت جيورجيا كثيرة الشبه بصقليّة من نواح عديدة، وفيها خليط من الاعراق والثقافات. خضعت لنير القيصر العسكري، وتعتبر ان الروس هم برابرة. أعجبت وسررت كثيرًا أن أعرف أنّ من أحب وأشهر القصص المسلية عند الأولاد الجيورجيّين استوحاها لويدجي بيروندييللو Luigi Pirandello، وألف اشهر قصصه، وعنوانها: "لا جيارا" *La Giara*. وبيروندييللو هو أكبر كتّاب صقلّية في القرن العشرين ورابح جائزة نوبل وقد اقتبس الفكرة من التقاليد الجيورجية.

| | |

عندما بلغنا ان خطر الاغتيال اصبح اقل تهديدًا، عدنا إلى صقلية لنجد بان مكتب التحقيق القضائي، عوض ان يوجه اهتمامه لمعالجة اسلوب اغتيال الشخصيات المشهورة، والذي يعمل بموجب مذكرة صادرة عن محام اشتراكي، قرر فتح تحقيق حول المؤتمر الصحفي الذي عقدته في آب. واستُدعيت رسميًا للاستجواب، لأنني صرحت بالترابط والعلاقة بين العالم السياسي وعالم المافيا. يريدون معرفة هؤلاء الذين يتواصلون فيما بينهم؟ يريدون اسماءً.

كان استجوابي طويلاً، ومما قلته: "ان العلاقة بين السياسيين والمافيا كتبت في آلاف صفحات التقارير التي وضعتها اللجنة البرلمانية الانتي مافياوية Parliamentary Antimafia Commission. يوجد وثائق رسمية وكل انسان وانتم ايضًا يمكنكم الاطلاع عليها او مراجعتها. اخذت بيدي تلك المجلدات الثقيلة الوزن بما فيها التقريران الختاميّان اللذان وضعتهما اللجان البرلمانية الانتي مافياوية. سياسيون وصحافيون ومسؤولون في الجيش والأمن ومتعهدون وناشرون: كانت الاسماء متوافرة في المجلّدات بكثرة وأكثر مما يتطلبه التحقيق المباشر.

وفي اليوم التالي كتبت الصحافة الاشتراكية: "اورلندو، الذي يثير الجماهير و"المهرّج" كالمعتاد! يتكلم ويتكلم ويتكلم، ولكن أين الأسماء"؟ لا أسماء".

في تلك الاثناء اصبح العمل في ادارتي مضنيًا وشديد الصعوبة. ويومًا بعد يوم كان يصعب اتخاذ القرارات في مجلس المدينة، لأن المعارضين كانوا يعملون ما بوسعهم لافشال أي مشروع نقترحه أو نعمل له. وكانوا يعلّقون بالقول اننا نتكلم كثيرًا ولا نفعل شيئًا. كان الاشتراكيون يتشوقون للقتال في أي لحظة، ولكن غالبًا ما كانت تأتي المعارضة من داخل حزبي، ومن فرقة اندرييوتي الذي صوت للائحتي لأسباب حزبية، ولكنه ينفذ الاوامر، ويجعل حياتنا صعبة قدر ما يشاء بانتظار الفرصة المناسبة لاسقاطنا.

أصبح الجو سوريالياً عندما اكتشفنا ان سالفاتوري كنتورنو، المخبر الذي بدأ يبوح للسلطات بعد توماسو بوسيتا، والذي أدت اعترافاته إلى موجة عارمة من توقيفات المافيا، هو في بالرمو وليس في الولايات المتحدة حيث يمكث في ظل برنامج الحماية الاميركية. طاردت الشرطة غاييتانو غرادو Gaetano Grado، قريب كونتورنو وفريق منفصل مثله عن الكوزانوسترا. وكان غاييتانو متهمًا بأنه وراء سلسلة من الاغتيالات الثأرية لأعضاء تجمع الكورليونيين الرابح. عندما دخلت الشرطة بيت غرادو وجدوه وجهًا لوجه مع كونتورنو. وسرت شائعة تفيد أن الشرطة الجزائية اخذت علمًا بقرار كونتورنو بمغادرة الولايات المتحدة: لم تكن تعلم بوجوده في بالرمو وصقلية، وهو المكان الوحيد في العالم الذي يجب ان لا يدوسه في حياته.

وانتشرت في الحكومة ومكاتب الصحافة رسائل غير موقعة، كانت تلقي الاتهامات على جيوفاني فالكوني وزملائه جياني دي جينارو Gianni De Gennaro الذي عمل مع فالكوني وبورسيللينو ورودولف جيولياني ومكتب التحقيق الفدرالي الاميريكي، والذي عيّن رئيسًا للأمن الايطالي بعد سنوات، والذي استدعى كونتورنو "كقاتل دولي" ضد الكورليونيين. ورموا جيوزيبي آيالا Giuseppe Ayala بالاوحال، وهو مدّع عام سابق في المحاكمة الكبرى وصديق صميم وزميل لفالكوني. واكتشف ان الرسائل غير الموقعة" طبعت على آلة كاتبة في مكتب التحقيق القضائي. مرة أخرى يظهر أن العالم الرسمي يبذل جهده لتحطيم الثقة في الشخصيات المهمّة والأكثر شهرة في محاربة المافيا.

في هذا الجو المسموم، أتت إلى بالرمو في حزيران 1989 كارلا ديل بونتيه Carla Del Ponte، وكانت حينها مدَّعية عامَّة، واليوم تتبوأ رئاسة المحكمة الدولية للجرائم ضد الانسانية في لاهاي في هولندا.

كانت ديل بونتيه تعمل في التحقيق المعقّد ضد تبييض اموال المافيا من خلال المصارف في سويسرا. التقت فالكوني في مكتبه ليعملا صباحًا على درس قضية انتشار

المافيا في العالم، وليذهبا بعد الغداء للسباحة في بيت فالكوني الصيفي الذي استأجره على الشاطئ قرب مندللو Mondello. ولكن بعناية الهية استغرق اجتماعهما الصباحي وقتًا طويلاً، وتأخر خروجهما إلى الشاطئ. وقبل مرورهما المتوقع بقليل، رأى أحد مرافقي فالكوني كيسا للغطس على الصخور. وعندما فتحه وجد في داخله "رموت–كونترول" وخمسة وثمانين اصبعًا من المواد المتفجّرة تكفي لأن تحدث فوهة بركان كبيرة على الشاطئ.

عندما بلغني الخبر دعوت إلى اجتماع أدنت فيه هذه المحاولات الجبانة على حياة فالكوني. وعندما انهيت حديثي قال لي صديق جالس بقربي: "لوكا، لم تستعمل ابدًا في حديثك كلمة **مافيا**".

فأجبته: "بالطبع، هذه عملية سياسيّة بامتياز، السياسيّون يستعملون المافيا".

أكدّ فالكوني، بعد ثلاثة أسابيع، في مقابلة اجراها معه مراسل صحيفة *L'Unita* اقوالي: "نحن نواجه عقولاً قادرة وداهية تحاول ان تقود أعمال المافيا. هناك علاقة وطيدة بين رؤساء الكوزانوسترا ومراكز السلطة لغايات مختلفة... انا اتوقّع تكرار عملية تكون نتيجتها مشابهة لموت الجنرال ديلا كييزا... المخطوطة واحدة. يكفي ان يكون لنا عيون لنراها".

9

حركة "لاريتي"

خابرني فالكوني ذات صباح من سنة 1990، وطلب مني الحضور إلى مكتبه. عندما وصلتُ قادني إلى طاولة مدّ عليها خريطة غريبة لبالرمو. وضعت الخريطة بالاستناد إلى معلومات موجودة في دفتر قيود خبأه احد افراد عائلة مادونيا Madonia، وهي احدى العائلات القيادية في فرقة الكورليونيين. يحتوي هذا المستند على لائحة باسماء كل اصحاب المتاجر، وكل المتعهّدين، وكل ارباب المهن في بلدنا الذين يدفعون للمافيا اموالاً لحمايتهم، وكم كانوا يدفعون ولمن؟ على هذا الأساس وضع المحقّقون خريطة رسميّة قسمت المدينة إلى مناطق وعيّنوا مسؤولاً لمراقبة كل منطقة.

"الخُوّة" *Il Pizzo* هي التعبير المستعمل للمبالغ المبتزّة او المدفوعة كرهًا من المواطنين للمافيا. وهي مبالغ لا تذكر اذا قورنت بالأموال اتي تجنيها المافيا من المخدرات للمافيا. وهذه المبالغ "الخوّة" لا تؤدي دورًا حيويًا. تستعملها المافيا كطريقة لتثبيت الرقابة على ألارض وتعتبره المعادلة الجزائية للضرائب. بالرجوع إلى مخبري المافيا كانت هذه الأموال تدفع للمحامين الذين يدافعون عن الاعضاء الموقوفين وكرواتب للعائلات التي سُجن معيلوها أو قُتلوا. وهذا يضاهي تمويلاً جزائيًا للضمان الاجتماعي المافيويّ، ويشجع على قاعدة السكوت *code of omerta*. وغني عن البيان ان نقول ان

كل من يرفض الدفع يكون حسابه عند المافيا التي ستنتقم بتفجير محله أو مكتبه أو منزله وربما بحياة من لا يتجاوب، وهذا ما يسمّى امثولة المعارض.

بعد سنة من رؤيتي هذه الخريطة، كاد ليبرتو غراسي Liberto Grassi وهو رجل شجاع، ان يكون هو الامثولة. كان غراسي يملك محلاً صغيرًا في منطقة في بالرمو، يوجد فيها المافيويّون بكثافة، لم يرفض الطلب الملح للزعيم المحلي بدفع "الخوّة" المفروضة فقط بل رضي ان يظهر على شاشة التلفزيون، وينظر مباشرة إلى الكاميرا وان يقول: "مافيوزي، لا اريد ان ادفع الخوّة!" وطلب غراسي من كل رجال الأعمال في المنطقة الاقتداء به وذكّرهم بقوله: اذا كلّكم تمسّكتم بالرفض، اذا بقيتم كلكم مجتمعين ورفضتم الدفع ستكون المافيا عاجزة، وستكونون انتم اقل تعرضًا للخطر. ويومًا عندما كان خارجًا في الصباح الباكر لشراء جريدة، على بعد خطوات من منزله، رماه احد قتلة كوزانوسترا برصاصة في رأسه.

الخريطة التي اراني اياها جيوفاني فالكوني قبل سنة كانت مناورة لحماية المدينة، أي وسيلة لكسب المال بطريقة غير شريفة وغير مشروعة. ربما لم تكن المبالغ المتوجبة باهظة، ولكن الغاية منها ان يشعر كل انسان بأنه تحت سيطرة المافيا ومراقبتها. ولفت فالكوني انتباهي إلى ان بعض رجال الأعمال الناجحين وذوي الشهرة يدفعون بالنسبة لمداخيلهم. وهذا يعني أنهم كانوا من جهة واحدة مع الزعماء المنتصرين. رجل أعمال آخر صاحب "ورشة" صغيرة جدًا يدفع مبالغ طائلة. وهذا يدل على انه يتحدى المافيا، وقد افهمها انه لم يكن سعيدًا بدفع جزية الحماية هذه. من خلال درس دقيق **حول من يدفع، لمن يدفع، وكم يدفع** برزت لوحة مرعبة للمدينة. كنت في وضع غريب مغلوبًا على امري عندما قطع فالكوني المناقشة فيما بيننا، لأنه على موعد للاجتماع إلى جيوليو اندرييوتي Giulio Andreotti.

كان اندرييوتي رئيسًا للوزراء للمرة السابعة، وأتى إلى بالرمو لمقابلة سالفو ليما ورفاقه واتباعه، لإجراء المحاسبة فيما بينهم. بعد انتهاء المحاكمة الكبرى. بدأ اندرييوتي

بالرجوع "المبطن" لعمل صديقي الاب بنتاكودا، وسألني عن عمل جمعية "مدينة الانسان" City of Man organization، وقال: "اترك الكهنة يهتمّون بنفوسنا. الله اعطانا نعمة الدولة". ثم في اجتماع المجلس الاقليمي للحزب المسيحي الديمقراطي اتخذ القرار الحاسم، قرارًا يشجب عملي وعمل حكومتي "الشاذ".

ممارستي للحكم في الأشهر الاخيرة كانت شاقة جدًا، ولكن الآن مع هذا التطور أرى أنها اضحت مستحيلة. قدّمت استقالتي فقبلت للحال. آلاف التلاميذ والطلاب والمواطنين من كل الفئات والاعمار ساروا في الشوارع، واقتحموا بيازا بريتوريا Piazza Pretoria وكل الساحات القريبة والطرقات والممرّات. ورغم المطر الغزير، ورغم أنّ أهل بالرمو كالهررة لا يحبون المطر، وقف هؤلاء تحت نوافذ بالازو ديلي آكيل يصرخون ويقفزون ويغنون: "الذي لا يقفز يكون ابن اندرييوتي!"

انا ايضًا نزلت إلى الساحة، عندما رآني الجمع، زأروا كالأسود، فدوت أصواتهم. اخذني احدهم بيدي وأوصلني إلى وسط المتجمّعين، فشرعت اقفز مثلهم واقول: "الذي لا يقفز يكون ابن اندرييوتي".

برزت نتائج استقالتي في شهر آذار، اذ كنا نستعد لانتخابات جديدة، وصرحت بأنّني مرشّح من جديد.

كانت الأسابيع السابقة للانتخابات ملأى بالمناورات السياسية، ولكن عندما انظر إلى تلك الفترة اتذكّر حادثة لا علاقة لها بالانتخابات. سرق مجهول يقولون انه من الغجر تاج العذراء الفضيّ القديم من كنيسة الرعية، كنيسة سيدة اكواسنتا Acquasanta في منطقة تسمّى اكواسنتا.

عرفت بالرمو في تاريخها شعوبًا عديدة متنوّعة الاعراق والثقافات والاديان، وبقيت روحها رغم العنف الموجود فيها متسامحة تقبل الجميع. ربما يقول العاطل عن العمل: "نتمنّى الحياة الطويلة للمافيا"، او كما تعلَّم ان يقول في ربيع بالرمو: "نريد عملاً من الدولة لا من المافيا". ولكن لم نسمع، خلال سني خدمتي كمحافظ لبالرمو، احد

العاطلين عن العمل يقول لي: "ليس من الحق ان يكون له – وهو افريقي – عمل وان اكون انا الصقلي عاطلاً عن العمل". مشاكل صغيرة لا تذكر حدثت في الماضي مع المقيمين الرومان Romany، ووجدت الادارة حلاً لها. فقد اعطيت رئيس الطائفة الغجرية رقم هاتفي المنزلي لنبقى دائمًا على اتصال.

عندما علمت بسرقة تاج سيدة اكواسنتا Madonna of Aquasanta، اتصلت للحال برئيس طائفة روماني Romany، وأعلمته بأنني اعتبر سرقة كنيسة سيدة اكواسنتا اهانة لتاريخ ولمعتقدات شعب بالرمو. لم اسمع شيئًا منه لأسابيع، ثم في أحد أيام شهر آذار كنت استعد لمغادرة مكتبي حين كلمني هاتفيًا وقال:

"اذا كنت باقيًا في المكتب أريد أن أكلمك للحال."

التقينا في فيلا نيسيمي Villa Niscemi، واعطاني تاج العذراء الفضي بعد ان أخرجه من كيس كان يحمله. أعلمني أنه ارسل يطلب مساعدة لايجاده من كلّ طوائف الروماني في ايطاليا، والذي سرق التاج هو غجري من مجموعة روماني في فلورنسا قبض عليه عنصر من طائفته على الحدود الايطالية–الفرنسية. لو لم يتدخل رئيس طائفة روماني لذهب التاج، ولا شك، ليثري بعض تجار التحف القديمة في الخارج، كما حدث ذلك لكثير من ثرواتنا الفنية والأثرية، وبالتالي تحول يومها فشلي إلى انتصار. ففي كنيسة ازدحم فيها الناس، أعدت تاج السيدة العذراء إلى كاهن الرعية الذي قرع الاجراس داعيًا السكان المحليّين للحضور إلى الكنيسة وسماع رئيس الغجر يلقي كلمته.

| | |

ظهر اندرييوتي على التلفزيون عشيّة انتخابات آذار ليقول بطريقته الناعمة المعتادة، انه اذا سمح له ان يعطي صوته في بالرمو، فسيشطب اثنين من لائحة المسيحيين الديمقراطيين. انا بالطبع كنت الرقم واحد. ولكن بالرغم من هذا الحكم الصادر عن أعلى سلطة في الحزب والبلاد، نلت اكبر عدد من الاصوات من المرشحين لمنصب

المحافظ. بل هذا العدد لم يحصل عليه أي مرشح في السابق. الدعم لم يأتِ فقط من حزبي بل من الشعب الذي لم يسبق له أن صوت للمسيحيين الديمقراطيين. والنتيجة كانت عكس المنتظر: نال الحزب الديمقراطي المسيحي الاكثرية في مجلس المدينة لأول مرة.

أربك نجاحي الحزب، فليس له خيار ولا باستطاعته ان يعين ايّ شخص سواي لمنصب المحافظ. لكنهم يستطيعون، وربما أصرّوا على أن اؤلف مجلسي من اعضاء حزبي فقط. انتهينا من الحكم "الشاذ" حيث تشارك شلة من الخضر Greens والشيوعيين. اذا قبلت انا بهذا الامر فهذا يعني التخلي عن كل انجازات ربيع بالرمو الذي تم بالرغم من الديمقراطيين المسيحيين وليس بسببهم، والذي قام على تعبئة عدد كبير من التجمعات الاقطاعية التي بدأت تشاهد تأثيره الكبير على تجديد مدينتنا.

اذا رفضت، من جهة اخرى، ان اكون محافظًا فسيتهمونني بأنني استقلت من التزامي بتنقية الحزب المسيحي الديمقراطي، وبالتالي غدرت بروح بيرسنتي ماتاريلا الذي كانت هذه أسمى أهدافه. فروحه وأرواح الضحايا الشهيرة للسنوات العشر الاخيرة التي اغتالتها اشباح المافيا بالبنادق وبالسيارات المفخّخة وبواسطة اشباح السياسيين الذين نفّذوا عملياتهم لا من المخابئ بل من المؤسسات السياسية في بلدنا. فقرّرت ان أرفض الوظيفة كموقف رافض للعلاقة الحميمة بين زعماء المافيا والزعماء السياسيّين.

| | |

كان محافظ ترنتو Trento – مدينة في شمالي ايطاليا – صديقًا لي وسياسيًا جيدًا، وتهمّه ايضًا قضية محاربة المافيا وتحرير بالرمو منها. وصادف ان نظمنا اجتماعًا في مدينته دعا اليه كل الذين سئموا حكم المسيحيين الديمقراطيين والمهتمين بتحديث النظام السياسي. التقطت صحيفة ايطالية الخبر، ونشرته تحت العنوان التالي: "شبكة اورلندو تجتمع في ترنتو" "*Orlando's Network to Meet in Trento*". الكلمة

الايطالية التي تعني "*network*" هي "*la Rete*" "لا ريتي" أي "الشبكة"، وللحال اخترنا اسم لاريتي اسما لحركتنا.

قبل الاجتماع عرّجت على بيت أملكه في قرية سوريس Sauris الجبلية الصغيرة والواقعة على الحدود بين ايطاليا والنمسا. أردت ان أدوِّن بعض الافكار حول نوع جديد من السياسة. "لاريتي" La Rete (وتعني الشبكة) هي حركة تقوم أسسها على محاربة المافيا التي هي نقطة لقاء لمن يؤمن، كما نحن نفعل، بان المسرح السياسي الوطني مملوء بالفساد.

ولم أكد أُنهي مسودّة البيان حتى هب النسيم وبعثَرَ اوراقي على الارض. رأيت ذلك مناسبًا، لان الحركة التي أرغب في أن أُنشِئها لها بداية، ويجب ان يكون لها نهاية ايضًا. "لاريتي" يجب ان تعيش المدة المفروضة حتى بدء تغيير الذهنية في ايطاليا، وعندها يجب ان تنتهي. لم أشأ ان أؤسِّس حزبًا سياسيًا يكون بحضوره الدائم سببًا للمهاودة والمساومة. وبالفعل، في آذار 1991 التاريخ الرسمي لنشوء الحركة، سجلنا الاسم عند الكاتب العدل في روما مع النص التالي "لاريتي هي حركة سياسية نشأت لمدة معينة".

اخترت تاريخ 21 آذار، لان هذا التاريخ هو اول الربيع، وغايتي ان تتذكر البلاد ان "لاريتي" اخذت جذورها في ربيع بالرمو. ولكنها نشأت ايضًا من قصتي الخاصة كصقلي مسيحي ديمقراطي ترك الحزب، ومن تجربتي كمواطن من الجنوب نزع عنه نير المافيا، وتجربتي كسياسي يؤمن ان فساد الحزب والجريمة في صقلية تنشر العدوى في البلد بأكمله وتفسده.

بين الاعضاء الاخرين الذين أسّسوا "لاريتي" كان الفريدو غالاسو، المحامي اللامع الذي مثل عائلة ديلا كييزا في المحاكمة الكبرى والذي لم يدافع ابدًا في حياته المهنية عن المافيويّين. ومن اعضاء "لاريتي" ايضًا ناندو دالا كييزا، ابن الجنرال كارلو، وكان استاذًا للعلوم الاجتماعية في جامعة ميلان، وكان يقضي وقتًا طويلاً في صقلية،

وايضًا دييغو نوفللي Diego Novelli، محافظ توران Turin السابق الذي ترك حزبه ايضًا، لانه رأى ان الحزب غير معنيّ بمحاربة المافيا والفساد الذي تنشره. كان ايضًا كارلو بالرمو Carlo Palermo، ولم يكن صقليا بالرغم من اسمه، وهو مدع عام في ترنتو. فقد اقلقته المعلومات التي اكتشفها اثر تحقيقاته عن المخدرات وتجارة الاسلحة، والتي يتورّط فيها السياسيون الايطاليون وبالاخص الحزب الاشتراكي الذي كان يرأسه في ذلك الحين رئيس الحكومة بيتينو كراكسي. أزعجه الاشتراكيون وأنهكوه، فطلب كارلو نقله إلى تراباني Trapani في صقلية ليتابع تحقيقاته. ولم يطل الوقت حتى انفجرت قنبلة في سيّارته المصفّحة عندما كان قاصدًا مكتبه فنجا منها هو ومرافقوه. لكن المتفجّرة سبّبت موت امرأة مع طفليها، إذ صادف مرورها بسيارتها من هناك ساعة الانفجار، فتمزقت اجسادهم وانتشرت اشلاؤها على الطريق.

ودائمًا بقربنا طبعًا، كان الاب انيو بنتاكودا، ولكونه راهبًا لم يستطع ان يكون بين مؤسسي "لاريتي" الرسميّين، ولكنه كان مستشارًا لنا ومرشدنا الروحي. فمنذ سنة 1980، بقي الأب بنتاكودا إلى جانبي، يرافقني في المراحل المهمة من حياتي السياسية، وكان احد هؤلاء الذين يعلمون أنّ الحرب الجيدة هي بالأحرى دائمًا حرب طويلة.

وجود الاب بنتاكودا بيننا كان رمزيًا، لان "لاريتي" هي اوّل حركة تستطيع ان تخرج جماعة المؤمنين الكاثوليكيين الايطاليين من الحزب الديمقراطي المسيحي الذي كان منذ الحرب العالمية الثانية مركز ثقتهم. "الشروط الموضوعية" كما يحب قوله اصدقائي الشيوعيون تغيرت في ايطاليا. رأى المسيحيون الديمقراطيون سقوط جدار برلين، ومن ثم لاقوا حتفهم. كانوا في السلطة لما يزيد على نصف قرن، لانهم كانوا احد اقوى الحصون الغربية ضد الشيوعية، ولان الشعب في ايطاليا الذي كان يخاف حتى من شيوعية اوروبية لم يجد له بديلاً. ولكن في ذلك الوقت اصبح الحزب المسيحي الديمقراطي لاهيًا وغير مبال وفي آمان ذاتي، واشمأزّ منه الشعب الذي يؤمن بقيمَ اخلاقية قوية. الآن وقد انتهت الحرب الباردة، اصبحوا غير ضروريّين وغير محبوبين.

أخذت تجمعات "لاريتي" تنتشر في كل أنحاء البلاد، مع تمويل ذاتي، وانطلقت بنفسها دون أي مساعدة مادية. وكان اعضاؤها بمثابة جيش صغير من المتطوعين: شباب، ومتقدمين في السن، وسيّدات مهنيّات، وربّات منازل، ورجال غاضبين لأنهم يشعرون بأنهم خُدعوا، ومتقاعدين يصرخون: "كفى!"

أعارت الصحافة الوطنية اهتمامًا خاصًا كلّ ما كنت أقوله وأفعله عندما كنت أعمل من داخل الحزب الديمقراطي المسيحي. أما اليوم فباتت لا تعيرني أيّ اهتمام. لكن الصحافة الدولية التي رأت في انشاء "لاريتي" اول ظاهرة جديدة في السياسة الايطالية منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، كانت تهتم جدًا بتغطية نشاطاتي وأخباري. وعرف اندريا سكروزاتي Andrea Scrosati الملحق الصحافي الشاب في "لاريتي" ان يبلّغ الصحافة الاجنبية كل الأخبار التي يعتبرها ذات أهمية. وعندما كانت الصحافة المحلية تجد أن الخبر صدر على صفحات الصحف العالمية الشهيرة كانت تسرع لتلطقته وتنشره.

اول اختبار انتخابي خاضته "لاريتي" هو الانتخابات في المناطق للمجلس النيابي الصقلي في اواخر ربيع 1991. وقدر الخبراء أنّني على الاقل سأفوز انا شخصيًا بهذه الانتخابات، وسأكون وحدي، وربما سأضطر كذلك الى الرجوع إلى الحزب الديمقراطي المسيحي–الأم، أو أمشي مع حزب آخر موجود على الساحة. عملنا ليل نهار ندور ونجول مع مؤيدينا في كل صقلية. وعند صدور النتائج لم أنتخب وحدي بل فازت "لاريتي" بخمسة من اعضائها. الذين اطلقت عليهم الصحافة اسم "ريتيني" *Ritini*. دخلوا قصر بالازو دي نورماني Palazzo Dei Normanni، وهو القصر النورمان Norman الذي كان مقام اقدم برلمان في العالم، واليوم هو مقرّ المجلس الاقليمي في صقلية.

بعد هذا الانتصار قمت بزيارة للولايات المتحدة الاميريكية خطّطتُ لها من زمن. وقد بدأت زيارتي بشبه تمثيلية مضحكة بأخطائها. سبقني اندريا سكروزاتي إلى الولايات المتحدة لتدبير بعض التفاصيل مع الصحف الاميريكية اذ اصبح الناطق باسمي. سافرت

باسم مستعار كعادتي، فوصلت ولم استقبل على الطائرة، لأن الحكومة الايطالية، التي لا يزال يسيطر عليها الحزب الديمقراطي المسيحي، كانت تتجاهل وجودي كانسان. ولأن الولايات المتحدة كانت ثاني أكبر بلد للمافيا بعد صقلية، اعتُبِرَ أندريا مسؤولاً عندما لم اصل إلى الفندق. خابر رجال الأمن في نيويورك، وعندما اخبرهم عن اسمي المستعار وعن مركزي، ظنوا أنه قد دبّر لهم خديعة أو أنّه يستخف بهم. فوجد نفسه في مأزق، وخاف مما يجري وطفق يتّصل بكل الأرقام الهاتفية التي في حوزته في الولايات المتحدة. وأخيرًا وقع على شخص يعرف اسمي، ورآني في برنامج ستين دقيقة *60 Minutes* على التلفزيون. وأعلم شرطة نيويورك التي وضعت للحال برنامجًا مفصلاً لحمايتي ومرافقتي في كل وقت وأينما أكون.

خلال سفري هذا تكلّمت مع عدة منظمات اعلامية كبيرة. تكلمت عن صقلية وسياستها وعللها، واعطيت وجهة نظري في كيفيّة تحويل المافيا إلى ظاهرة دولية، لا صقلية فقط أو حتى اميريكية. فأصبح الجميع على علم بذلك ولكن عندما بدأت زيارتي كانوا يرون في اقوالي شيئًا جديدًا وغريبًا. عندما حذّرت من ان المافيا ككل المنظّمات ستفرّخ أو تنبت في الاتحاد السوفياتي وغيره من الدول، اتصل احد المحققين من صحيفة *USA Today* بمكتب الاستخبارات الفدرالي FBI الذي أكّد له اقوالي. وكان عنوان المقال في *USA Today*: "سياسي ايطالي يتنبّأ بأنّ المافيا ستصل إلى روسيا". ونقلت الخبر نيويورك تايمس والسي ان ان CNN وغيرهما من الوسائل الاعلامية.

عندما عدت إلى صقلية كان المسؤولون في وزارة الخارجية يوجّهون اليّ الانتقادات، معتبرين انني اسأت إلى سمعة بلدي، مما يدل على انهم لم يقدروا التأثير الكبير الذي تركته تصريحاتي واقوالي. بعد سنوات، وعندما استدعي جيوليو اندرييوتي ليعطي تقريره عن العلاقة بين المافيا وبين الحزب الديمقراطي المسيحي، صرح بأن مهمته اصبحت شاقة منذ 1991 بسبب زيارتي للولايات المتحدة الاميريكية.

| | |

وعندما بدأت "لاريتي" تظهر على المسرح السياسي الوطني، ترك جيوفاني فالكوني بالرمو، وكان قد يئس واشمأز من الاوضاع، فقرر ان يتسلم وظيفة مدير الشؤون الجزائية في وزارة العدل في روما، وبعدما تخطّاه مجلس القضاء الأعلى، اعتبر ان حياته في بالرمو اصبحت سلسلة من الذل والهوان. الهدنة التي دُعِيَ اليها بين القوات المؤيدة وتلك المناقضة لفالكوني في صيف 1988 حدّت من المشاحنات العامة، ولكن لم تحدّ من الحزن والألم الداخلي. حاول فالكوني ان يجد طريقة لمتابعة عمله ضد المافيا في صقلية، ولكنه اخيرًا اقتنع بأن الدولة تعطّل عمله وتشلّه. ولم يشأ الاستقالة بل بقي يعمل لوضع نظام يعطي الرسميين سلطة اقوى في تطبيق القانون تمكنهم من محاربة الجريمة المنظمة، وباشر الاتّصال ببعض الشخصيات الحاكمة في روما ليرى اذا كان ثمة مكان لأفكاره على الساحة الوطنية.

صقلّيون عديدون، وانا منهم، – كانوا في شك وارتياب. كنا نخاف من ان يستغلّ السياسيون في روما فالكوني، لأنهم كانوا في الباطن وخفية على علاقة مع المافيا. وعندما استقال ليأخذ وظيفة جديدة في روما، قرّر ذلك دون الأخذ بعين الاعتبار نصائح الاغلبية من اصدقائه بمن فيهم باولو بورسللينو. وكانت العلاقة بين الرجلين قوية، وكأنهما كانا يعلمان أن القدر سيجمع اسميهما إلى الأبد باسم مركب واحد. الآن يعارض باولو قرار فالكوني، لأنه يظن ان آخرة صديقه ستكون ميتة في وظيفة بيروقراطية، واكثر من ذلك لأن باولو كان شديد القلق على كبرياء فالكوني. ولأن فالكوني ككل أبطال المآسي الذين يتميزون بعزة النفس والكبرياء، ظن بفخر أنه يستطيع ان يحل كل مشاكلنا من الداخل. فأجاب بأن وزير العدل الذي قدم له هذا المنصب يريد فعلاً ان يعمل على التغيير. بهذه الفكرة التي اتخذها بنفسه، والتي كانت احدى حسناته وسيئاته في آن، غادر إلى روما في آذار 1991.

نحن الذين كنا ننتقد فالكوني وعمله في روما، لم نكن لنقدّر قراره باتخاذ منصبه الجديد. هو يعرف بتجربته كم هي جدية العوائق التي يصادفها الجسم القضائي المجزّأ عندما يتعلق الأمر بالتحقيقات مع المافيا، وبصورة خاصة عندما يتعرض لوحدة الكوزانوسترا. بدأ للفور يسأل القضاة أينما وجدوا عن مدى معرفتهم بنشاطات المافيا، كما فعل ذلك تجمع الانتي مافيا Antimafia Pool في بالرمو والذي نجح بمشاركته في التحقيقات. فايطاليا ككل يمكنها بنظره، اذا ما استعانت بتجمع وطني مشابه، ان تنجح بجمع التحقيقات عن المافيا. فكل مكتب في منطقة أو مدينة كان يتمسك لنفسه بشدة بالتحريات التي يجريها ولا يبلغها أيًّا من زملائه، مع ان هذه المعلومات ربما تساعد وتكون مفتاحًا لتحقيقات الزملاء الآخرين. وكذلك أراد فالكوني ان يعمل لما سمَّته الصحافة فيما بعد مكتب النيابة العامة للأنتي مافيا القومية *Superprocura Antimafia*، والذي تكون مهمته جمع المعلومات الواردة من التحريّات والتحقيقات عن نشاط المافيا في كل أنحاء البلاد.

حان الوقت للانتقال إلى خطوة ثانية. ان القرارات والأحكام الصادرة عن المحاكمة الكبرى سارت في طريقها نحو محاكم الاستئناف. خفضت بعض الأحكام دون ان يؤدي ذلك إلى أي فوضى كنا نتوقّعها ويخاف منها بعضنا. بقي على المافيا ان تَحْضَر أمام المحكمة العليا. فهنا تشعر المافيا ببعض الاطمئنان. فمنذ سنوات ورئيس الغرفة الاولى القاضي كورادو كارنيفالي Corrado Carnevale الذي سينظر في القضية معروف "بقاتل الاحكام" Sentence Killer، لأنه حاز الرقم القياسي بالغاء الاحكام الجرمية في قضايا المافيا. يذكّرني ذلك ما قاله لي مدعي نيابة عامة من تجمع بالرمو في كلامه عن المحكمة العليا: " نحن القضاة بشر ويمكننا كلّنا أن نقترف الاخطاء... ولكن من غير الممكن ان نكون كلنا دائمًا مخطئين!"

أخذت "لاريتي" تضغط على رئيس الجمهورية، وعلى رئيس مجلس القضاء الأعلى، كي يطبّق مبدأ المداورة، ويكون على رأس الغرفة الاولى قاض غير القاضي

كورادو كارنيفال. وازداد خوفنا عندما قتل القاضي انطونيو سكوبيلليتي Antonio Scopelliti في آب 1991، وهو يُمضي عطلته في كالابريا Calabria. سكوبيلليتي، ويقال له "الذي لا يستطيع احد الاقتراب منه" unapproachable عُيِّن لتوِّه مُدَّعيًا عامًّا للمحكمة العليا في قضية المحاكمة الكبرى. وفسّر اغتيال سكوبيللتي بأنه تخدير. ونسب عمل الارهاب هذا إلى كوزانوسترا.

في كانون الثاني 1992 اعلنت الغرفة الاولى في المجلس الاعلى في روما حكمها التاريخي مؤيدة العقوبات مدى الحياة ومئات السنين من السجن الصادرة عن المحكمتين السابقتين. والأهم ان المحكمة أثبتت المبدأ بان كوزانوسترا لم تكن فقط مجموعة من المجرمين العاديين، ولكن مجموعة اجرامية مرتبطة بهرمية واصول ومصالح مشتركة.

لقد اجتزنا حاجزًا. واعلمنا مخبر مافيويّ آخر اسمه غاسبار متولو Gaspare Mutolo فيما بعد انه عندما اعلنت المحكمة العليا قرارها، سلَّم عشرات المافيويّين العاديّين انفسهم مع كفالات عالية. كانت الطريقة الوحيدة التي يعرفونها للانتفاض ضد ريينا الذي يعتبرونه مصابًا بمرض نفسي لأنه كشف الستار الذي كانوا وابناء جنسهم يختبئون وراءه ويعتمدون عليه.

| | |

ابتهجت "لاريتي" من قرار المحكمة العليا. وكنا في خضم أول معركة انتخابية وطنية ستجري في الربيع القادم. حُضِّر حادث غريب لهذه المعركة بعد اسبوعين من اصدار قرار المحكمة العليا، وهو أنَّ موظفًا بسيطًا في الحزب الاشتراكي يدعى ماريو كييزا Mario Chiesa اوقف في ميلان، أوقف بالجرم المشهود يقبض رشوة قدرها سبعة آلاف دولار اميريكي. كان هذا في ايطاليا مشابهًا للوترغيت Watergate. عندما استجوب كييزا أقر بأن له في المصارف السويسرية عشرة ملايين دولار اميريكي قبضها كرشوات. على أثرها أنشأ مكتب المدعين العامين في ميلان تجمّعًا منهم اطلقوا عليه اسم "تجمع الايادي النظيفة" Clean Hands Pool. وتبين لهم بنتيجة التحقيق ان ما كانوا يعتبرونه في الأساس جريمة صغيرة، كشف عن نظام متكامل من الرشوة والفساد يمتد إلى قمة الحلقة السياسية والمالية الايطالية. وكان رئيس الاشتراكيين بيتيتو كراكسي وآلته السياسية متورطين في العمق في القضية، وكذلك المسيحيّون الديمقراطيّون.

مع توقيف كييزا بدأت اسطورة ترافقت مع جهود الانتي مافيا في صقلية. وخلال السنتين التاليتين كنا نرى أشهر رجال السلطة في البلد الواحد تلو الآخر يتهم بقبض الرشوة و"البرطيل" وابتزاز الأموال. واكتشفنا ايضا ان كل الشركات الكبيرة والصغيرة التي كانت متعاقدة مع الادارات تدفع نسبة مئوية معيّنة من الرشوة. واصبح معلومًا عند المواطنين الايطاليين كيف ان كل الاشغال العامة تكلف مرتين أو ثلاثًا أكثر من التكاليف المتوجبة، وكيف ان ملايين الدولارات ذهبت إلى جيوب خاصة على حساب خدمة الصحة العامة، وكيف ان توفير الخدمات باهظ الكلفة وأعلى بكثير مما يجب ان يكون بسبب هذا النظام السياسي الفاسد. كنا نرى على التلفزيون سياسيًّا تلو الآخر يتلعثم ويقول عند استجوابه امام المحكمة: "لا أتذكر" أو "نسيت".

هذه التحريات أودت بحياة الحزب الديمقراطي المسيحي الذي تشرذم وانقسم إلى اثني عشر حزبًا سياسيًا، وأدت إلى حل الحزب الاشتراكي نهائيًا لأن رئيسه "الكلّيّ القدرة"

كراكسكي التجأ إلى فيلّته في تونس حيث أعلن عن نفسه لاجئا سياسيًّا و"مضطّهدًا" بالقانون الايطالي.

بدأ النظام كله ينهار، ومع النظرة المعمّقة إلى الفساد وانهيار الامبراطورية السوفياتية، ولّت ذهنية السلطة الوطنية والتدابير التي تبنّتها سرًّا وشرّعتها للمافيا. فرأيت امكانية "لاريتي" ان تخطو في الفراغ السياسي الذي خلفته ممارسات الفساد. جلت في البلاد باسرها، وباستمرار من الشمال إلى الجنوب وأنا أحاضر في الساحات ودور الكنائس ومراكز الطلاب. لقد تأكّد الشعور بأننا سنربح الدعم عندما طلبت أن أظهر على التلفزيون الوطني في 12 آذار لأول مرة بصفتي أمينًا عامًّا لـ "لاريتي". ولكن في تلك الأمسية لم يفسح لي مجال التكلم عن حركتنا. كل الأسئلة تركّزت على اغتيال جديد في بالرمو.

ترك سالفو ليما وهو عضو في البرلمان الاوروبي وعميل الحزب الديمقراطي المسيحي في صقلية فيلته في منديللو عند الثامنة والنصف صباحًا مع صديق له للقيام بحملة انتخابية. كان عليه ان يجري مقابلات عديدة بصورة خاصة لأن زعيمه السياسي، جيوليو اندرييوتي، سيزور صقلّية بعد أيام قليلة. لم يكد ليما ينطلق حتى لحق به رجلان يركبان درّاجة هوائية وادركاه، فسحب الدراج الخلفي مسدسًا وافرغه على عجلات السيارة. عندما توقّفت السيارة ترجّل الدرّاجان وقد غطى وجهيهما طنف القبعات واستدارا قصدًا. قفز ليما والرجل الآخر خارج السيارة وهرولا هاربين خوفًا على حياتهما. ولكن القتلة تجاهلوا عمدًا رفيقه الذي اختبأ وراء عربة مطروحة جانبًا، وافرغوا مسدّساتهم في وجه ليما وصدره، وما هي إلاَّ دقائق حتى كان قد فارق الحياة.

كان هذا زلزالاً من اغتيالات رجال القانون والسياسيين الذين عارضوا المافيا. ليما لم يكن فقط زعيم منطقة بكاملها وعضوًا في البرلمان الاوروبي ليطرد، بل كان ايضا صديقا للمافيا. فقتلُه هو جواب كوزانوسترا على قرار المحكمة العليا، وردة فعل على ما يعتبر نكثًا للعلاقة مع الديمقراطيين المسيحيين. فالسياسيون الذين تحالفوا معهم طوال هذه

السنين رفعوا عنهم هذه الضمانة. قال بنتيتو غسباري ميتولو Gaspare Mutolo *Pentito*: كان ليما "الرمز الأعلى" للذين نالوا اصوات كوزانوسترا، ولكن لم يحموا مصالحه في تأييد محاكمته الأكثر أهمية.

اغتيال ليما يدل على ان الوضع الدقيق القائم قد زال، والآن يمكن أن يحدث أيّ شيء.

تكلمت هذه الليلة على التلفزيون عن التطور الثقافي في ايطاليا، وعن المستقبل الذي تنظر اليه "لاريتي"، وأردت ان أظهر أن مثل هذه الاشياء ممكنة فقط، اذا حُرِّرت ايطاليا من الوباء الذي حلّ على ارضها. استنكَرْتُ الجريمة الوحشية، ولكني ذكَّرت محادثي ان هذا الرجل كان ضامنًا للنظام السياسي–المافيويّ. بعد يومين كان جيوليو اندرييوتي مقابل نعش سالفو ليما يحضر جنازته. فعلق باولو بورسيللينو بقوله إن المافيا قتلت ليما كإنذار على عتبة منزل اندرييوتي. وبالفعل التقط رجال الأمن اشاعات مفادها ان ابن اندرييوتي استهدف ايضا بعملية اغتيال.

| | |

في نيسان 1992 جرت الانتخابات الوطنية. فنالت "لاريتي" اثني عشر نائبًا للبرلمان وثلاثة اعضاء لمجلس الشيوخ. واعتبر هذا بداية في بلد حيث نيل 2 أو 3 بالمئة من الأصوات يُعَدّ انجازًا مهمًا.

شعرت باننا نعيش عهدًا من الرموز والعجائب، ومع اني لست معجبًا كثيرًا بسفر الرؤيا، أشعر بان السماء السابعة يمكن ان تفتح في كل حين.

10

جيوفاني وبورسيللينو

في 23 ايار 1992، كنت في لقاء نَظَّمتُهُ لِ "لاريتي" في آسيزي، المدينة الجميلة مدينة العصور الوسطى، حيث ولد مار فرنسيس، وحيث الطرقات الضيقة تستمر بنشر رسالة السجوّ والسلام. لم نكد نبدأ اجتماعنا حتى كلّمني هاتفيًا مساعدي الخاص من بالرمو يعلمني بان قنبلة انفجرت في مكان ما على الجادة بين مطار بونتا ريزي والمدينة. كان يكالمني من بيته الصغير حيث يقضي عطلته الاسبوعية مع زوجته في كاباتشي Capaci على شاطئ البحر، وقال انه سمع الانفجار. كان الخبر غير رسمي، وكأنه يقول ان اشاعات وردته ان سيّارة مدّع عام أصيبت بالانفجار. طلبت منه أن يبقى معي على اتصال، وأن يفيدني بدقائق الخبر، وبدأت اجتماعي يتملّكني جزع عميق وقلق.

بعد دقائق دخل ضابط في الشرطة صالة الاجتماع، وأشار اليَّ يريد ان يكلّمني. وللحال أنهيت الاجتماع وسألته ما الخبر، فكان الخبر المرعب: شرذمة من عسكر المافيا زرعت متفجرة قرب منعطف كاباتشي، فقتل في الانفجار جيوفاني فالكوني وزوجته فرنسيسكا مورفيللو Francesca Morvillo وثلاثة من المرافقين.

عدت إلى روما، وبقيت الليلة هناك اتصل هاتفيًا، وانظر إلى الفاجعة والصور المروعة على التلفزيون والمعدن الملتوي "الذي كان سيارة"، والفجوة في الارض وكأن طائرة حربية قد سبَّبتها، والخبر القائل ان فالكوني لقي حتفه فورًا، بينما زوجته التي نقلت إلى المستشفى استفاقت بعد انعاشها لتسأل: "أين جيوفاني؟". ومن ثم توفِّيت على طاولة الجراحة. فكرت في التقدم الذي

احرزه فالكوني في روما: أسس نيابة عامة للمافيا Superprosecutor، وأنشأ مؤسسة في ايطاليا شبيهة بمكتب التحقيق الفدرالي في اميركا FBI ، مُحرِّكًا بذلك العراقيل القضائية التي تمنع قرارات المحكمة العليا في روما اكثر مما كان في بالرمو. لقد اصبح فالكوني آفة تؤلم المافيا وتزعجها. فدفع غاليًا ثمن اصراره على الذهاب إلى روما رافضًا نصيحة كل الأصدقاء، وذلك وفاء بعهده، وها هو الآن هذا العهد قد جعل من جسده اشلاءً.

كان اغتيال فالكوني يعني للمافيا وللسياسيين المرتبطين بها اكثر من القضاء على عدو. كان أيضًا تهديمًا لرمز، والرموز يجب ان تهدم بطريقة رمزية. كان أسهل لفالكوني ان يقتل في روما، حيث تمتّع بشيء من الحرية خلال الأشهر القليلة المنصرمة، اذ كان يدعو بعض الأصحاب إلى شقته (شربوا الشمبانيا ليلة اتخذت المحكمة العليا قرارها ونادوا بالنصر لبورسيللينو وآخرين في صقلية)، واستفاد من بعض الفرص التي سمحت له بأن يهرب قليلاً مع زوجته لتناول العشاء أو لحضور فيلم سينمائي على انفراد. ولكن المافيا ارادت ان تثبت قوتها بعد الخسارات المتعددة التي منيت بها. ارادت المافيا ان تبرهن بقتل جيوفاني فالكوني، الرمز الاول للأنتي مافيا في صقلية، انها هي التي تمسك الأمور وليس الدولة.

ولم تلبث تفاصيل الجريمة ان وصلت: مئة كيلو من المتفجرات وضعت في مجرى ماء صغير وجاف يمر تحت الجادة حيث اضطر دراج فالكوني للمرور في عودته من مطار بالرمو. وصل فالكوني وزوجته في طائرة أمن وللحال امتطيا السيارة التي تنتظرهما على ارض المطار. وكان هناك ايضا مافيوي ينتظر، وعلى اتصال مع مطار دا فانشي Da Vinci يستعمل هاتفًا خلويًّا لاعطاء العلم عند انطلاق وفد فالكوني ودراجيه من المطار. والشيء الذي لا يعرفه أحد هو أن فرنسيسكا يزعجها صحيًّا ان تكون في سيارة الفيات المصفحة، فاختارت ان تجلس في المقعد الأمامي ولأن فالكوني فضل ان يكون قربها، قاد السيارة بنفسه وجلس سائقه في المقعد الخلفي.

دبر فريق الموت في كوزانوسترا كل شيء بأسرع من لمح البصر. وضعوا حطام براد قديم على جانب الجادة لاستعماله كإشارة عند دفع الزر في المتفجرة التي وضعت تحت الطريق. رجال مرتدون لباس عمال الطرقات تدربوا بسيارات سريعة ليحتسبوا بدقة متى يجب اثارة الانفجار

او بعثه. ثم انتظروا على تلة مقابل قطعة ظاهرة من الطريق، بعد ان قطعوا بعض الأغصان من اشجار الزيتون العالية القريبة من الطريق ليوفّروا لهم رؤية أفضل.

قال سائق فالكوني، جيوزيبي كوستنزو Giuseppe Costanzo الذي نجا بأعجوبة من هذا الانفجار، انه في طريقه سأل فالكوني قائلاً: "دكتور، هل تحتاج إلى السيارة ثانية بعد عودتنا؟"

فأجابه فالكوني: "كلا، أراك في الغد".

فقلت له: "دكتور، عندما نصل لا تنسَ أنَّ مفتاحي هو في السيّارة".

وكأنه اصاب فالكوني "شيء من الجنون" كما يقول كوستونزو وللحال سحب المفتاح من السيارة، والتفت إلى الوراء كأنه يعطيني اياه.

فقلت له: "دكتور، بحق السماء، ماذا تفعل؟ ستقتلنا جميعًا!"

بسبب هذه الحركة العفوية، خفّت سرعة السيارة عندما كنا نمر بجانب حطام البراد، وهذا وقع على بعد امتار قليلة من حسابات المفجّرين. فالانفجار المركز الذي كان يقصد ضرب سيارة فالكوني مباشرة من اسفل، الجزء الوحيد من السيارة المصفحة المعرَّض للاصابة، ضرب مقدم سيارة المرافقين الثلاثة والنصف الأمامي من سيارة فالكوني. لم يعد السائق يتذكر أي شيء آخر. استيقظ في المستشفى محطمًا نفسانيًّا ومعطوبًا جسديًّا ولكنّه حي.

وقعت الأخبار على الأمة الايطالية بكاملها وقوع الصاعقة، فقبل عشرة ايّام حاول اعضاء المجلس النيابي ومجلس الشيوخ معًا انتخاب رئيس جمهورية جديد لأنّ ولاية كوسيغا قد انتهت. وكانت النتيجة فيتو (بالجمع) وفيتو مضاد (بالجمع) على كل الأسماء المقترحة تعطل الانتخاب وتشله وتترك في نفس الأمة شعورًا بالحقارة وعدم القدرة والعجز. بدأت "عملية الأيادي النظيفة" Operation Clean Hands ترفع الغطاء عن بؤرة الفساد في الشمال، والروائح الكريهة سيطرت في كل مكان. وفي اليوم التالي لاغتيال فالكوني، احتشد في ساحة مونتيسيتوريو Piazza Montecitorio الكبيرة المواجهة للبرلمان في روما المتظاهرون غاضبين لموت بطل وطني، ومستنكرين سياسة الانحطاط والفساد التي فتحت المجال وسمحت بحدوث هذه الجريمة.

يوم الاثنين صباحًا، لمرة أخرى، احتشد شعب بالرمو حول كنيسة سان دومينيكو تمامًا كما فعل منذ عشر سنوات في مأتم كارلو البرتو دالا كييزا. اليوم يقف الناس لموت فالكوني

وزوجته ومرافقيه الثلاثة، كما في السابق ايضًا، كان الجو مشحونًا بالغضب وكلما اخترق احد السياسيين القلائل الذين كان لهم جرأة الحضور تنهال عليه شتائم الحشود، فيسرع بين صفَّي رجال الأمن ليجلس مكانه في الكنيسة. وتمامًا كما كان منذ عشر سنين، عندما كان صوت كاردينال بالرمو بابالاردو يطلق الاتهامات، اليوم صوت صقلي آخر دخل كل بيت ايطالي عن طريق الراديو والتلفزيون. كان صوت روزاريا شيفاني Rosaria Schifani، أرملة الثلاثة والعشرين عامًا، ارملة احد مرافقي فالكوني والتي عبّرت عن ألمها وحزنها أمام المذبح.

كانت روزاريا هيفاء القامة، سوداء الشعر والعينين، جميلة الوجه، كثيرة الشبه بعذراء صقلية حزينة. وخصوصًا عندما كانت تلفظ بكلمة "دولة" في رثائها لزوجها، وتكررها بيأس وازدراء لا متناهيين: "باسم كل الذين سقطوا فداءً للدولة... نعم... للدولة، اسأل قبل كل شيء... العدل... الآن... أُطلق نداء إلى رجال المافيا... لأنهم هم هنا، ولكنهم بالتأكيد ليسوا مسيحيّين... يجب ان تعرفوا ... انه لكم ايضا يوجد امكانية السماح... انا أُسامحكم... ولكن يجب ان تجثوا امام الله !"

وقف رئيس فالكوني القديم، انطونيو كابونيتو وصديقه باولو بورسيللينو معًا كالأب وابنه في الكنيسة. كان كابونيتو يتفرس بالتابوت وعيناه مغرورقتان بالدموع، وبدا على وجه بورسيللينو ونظراته الغيظ والغضب. أنا وناندو دالا كييزا، وكلانا انتخبنا مؤخرًا عضوان في البرلمان الوطني، لم نشأ ان نلتقي السلطات في داخل الكنيسة، بل بقينا خارجًا وسط حشود المواطنين وقد استولى عليهم الغيظ والغضب. بعد الدفن، استقللنا الطائرة إلى روما حيث اجتمع مجلس النواب ومجلس الشيوخ لانتخاب اوسكار لويدجي سكالفارو Oscar Luigi Scalfaro رئيسًا تاسعًا للجمهورية. وفي اليوم التالي، وقبل ان يقسم سكالفارو اليمين، أتى إلى بالرمو ليؤدي التحية لجيوفاني فالكوني وفرنسيسكا مورفيللو ومرافقيهم الثلاثة. وطلب ان أكون هناك بجانبه.

كانت ردّة الفعل في بالرمو غيرها في أي مرة أخرى، فالنساء كنّ يقدن الحملة هذه المرة. لكل امرأة صقلية وخصوصًا لربات المنزل، غطاء السرير يمثل شيئًا حميمًا وخاصًا جدًّا. فنشرت الأغطية البيضاء على كل الشرفات في كل المدينة، ورسمت عليها شعارات بالدهان الأحمر، وكأنه بدم فالكوني. من تلك الشعارات: "المافيا إلى الفناء!" و"نريد الحق والعدل!" و"فالكوني حي!". وكذلك رأت النور "لجنة أغطية الأسرة" Committee of the Sheets.

هذه الأعلام البيضاء لم تكن لتدل على المهادنة، بل على المحاكمة والعقاب. هذا يدل على ان العائلة في هذا البيت ليست خائفة من اظهار تضامنها علنًا مع فالكوني، وانها ضد المافيا. في البدء كانت الأغطية قليلة ولكن تضاعفت مع الأيام– حتى في معاقل المافيا مثل برونكاكسيو، حيث يلزم كثير من الشجاعة ليعلن احد عن قناعاته. وعندما مشت سيّدات الاغطية في تظاهرات، تصرخ امام النوافذ المقفلة كان يُفتح شق أحيانًا وتمتد يد امرأة لتلوح بغطاء طاولة أو منشفة أو أي شيء آخر ثم تسحبه. وصلت الرسالة: مَنَع بعض الرجال النساء في الداخل من نشر الأغطية، ومع ذلك وجدت طريقة للتعبير عن تضامنها.

بالقرب من مدخل البناء حيث يسكن فالكوني، انتصبت شجرة بنيان ضخمة. اسم الشارع نوتاربارتولو Notarbartolo، وهو اسم امانويل نورتاربارتولو Emanuele Notarbartolo الذي اغتيل سنة 1893، وكان أول جثة مشهورة في صقلية. مرة أخرى، وبكل عفويّة، باشر الشعب يأتي بالازهار ويضعها على جذع الشجرة، ومع الأزهار وضع بعضهم مقالاً صغيرًا، أو قصيدة، او بعض الكلمات، مع صورة شمسية سمرها على جذع الشجرة: "شكرًا يا جيوفاني. سنتابع القتال، قتالك. سوف لا ننسى جيوفاني، وفرنسيسكا، وفيتو، وانطونيو، وروكو". كل الكلمات حملت تواقيع. اعتراضات المافيا غير الموقّعة رفضت بكاملها.

أحدهم ثبَّت ورقة على الشجرة، وكتب عليها: "اليوم انبثق فجر سوف لا يغيب". كانت ردة الفعل تختلف تمامًا عن علامات اليأس والاحباط التي تلت اغتيال دالا كييزا منذ عشر سنوات خلت: "هنا دفنت آمال أهل بالرمو الشرفاء".

أطلق على شجرة البنيان هذه اسم "شجرة فالكوني"، واصبحت اليوم محجًّا.

| | |

في 23 من حزيران، وبعد شهر واحد على حادثة كاباتشي، نظمت سلسلة بشريّة لعبور بالرمو تمتد رمزيًا من مكتب المدعي العام، وتمرّ بالشوارع وسط المدينة لتصل إلى "شجرة فالكوني". ألوف المشاركين أخذ بعضهم يدًا بيد في شهادة صامتة لقرارهم "لكي لا ننسى". والأهم من هذا ليؤكدوا للمافيا "انهم موجودون" اليوم. بعد كل هذه السنوات من الاستعداد المدني اصبحنا قوة يحسب لها حساب.

بعد يومين، وعند المساء، نُظِّمت مناقشة في قاعة مكتبة البلدية الملاصقة لكنيسة كازا بروفيسيا Church of Casa Professa، حيث التقيت مع الأب انيو بنتاكودا وقدماء مدرسة غونزاغا، أتراب السنين الأولى يوم كانت المافيا كلمة نكاد نتعلّم ان نستعملها. وردت على جدول المتكلّمين اسماء عديدة: أنا وناندو دالا كييزا والأب بنتاكودا و آخرون. ولكن في هذه القاعة المكتظّة توجّهت الانظار نحو باولو بورسيللينو، وقد عاد إلى مكتب النيابة العامة في بالرمو للأشهر القليلة المنصرمة، بعد اعطائه الضمانات والسماح له بالاستمرار في إجراء التحقيقات عن المافيا، وبصورة خاصة في مقاطعتَي اغريجنتو وتراباني اللتين يعرفهما أكثر من أي شخص آخر، وكانت هذه المشكلة تراوده كوسواس. ولكن بعد موت فالكوني، كما قال اعضاء عائلته وزملاؤه فيما بعد، كان يعمل على هذه القضية بحماس واضطراب، وكأنه يعلم ان عليه ان يعمل بسرعة لأن ايامه اصبحت معدودة.

وصل متأخرًا، وكان الاجتماع قد بدأ، ولكن عندما دخل محاطًا بمرافقيه، بدأ التصفيق واستمرّ لحين جلوسه. هذا التصفيق كان اقتناعًا انه بموت فالكوني، اصبح بورسيللينو على رأس لائحة المطلوبين من المافيا. وقيل فيما بعد ان بورسيللينو كان يقول لعائلته من زمن بعيد "سيقتلون جيوفاني أولاً ثم سيقتلونني". هذا المساء تناول الكلام دون اللجوء إلى أي ورقة مكتوبة. وكالعادة، تميَّز كلامه بحسن البلاغة اكثر من أي مرة، إلى درجة أنّه ترك عند جميع الحاضرين الشعور بأن هذا اللقاء كان من أهم اللقاءات العامة التي اختبروها. لم يتكلم باولو كثيرًا عن تحقيقاته الشخصية في حادث اغتيال صديقه جيوفاني، ولم يذكر المحادثات حول ذهابه إلى روما لاستلام منصب رئيس النيابة العامة للمافيا ويحل محل فالكوني. تكلم بعزم وغضب وحزن عندما تناول في حديثه السنوات الاخيرة لعمل جيوفاني وحياته، ومن غير وعي كان يضرب على الطاولة "بالقداحة" عندما تكلم عن "هؤلاء يهوذا" الخونة بين زملائه الذين غدروا بفالكوني. لمرات ومرات اخرى كان التصفيق يعلو، وبكى كثير من الحاضرين وهم يعيرون السمع بانتباه. عندما انتهى من

كلامه، نهض الحاضرون جميعًا عن كراسيهم يصفّقون وكأنهم لا يريدونه ان يغادر. وشعرت في هذه اللحظات، ككثيرين آخرين، بأن هذا التصفيق الغزير كان تصفيق وداع لرجل نعرف كلُّنا انه محكوم عليه بالموت. وعندما وقف ينظر إلى الحضور، كان في نظراته شيء من الغرابة، والاقتناع باد على وجهه وكأنه يعرف ذلك هو ايضًا.

| | |

في الأسبوع التالي، كنت في شقتي الصغيرة التي استأجرتها في قلب روما بالقرب من البانتيون Pantheon، وهي لا تبعد إلاّ قليلاً عن البرلمان. استأجرت هذا المسكن عندما انتخبت عضوًا في البرلمان عن "لاريتي" وأحببته للحال. ما تكاد تخطو خطوة خارج الباب حتى تجد نفسك أمام ألفي سنة من التاريخ، وفي نفس الوقت مغمورًا بحيوية وحياة القرن العشرين. كان الوقت متأخرًا من الليل، وكنت انتظر ساعة اللجوء إلى السرير عندما دخل المرافقون واقتحموا الغرفة قائلين:

"هيّا! هيّا! بسرعة، يجب ان تأتي معنا الآن. الخطر يداهم. لا وقت للضياع!"

وأسرعت كما أنا إلى سيارة الأمن، وذهبت سريعًا إلى ثكنة الشرطة.

وصلتهم اخبارية بأن الأمر قد أعطي لقتل بورسيللينو واورلندو، وظنوا انه ربما يُحضَّر لهجوم مسلّح ضدي هنا في وسط روما التاريخي. ومن تلك الساعة لم يُسمح لي بتاتًا بأن أضع قدمَيَّ في هذه الشقة الجميلة. لباقي الوقت كنت نائبًا في البرلمان، ومنذ تلك الليلة اصبحت ثكنة الشرطة مكان اقامتي.

وكذلك بدأ الانتظار المرهق، وكنا على أعصابنا. من يكون التالي؟ ومتى؟ تكلّمت مع باولو مرات عديدة خلال الأسبوع على الهاتف. وكل مرة كنا نتحدّث بمودة كبيرة، معظمها مخابرات عاطفية، ولا أحد يعرف غيرنا اذا كان هناك أحاديث أخرى. أُنذرنا للتحدث بالرموز في المواضيع المتعلقة بالأمن، وكنا يقظين، ولكن في بعض الاحيان كان باولو يسترسل في الحديث وينسى هذه التعليمات، وكذلك فعل يوم تكلّمنا للمرة الاخيرة. كَلَّمْتُهُ على هاتفه الخلوي نهار

الأحد، لأنني كنت بحاجة إلى الاجتماع به. فأجاب: "انا في طريقي إلى بوتا ريزي... انا ذاهب إلى المانيا... عند عودتي سأخابرك واجتمع بك".

فحاولت مقاطعته قائلاً: "باولو! لا اريد ان أعرف إلى أين انت ذاهب، ولا أريد أن أعرف متى تعود! كلِّمني فقط عندما تسمح لك الظروف".

بعد اسبوعين كنت في فيبو فالنزيا Vibo Valenzia، وهي مدينة في جنوبي منطقة كالابريا Calabria، حيث عقدنا جمعية عامة دامت يومين لكل مكاتب "لاريتي" في تلك المنطقة، وعملنا على بناء هذه الحركة وتقويتها. لأن المافيا في كالابريا، واسمها ندرنغيتا Ndrangheta، كانت قوية وقديمة الجذور في محاولتها تحريك الضمائر، وحمل المجتمع المدني على الوقوف بوجه النظام السياسي وفساده. عند عودتي إلى الفندق أتى قائد الشرطة وقال لي بشدّة: "لا يمكنك التحرّك من هنا. أُخْبِرُنا في هذه الدقيقة بأن هجومًا بالمتفجّرات دوَّى في بالرمو".

لا شيء آخر، ولا خبر. ماذا حدث؟ أين؟ من؟ لا خبر. أدخلوني غرفتي ووجدت نفسي بين اثني عشر من رجال الأمن – أو ما يقارب هذا العدد – واقفين في الممر. الخبر الأول الذي وصل إليَّ هو غيمة كبيرة من الدخان الأسود في محيط منزلي. بعد دقائق قليلة انتقل المكان إلى محيط منزل المدعي العام جيوزيبي آيالا. وضعت يدي على قلبي وخابرت المنزل سائلاً:

"ميللّي، بحق السماء، أخبريني، ماذا يجري؟" صوتها أراحني وأغاثني.

وأخبرتني انها كانت في سيارتها عندما سمعت انفجارًا قويًّا جدًّا، تظن انه آت من اتجاه فيا اميليو Via d'Amelio. وبعد ذلك بقليل، بعد أن أقفلت الهاتف، وصلني الكلام النهائي. كان باولو!

سترافقني كالكابوس هذه الأمسية وهذه الليلة طالما انا على قيد الحياة. سألت اذا كان باستطاعتي ان أذهب على الفور إلى بالرمو، فقيل لي: "تستطيع ان تبرح مكانك". حتى ولو ارادوه، لم يعرف رجال الأمن كيف يخرجونني من فيبو فالنزيا لأن اخبارية وردتهم بوجود سيارة مفخّخة على طريق لاميزيا تيرم Lamezia Terme وهو المطار الأقرب. فبقيت هنا لساعات، سجينًا في غرفتي في الفندق. كل محطات الارسال قطعت برامجها. وكانت محطة التلفزيون الوطنية RAI تنقل الفاجعة بكل بشاعتها: سيارات تحترق ولهيب، ودخان كثيف اسود، وشبابيك

"مشلَّعة" ومكسَّرة، الدم في كل مكان، رجال الإطفاء مذهولون ووجوههم واجسادهم قد اسودّت من الحرائق، واشلاء اجساد مغطاة بالشراشف. نعم! جحيم دانتي.

بعد ساعات عديدة قرّر احدهم ارسال درّاجة وسيّارتي ولكن بدوني. ووضعت الخطة، الاضواء والصفارات واذاعة الخبر انني في طريقي إلى باري Bari على الشاطئ الادرياتيكي. ثم هدوء وبدون أي تشييع وللتضليل توقفت طائرة مروحيّة امام الفندق مدة قصيرة نقلتني خفية إلى المطار. هنا ايضًا أُدخلت غرفة وأُغلق عليَّ. وقيل لي ان مساعد امين سر في وزارة الداخلية وصل ويريد مقابلتي للسؤال عن حالتي. ساعات القلق والتوتر التي عشتها، والصور المريعة بقيت امام عيني، ولم استطع أن أتمالك نفسي فخارت قوايَ و"انفجرت". وبدأت أصرخ: لا اريد مقابلة أحد، اريد ان أذهب إلى بالرمو. وبعد ان هدأ روعي قليلاً، تكلمت مع مساعد أمين السر. ومعًا درسنا الطرق الممكنة للخروج سرًّا من لاميزيا. وأخيرًا في الثانية عشرة ليلاً، نُقلت في طيارة البريد ووصلت إلى روما محاطًا بالطرود وأكياس الرسائل، حيث أرسلت للحال إلى شقتي في ثكنة الشرطة.

وأخيرًا رأيت بأم العين ماذا حدث عندما صعقت المتفجرات بالرمو بعد ظهر الأحد، تاركة وراءها ستة قتلى في فيا اميليو، مع مئات الجرحى من جراء تناثر الزجاج وسقوط الانقاض، واكثر من مئة شخص أخرجوا من بيوتهم بعد الانفجار.

في الأسابيع الاخيرة كان باولو يُردِّد غالبًا: "ليس لي الوقت لأنجز ما عليّ عمله". الذين يعرفون باولو جيدًا فهموا أنه كان يتكلّم عن موت ذريع ولا عن ملفّاته. لم يكن يتحمل اكثر ما ينقصه من حرية وأن يبقى متخفيًا. كان يصعد في سيارته ويقودها بنفسه في المدينة. حاول وزير العدل ان يوقفه عن هذه المخاطرة، فكان يجيب: اتركوني أفعل والاَّ سأتهمكم بالخطف. وكان يعني ذلك.

في هذا الصباح كان بورسيللينو في مسكنه في فيلاغرازيا دي كاريني Villagrazia di Carini، وهو منتجع على الشاطئ بين كاباتشي والمطار. بعد تناول الغداء كَلَّمَ والدته على خط ظنَّ أنّه خط آمن، وقال لها انه سيقوم بزيارة خاطفة لها نحو الخامسة. كوزانوسترا كانت تتنصّت على خطِّه، وعندما وصلت السيّارات، قفز مرافقوه الخمسة إلى الخارج، بنادقهم مجهزة

يراقبون نوافذ الأبنية الشاهقة، ولم يراقبوا السيارة المتوقفة أمام المنزل. وبسرعة خرج باولو وبيده اليسرى يطلب رقما من الخلويّ وبيده اليمنى يمسك سيجارته الاخيرة.

وقع حادث اغتيال باولو بورسيللينو في ظلمة الجهل العادية. لماذا لم تمنع السيارات من التوقف امام منزل والدته، ولم يعلن عن هذا المكان منطقة "ممنوع الوقوف" فيها كما طلب منذ اسابيع؟ لماذا ذهب إلى ألمانيا قبل موته بأيّام قليلة؟ هل أخبر احدًا عن آخر تحقيقاته؟ ماذا عن المخابرة التي تلقّاها في السابعة والنصف صباحًا، عندما كان يكتب رسالة تشجيع لاستاذ مدرسة تتعلق بالعالم الذي سيتركه لتلاميذه؟ وكان احد رؤسائه يقول له ان ميتولو بنتيتو *Mutolo Pentito* الجديد الذي لم يُسمح له بمقابلته سابقًا هو الآن تحت تصرفه. لماذا لم ينتظر حتى اليوم الثاني، الاثنين ليمرِّر هذا النبأ؟ هل كان في هذه المخابرة باعث خفي أو سبب مضمر؟

في بلاد أخرى، وفي وقت آخر، أسئلة كهذه ربما لا تطرح، ولكن في ايام هجومات المافيا الاخيرة كان الشك هو المدخل لمعرفة الحقيقة.

11

"أريد أن أعيش"

كم تستطيع مدينة ان تتحمل من الحزن والغضب؟ جيوفاني فالكوني كان أكثر شهرة في ايطاليا وفي العالم، ولكن موت باولو بورسيللينو أشجى بالرمو وأحزنها في العمق. كان بورسيللينو من حيث الجوهر رجلاً عاديًا، غير متكلف، قادرًا على الشعور مع الغير، وحتى طريقة كلامه كانت بلهجة مميزة، لهجة بالرمو التي أعطته انسانية، وجعلت المواطنين يشعرون وكأنه واحد منهم. ولكنه كان رجلاً يتميّز بقوة اخلاقية تفوق الطبيعة، وترك اثرًا في كل من عرفه. لست الوحيد الذي لمس عنده نوعًا من القداسة.

احدى بنات بورسيللينو كانت في عطلة في الشرق الأقصى، وقرّرت العائلة تأخير الدفن بانتظار عودتها. كان مفترضًا ان يتم ذلك في كنيسة الرعية حيث يذهب يوميًّا لحضور القداس. وأهل بالرمو يحترمون حياة عائلة بورسيللينو الخاصة، ولم يتجمّعوا في الكنيسة، بل وقفوا في الشوارع، وصفقوا بخشوع عندما مرّت عربة الجنازة. أقيم في نفس الوقت قداس لأربعة من مرافقي بورسيللينو (عائلة المرافق الخامس، وهي شرطية شابة، رفضت ان تشترك لاشمئزازها من قباحة ما حدث). أكثر من أربعة آلاف جنديّ حضروا مع كلاب للحراسة، وأقيمت حواجز حول مدار الكنيسة ليبقى الحاضرون على مسافة منها.

وصلنا أنا وناندو دالا كييزا إلى أحد الحواجز. وما كادوا يسمحون لنا بالعبور حتى سمعت صراخًا:

"أورلندو، اورلندو، يريدون ان نبقى هنا!... هؤلاء هم موتانا سمحوا للسياسيّين المافيويين بالدخول وتركونا خارجًا!"

سألت أحد الموظفين لماذا لم يسمح للمواطنين بالدخول.

أجاب: "الأوامر".

الجو كان متلبّدًا بشعًا يثير الاشمئزاز.

قلت للموظف اننا لا ندخل طالما انه لا يسمح لسكان بالرمو بالدخول. فُتحت الحواجز من جميع جهات الكاتدرائية، وتوجَّهَ الحاضرون بكثافة نحو الأبواب. فتح الموظف ممرًا صغيرًا لي ولناندو فدخلنا.

كانت الكاتدرائية مكتظة بالمواطنين، وكان يخيّم عليها سكون غريب اثناء الاحتفال بالقداس. ولكن عندما انتهت الصلاة، ورفعت النعوش تغطّيها الأعلام الايطالية، وعندما بدأت السلطات تتحرّك في الممرات، انفجر الغضب المكبوت لينطلق: "جبناء! مجرمون! مهرجون!"

وطفق رئيس الشرطة الذي بدا الرعب في عينيه يبعد ويدفع الحاضرين، وقد تمسّك ولصق بالرئيس سكالفارو ليحميه. لدقائق لم يحدث أي غريب، ولكن عندما أخذ رجل من الحاضرين، غطى رأسه شعر طويل ولحيته البيضاء طويلة وكثيفة وغير ممشّطة، مكبر الصوت وقال: "احفظوا الهدوء! انا والد اوغسطينوس Augostinos، انا واحد منكم! ولكن يجب ان نحافظ على السكوت وان نبقى متحدين!"

اوغوسطينوس هو رجل من الأمن قتلته المافيا منذ سنتين مع زوجته الحامل البالغة من العمر الواحدة والعشرين سنة. وأقسم الرجل المسن اليمين ألاّ يقصَّ شعره أو يحلق ذقنه حتى تتوضح الاسرار المحيطة بوفاة ابنه ويعاقب المجرمون. كان يعني اسرار

التورّط الأمني. نداؤه المؤلم الذي لا أمل منه تمالك أحاسيس العنف داخل الكاتدرائية، وسمح للسلطات بأن تنسحب.

| | |

في مساء ذلك اليوم، كنت سأظهر في برنامج مباشر على أهم محطة تلفزيون في ايطاليا، وكان اسمي قد أُدرج مسبقًا على جدول الأعمال. وكنت في مطار بونتا ريزي أَستقلُ طائرة خاصة أرْسَلَها اليَّ مخرج البرنامج، عندما رأيت عسكريين ينزلون من ناقلة عسكرية. هؤلاء كانوا أول فريق من خمسة آلاف عسكري قررت الحكومة الوطنية ارسالهم إلى صقلية في عملية عسكرية اسمها "النجوم الصقلية" Sicilian Vespers، والاسم يأتي من ثورة سكان بالرمو وكورليوني في القرن الثالث عشر ضد الاحتلال الفرنسي. على الجيش ان يسيطر على الأراضي الصقلية، وان يحمي اهداف المافيا الاستراتيجية – بيوت القضاة، المحكمة، وبيتي الخاص – وهذا يستدعي مئات العسكريين ورجال الأمن والذين يقومون بوظيفة حارس او رقيب ان يتولوا مهامهم ونشاطاتهم الاساسية، ومنها اجراء التحقيق وتطبيق القانون.

عندما وصلت إلى روما، خابرني وزير الداخلية، ولا يوجد بيننا أي صداقة خاصة، ليقول أن معلومات وصلت للقوات الأمنية بأنني سأكون انا الجثة المشهورة التالية. فقال المتحدث باسمي اندريا سكروزاتي ان ظهوري المتزايد والمستمر هو أنجع وسيلة لحمايتي.

بعد ساعات قليلة، كنت جالسًا وجهًا لوجه امام موريزيو كوستونزو Morizio Costanzo أكبر شخصية اعلامية في التلفزيون الايطالي على المسرح المظلم من حيث يُبَثُّ البرنامج. يستقبل كوستونزو دائمًا في برنامجه عدة ضيوف، وكان هذا أول برنامج يخصّصه لشخص واحد هو انا. كان يطرح أسئلة قصيرة، ويسمح لي بالاجوبة الطويلة عن اليأس والاحباط والخوف وتمنيّات الصقلّيين كلهم. انا أعرف انني "مُمَرَّك" للموت،

وأن هذا الظهور على التلفزيون لا يقدِّم لي فقط الحظ بقول ما كان باولو بورسيللينو قاله عن قوات الشر والظلام التي تغطي ارضنا المستشهدة، ولكن ايضا فرصة للحياة. نظرت مباشرة إلى الكاميرا، وقلت: "اذا قُتلت، يكون قاتلي من المافيا، ولكن الأوامر تكون قد أتت من السياسيين".

في نهاية البرنامج، سألني كوستونزو عن ملاحظاتي الختامية. ربما كان ينتظر بعض كلمات الاطراء للمشاهدين، الذين احتفظوا طوال المقابلة بالسكون "المُكَهْرب". ولكن غريزة فطريّة جعلتني أَنظُرُ إلى الكاميرا، **وأصرخ:** "اريد أن أعيش!"

| | |

فالكوني، بورسيللينو واورلندو – بهذا الترتيب. مع زوال احتلال المافيا لبالرمو، أُفدنا مؤخرًا ان مخبرًا جديدًا من المافيا يدعى بالداساري دي ماغجيو Baldassare Di Maggio أخبر المحققين ان توتو ريينا، "زعيم زعماء" كوزانوسترا، اغتاظ في المحاكمة الكبرى من قرار المحكمة العليا وأقسم أن يأخذ بالثأر. فطلب موت هؤلاء الثلاثة. ولكن عندما رأوا ردة فعل الشعب بكامله على جريمة اغتيال بورسيللينو، وضعت اللجنة، أي الهيئة الحاكمة العليا في المافيا – فيتو على الحاح ريينا بمتابعة قتل الفريق الثالث أي انا. يقول دي ماغجيو ان الاحتلال العسكري آلم اللجنة، وآلمها أكثر فقدان المافيا لما تبقى لها من تأييد عند الشعب. وأكثر ايضًا، أحدث اغتيال فالكوني وبورسيللينو ردة فعل قوية من قبل العالم الرسمي. ان عددًا متزايدًا من المافيويّين، عندما رأى ما كُتب بخط اليد على الجدار، اجتمع بالقضاة واعطى شهاداته للدولة. توماسو بوسيتا، من حماية الشهادة في الولايات المتحدة، الذي رفض سابقًا ان يتكلّم عن البعد السياسي، قال تكريمًا لذكرى "عدوه الكبير الراحل" جيوفاني فالكوني، انه مستعد اليوم لأن يقول ما يعرفه عن علاقات كوزانوسترا السياسية. قال اعضاء اللجنة لريينا: "انَّ قتلي (أي قتل اورلندو) سيكون انتحارًا للمافيا".

لم أكن أعرف كل هذا في وقته، ولكن كل دقيقة كنت أَترقَّبُ الانفجار الذي يأتي بنهايتي. بعد موت بورسيللينو ارسلت ميللّي وابنتيّ بعيدًا عن بالرمو حيث اختَرْنَ اسماء مستعارة، وقد اعتدنَ تغيير اسمائهن باستمرار بتغيير الاصدقاء، ولم يبقين في المحل نفسه الا لأيام قليلة. لم أسمح لميللّي مرة واحدة بمكالمتي عندما تنتقل من مدينة في ايطاليا إلى أخرى، خوفًا من ان يُستدل من خلال المكالمة على مكان اقامتنا. ارسلنا اليونورا وليلى إلى اليونان حيث انقطعتا عنا تمامًا ولا اتصال.

كان زمنًا موحشًا، ولم أكن قطّ في البيت. كنت أعيش في ثكنة الشرطة في روما، او في بالرمو، أو أجول في البلاد تحت حراسة مشدّدة. كنت أفكر في نفسي، وكأنني انسان حُكم عليه بالموت، وينتظر فقط ان تُعْلَنَ ساعة اعدامه. وكنت في نفس الوقت قليل الصبر، لجوجًا، اسأل اعدائي غير المنظورين: ماذا تنتظرون؟ لماذا لا تفعلونَ الآن؟ الذي كنت اعرفه انهم قرروا لا ان يقتلوني جسديًا بل صمّموا على قتلي معنويًا.

شعرت بأن انجازاتي انقلبت عليَّ. أن أكون قد حاربت المافيا بكل قوتي، وبكل تصميم، وبكل عزم ومثابرة، وبكل ما قدرت عليه، من داخل الحزب الديمقراطي المسيحي، اصبح تهمة غريبة: "اورلندو كان عضوًا في الحزب متواطئًا مع المافيا، ثم انقلب عليها وغدر بها". نشرت مقالات في الصحافة الايطالية ان فلان بن فلان، بنتيتو *Pentito*، لم يعط اسمه، أخبر المحققين انه سمع انني "على اتصال" مع مافيوي عالي المقام. لم يكن بالطبع يعطي أي برهان ولكن هذا لم يوقف الشخصيات السياسية غير المسماة عن ان تكرّر اقوالاً إنني "انتي مافياوي محترف". إنّهم الاشخاص الذين كانوا ببال جيوفاني فالكوني عندما كان يتكلم "عن العقول الداهية التي تحاول ان تقود بعض أعمال المافيا". ولم يتوقفوا عن أكبر اتهام يؤلمني، وهو انني كنت مذنبًا لأنني ما أزال حيًا، أو ان استمر على قيد الحياة في حين مات الباقون جميعًا فهذا ذنب وجرم.

| | |

حتى في تلك الايام الدكناء تمر ساعات مضحكة ومسلية. فقد كانت شبكة تلفزيون ألمانية كبيرة ZDF تقدم برنامجًا مباشرًا عنوانه مينشن *Menshen* يختار كل سنة رجال السنة Men of the Year في جميع المجالات. في اوائل 1993 بلغني انني اختُرتُ رجل السنة، وبالتحديد السياسي الاوروبي لسنة 1993 European Politician of the Year ودعيت إلى حفلة اقامتها محطة ZDF في برلين. هذا مع أن الأمن الألماني المتخصّص في الجريمة المنظّمة والارهاب يعتبر ان ألمانيا هي بلاد على درجة عالية من المخاطرة لمثلي من الاشخاص (يظهر ان المتفجرة التي استعملت في عملية اغتيال بورسيللينو أتت من هناك) قَبِلْتُ الدعوة.

رافقني في سفري اندريا سكروزاتي الذي حجز للسفر من هاتف عام وبأسماء مستعارة. كانت حمايتي في الخارج بأيدي السلطات الأمنية المحلية دائمًا، وهذا يعني أنه على الانتربول ان تعلم ممثليها عن ساعة وصولي إلى أي دولة أسافر اليها.

في مطار روما، تركَتْ طائرة أليطاليا رصيفها وأخذت تدرج على ارض المطار. بعد قليل توقف سائق الطائرة لأنني وصلت بسيارة مصفحة، فاغتاظ الركاب، واجبروا على النزول من الطائرة للتعرُّف إلى حقائبهم واحدة واحدة، وقد أُنزلت على أرض المطار. بعدها أقلعت الطائرة، وكنا قد تأخرنا ساعة عن موعد الاقلاع، ما يعني اننا حططنا في مطار فرنكفورت Frankfort متأخرين على طائرة التحويل. أفادتنا القوات الامنية في المطار أنه علينا ان ننتظر ساعة على الأقل قبل الاقلاع التالي. وبلهجة مُربكة قالت لنا ان المكان الوحيد الذي ينتظرنا هو سجن المطار.

عندما صعدنا إلى طيارة اللوفتنزا باتجاه برلين، كُرِّرتِ الاجراءات نفسها، فأُخرجنا من الطائرة في آخر دقيقة، ,أَنزل الركاب حقائبهم، وجرى تفتيش الطائرة بدقة واحكام، وبالطبع تأخر الاقلاع هذه المرة ايضًا. تَحمَّل الايطاليون ذلك بصبر، اما الالمان المعتادون على الدقة الألمانية القديمة فأحدثوا جلبة أخرجت الكابتن من مقعده وتوسّل اليهم بالصبر. أعترفُ بأنني حاولت خجلاً أن أختبئ وراء صحيفتي المفتوحة.

في برلين، وللمرة الثانية استقبلنا رجال الأمن في المطار، وأوصلونا إلى سيارتين مصفحتين مختلفتين، سيارة BMW وسيارة مرسيدس خاصة لاستعمال رؤساء الدول الاجنبية. رافقنا ايضًا دراجون وعلى الأقل اثنتا عشرة سيارة للشرطة لا تحمل لوحات، وحاولنا المرور خلال ساعة ونصف الساعة في زحمة برلين البطيئة بأعلى سرعة. وصلنا إلى الفندق الذي يُفترض ان نقيم فيه.

عرَّجنا عليه وتخطّيناه وتابعنا طريقنا.

وكذلك وصلنا أخيرًا إلى ستوديوهات ZDF، حيث بَدَّلت ثيابي بسرعة قبل المقابلة. بعد الاحتفالات دعيت إلى حفلة استقبال نظّمتها محطة التلفزيون في مطعم قريب. حاول المرافقون توصيتي بالاّ أشارك في الاحتفال، ولكنّي أصررت. كنت تعبا منهكًا بعد هذا السفر الطويل، ولكنّي استمتعت في هذا الجو الذي اراحني وهدّأ توتّري. وعدنا إلى الفندق في سبق مجنون وغير معتاد عبر المدينة استغرق ما يزيد على الساعة. وأخيرًا وصلنا إلى الفندق، وهو غير الفندق الذي حُجز لي فيه سابقًا، وكان الأمن الألماني قد احتل فيه طبقة كاملة. ولم نكد نخطو من المصعد حتى رأينا وجهًا لوجه عسكريًا رافعًا بندقيته في حالة تأهب وواقفًا وراء أكياس من الرمل.

سألت عما يجري، ولماذا هذه التحوّلات في البرنامج، فأُفِدْتُ بأنه بالرغم من كل الاحتياطات المتخذة – الاتصالات الهاتفية من المراكز العامة والاسماء المستعارة – هناك تسرُّب للأخبار اذ وجدت سيارة مسروقة متوقّفة تمامًا امام مدخل الفندق الذي حجزنا فيه سابقًا.

وأخيرًا انتهى نهار التوتر هذا بحادث فكاهي غريب، فلم يكد الموكب يسير بنا نحو الفندق الذي اختاره الأمن حتى خرج رجلان من المدخل الرئيسي. حدّق أحدهما إلى وجهي وقال للآخر مبتهجًا وبلهجة بالرمو القديمة: "هاي! انظر انه المحافظ اورلندو!"
“Miii…il Sindaco Orlando è!”

ما كان أسوأ حظ هذين الرجلين! للتو انقضَّ عليهما رجال الأمن وأوقفا للاستجواب. ولساعات فتشوا غرفتيهما وحقائبهما، فتبيّن بالنتيجة بأنهما سائحان عاديّان، ولكن صادف ان يكونا في المكان " غير المناسب" وفي الوقت "غير المناسب". لا أظن أنهما سينسيان زيارتهما لبرلين!

| | |

بعد ايام كنت مع سيمونا احدى بنات الجنرال دالا كييزا أتحدّث الى طلاب جامعة كاتانزارو Catanzaro في كالابريا، عندما نوديتُ لمخابرة ملحَّة من بالرمو. لقد تعلّمت ان أعيش اوقاتًا كهذه، فأخذت الهاتف وقلبي يخفق:

"أوقف العسكريون توتو ريينا هذا الصباح!"

فسألت: "ماذا؟ أين؟"

في دهشتي، تذكرت ما قلته منذ اسبوعين فقط لعدد من اصدقائي الذين اتوا من كورليوني لزيارتي. كالعادة عندما مررنا بحديثنا على توتو ريينا، الجزّار الذي خطط لحرب المافيا الثانية، قلت لهم: "توتو ريينا!... توتو ريينا! تتكلمون ايضا عن توتو ريينا...! اسبوعان ويكون موقوفًا... الا تشعرون انه انتهى؟ كل هذه الاغتيالات... استعمله السياسيون كثيرًا، ولكن اليوم قد انتهى".

كنت اقول ذلك كمزحة ازدرائية، ولكنها اليوم حقيقة.

وأخيرًا قبض على توتو ريينا أثناء قيامه بمأمورية روتينية في سيّارته برفقة سائقه، بعد ان كان مطاردًا لثلاث وعشرين سنة.

كان في بالرمو، في عقر داره. يجب على الزعيم ليكونَ زعيمًا ان يبقى في أرضه، ويجب ان يكون رجاله على علم بأنه هنا، حتى لو ان عددًا قليلاً من الضباط الموثوق بهم يعرف بدقة مكان وجوده. أثناء صعوده الدموي إلى السلطة، بقي ريينا منزويًا في أرضه بين كورليوني وبالرمو. خلال السنوات الثلاث والعشرين تزوج معلمة مدرسة

(بالفعل ثلاثة كهنة احتفلوا بزفافه). وكان له ثلاثة أولاد رأوا النور في مستشفى خاص في وسط بالرمو. كان يسجل أسماءهم في سجل النفوس، وكذلك اقتبلوا المعمودية. الآن أجبره أحد الكارابينياري ان يقف تحت صورة الجنرال كارلو البرتو دالا كييزا أحد أشهر ضحاياه لتؤخذ له صورة. نشرت صورة ريينا في الصفحة الاولى من الجرائد، وفي النشرات الاخبارية على التلفزيون في كل بلاد العالم. وبدا فيها قصيرا، غليظًا، بدينًا، عيناه غارقتان في وجهه القبيح.

كان الصقليون ينظرون إلى هذه الصورة، ويتساءلون كيف سمحنا لرجل كهذا ان يكون حاكمًا علينا. وتعجّبوا ايضا لماذا قبض على ريينا الآن، في هذا الوقت الذي بدا وكأنه يؤدي أهم انجازاته. وكان الجواب ان الحالة احتدمت لدرجة لم تصل اليها سابقًا، فسلَّمته فرقة داخل كوزانوسترا كانت قلقة، وتقبل بتطبيق القانون، ولا تريد ان تعطي انطباعًا بأن رأس المافيا قد قطع.

| | |

بعد اسابيع، في 9 ايار 1993، تحت هيكل كونكورديا اليوناني القديم في آغريجنتو نصب صليب كبير للبابا يوحنا بولس الثاني لاقامة القداس في العراء. بعد سنة من موت فالكوني تميّزت بتوقيفات مهمة للأعضاء المطلوبين في الكوزانوسترا وصلت إلى قمتها بالقبض على ريينا، بدا وكأن الدولة استيقظت، وقَرَّرت، كما حدث سنة 1986 في المحاكمة الكبرى، أنها هنا وليست بكل بساطة بمثابة المُتفرّج العاجز.

كان الصقليون ينتظرون ان يسمعوا كلمات الحبر الأعظم، ويتساءلون اذا كان رأس الكنيسة سيزيد احباطهم للمرة الثانية كما فعل سنة 1982. كنت مرتبكًا مضطربًا لا بسبب هذا الحدث المنتظر. مؤخرًا تَبيَّن جَليًّا أن مطران كاسيزا في مونريياليه تورّط مع المافيا باساءته استعمال أموال البناء. عندما وصلت إلى المطار لأرحب بالحبر الأعظم مع باقي الرسميّين، كان كاسيزا في الخط الأمامي. عندما أبصَرْتُه، استدرت للحال

وغادرت، وانا مدرك بأن حركتي هذه هي اخلال بالبروتوكول. قابلت الحبر الأعظم مرات عديدة بعد ذلك خلال النهار، ولم نفتح أي حديث عن هذا الموضوع، ولكن يظهر أنه نظر اليّ مستغربًا متسائلاً.

لم يحطّ البابا من عزمنا هذه المرة. واستشهد في كلامه لمرات بأعمدة هيكل كونكورديا وتاريخها الذي يبلغ عمره 2500 سنة. قال الحبر الأعظم: "أحد الهياكل اسمه هيكل "كونكورد" أي الوفاق الحقيقي ويعني بها السلام. اتمنى ان يكون اسمه تنبُّئيًّا، أتمنى أن يَعِمَّ التوافق والوئام في أرضكم. توافق بدون موت، بدون اغتيالات، بدون خوف، بدون تهديد، بدون ضحايا. بعد هذا الكم من الألم والعذاب، لكم الحق في ان تنعموا بالسلام. هؤلاء المذنبون الذين يعكرون هذا السلام، ويحمّلون ضمائرهم الضحايا البشرية، يجب ان يفهموا أنهم لا يستطيعون قتل المخلوقات البريئة. من وصايا الله: "لا تقتل". لا رجل ولا أي تجمّع بشري ولا المافيا باستطاعتهم ان يُغيّروا او يخالفوا هذه الوصية المقدسة". ثم رفع صوته وصرخ قائلاً: "باسم المسيح... أنادي كل هؤلاء المسؤولين: أَيُّها المافيويّون ارتدّوا! لأن دينونة الله ستأتي يومًا".

وجَّه الحبر الأعظم كلمات للكنيسة ايضًا. هذه الكنيسة التي تحمّلت الكثير من المسؤوليات التاريخية والثقافية لما جرى على أرضنا، وقال: "أنادي الكنيسة الصقلية، اليوم كما كانت في الأمس، ان تشارك في الالتزام في جهود ومخاطر هؤلاء الذين يقاتلون، حتى ولو كلّفها ذلك تضرُّرًا شخصيًّا، ان تشارك في بناء مستقبل من التقدم والعدل والسلام على هذه الجزيرة".

مرات ومرات قطع كلمات الحبر الأعظم تصفيق مئات الآلاف من الحاضرين المستمعين اليه. كانت كلمته طريقة لتحرير الكنيسة من مئة سنة من السكوت الكنسي. عندما وصف البابا المافيا "بكيان أثيم " كان يعني ان كل مافيوي هو بحالة خطيئة مميتة، حتى ولو لم يرتكب بنفسه خطايا مميتة، لكونه بكل بساطة عضوًا في هذه المنظمة. ما قاله هو المعادلة اللاهوتية لقانون العقوبات الذي صُدِّقَ منذ عشر سنين،

والذي ينص على ان كل عضو في المافيا، مهما كان دوره، هو متورط في مؤامرة اجرامية.

عندما غادر الحبر الأعظم صقلية في ذلك النهار، ذهبت إلى المطار مرة أخرى لوداعه. رأيت هذه المرة أن مطران كاسيزا ليس حاضرًا. وعندما وقفت في صف المستقبلين لاسلِّم على الحبر الأعظم، أخذ يدي بحرارة بين يديه الاثنتين، وقال: "أشكرك على كل شيء فعلته. كل شيء". عند قوله هذه الكلمة الاخيرة "كل شيء" مؤكدًا، نظر إلى عينَيَّ بكل انتباه. ان ما قال يفتح ربما مجالاً للتأويل، ولكن البابا، ككل الأنبياء الدينيين أو العلمانيين هو استاذ في الحركات التعبيرية أو الاشارات. وشعرت بأنه لا يعني بذلك ما فعلته في بالرمو في السنوات العديدة الماضية فقط، ولكن ما فعلته ايضا في المطار صباح هذا اليوم.

| | |

بعد يومين من خطاب البابا، انفجرت قنبلة مُفخَّخة في روما، وكانت تقصد موريزيو كوستونزو الصحافي الذي استقبلني في برنامجه، ولكنها اطلقت متأخرة ثانية واحدة. وخطيئة كوستونزو انه يتكلم كثيرًا وغالبًا عن المافيا.

هذا الانفجار كان مقدمة لصيف من العنف، قَرَّرَتْ خلاله كوزانوسترا ان تذهب بهجومها في قلب البلاد، وأن تهاجم السلطات القائمة. في تموز فُجِّرت ثلاث سيارات مفخخة في نفس الليلة، واحدة قرب غاليري في ميلان ذهب ضحيتها خمس ضحايا بريئة، وانفجرت الثانية مقابل كنيسة قديمة رائعة في روما، هي كنيسة القديس جورجيو في فيلابرو، وعمرها مئات السنين، فتبعثرت أعمدة قناطرها الجميلة شظايا في كل مكان. والقنبلة الثالثة انفجرت في كاتدرائية القديس جان لاتيران في روما. كان هذا رسالة موجهة للبابا يوحنا بولس الثاني (البابا هو ايضا مطران روما وسان جان لاتيران هي كنيسة

المطران). ولتوضيح الرسالة لم توجّه المتفجّرة إلى واجهة الكنيسة بل إلى الجهة الخلفية منها حيث مكاتب الحبر الأعظم.

كانت كوزانوسترا تدَّعي أن الكنيسة لا تستطيع مهاجمة المافيا في الأصل كما فعل البابا في أغريجنتو. وبالاضافة إلى متفجرة كنيسة سان جان لاتيران، ثمّة حادث آخر أوصل الرسالة إلى مكانها. جرى هذا الحادث في منطقة برونكاكسيو في بالرمو، حيث الاب بينو بوغليزي Pino Puglizi هو كاهن الرعية. كان الأب بينو نحيلا، في متوسط العمر، لطيفًا جدًا، يعير انتباها خاصًا لأطفال وشباب هذه المنطقة المحتاجة ويعيش كهنوته كرسالة حب. وفي منطقة مثل برنكاكسيو يعني هذا تعليم ابناء رعيته ان لا يسمحوا لأنفسهم بأن يكونوا اغراضًا للحكم. حقق ذلك بسرعة وعزم وثبات والتزم هو نفسه في العمل الرعوي، كالمساعدة في تأهيل الشباب المدمنين على المخدرات التي كانت تنشرها وتوزعها المافيا في الأحياء. نظم تجمعًا انتي مافيويًّا من الشباب المتطوع، والتزمت رعيته بعمل قصارى جهدها لإبعاد الشباب عن الشارع.

كانت النتيجة تهديدات وانذارات – حُرِقت ابواب الكنيسة – وبدون ان ينتظر استنكر الأب بوغليزي محاولات الترهيب هذه من على المذبح اثناء عظته. ولكنه قام ايضا بواجبه كمواطن، وأعلم الشرطة بوجود سوق بالجملة للمخدّرات في الطبقة السفلى من بناء قريب من الكنيسة. في الساعة العاشرة من تلك الليلة اذ كان يحاول فتح باب منزله، أصيب بطلقة واحدة في رأسه أردته على الارض قتيلاً يسبح في بركة من الدم، ولم يلبث ان توفي. بعد سنوات قليلة من اغتياله، اصبح الغادر به من التائبين، وقال ان آخر كلمة للأب بوغليزي كانت: "هذا ما كنت أتوقَّعه".

اليوم تستعد الكنيسة لاتباع اصول اعلان الاب بوغليزي طوباويًا، رجلاً مؤمنًا استشهد على يد المافيا. وهذه رسالة لا يستطيع احد ان يُسيء فهمها: لا مجال للمهاودة بين الايمان بالله ومؤامرة اجرامية تعمل على اغتصاب مكان الله في حياتنا.

| | |

هجوم المافيا صيف 1993 كان أشبه بمحاولة انقلاب: تلقّت سلطات الأمن الايطالية تهديدًا من المنظمة يفيد أنّها بصدد حشد ارهابيين كرواتيين سيأتون إلى صقلية. وسرت إشاعات ان المافيا تنوي بث السم في المأكولات في "السوبرماركات" والمتاجر الكبرى، وستنشر على شواطئ الادرياتيك انابيب مملوءة دمًا فاسدًا HIV ، وهذا نوع من خطتها لخلق جو من الخوف يهرّب السيّاح.

الذين كانوا يذهبون كل صباح، ويفتحون الصحف مقطوعي الأنفاس خائفين ليروا اذا كانت الجمهورية ما تزال واقفة، أخذوا يتساءلون متعجّبين هل الذي نراه ونسمعه هو الآن قطعة من ذنب تنين مائت.

وكذلك ايضا سنة 1993 باشر مكتب النيابة العامة في بالرمو تحقيقًا رسميًا حول العلاقة القائمة بين جيوليو اندريوتي – رئيس حكومة لسبع مرات وعضو في تسعَ عشرة حكومة بين 1948 و 1992 – والمافيا، المجموعة الاجرامية.

12

ثقافة حرية في المدارس

عُدِّل القانون الانتخابي في ايطاليا سنة 1993، بحيث اصبح باستطاعة المواطنين ان يختاروا المحافظ بالاقتراع المباشر، وليس كالسابق بالتصويت للأحزاب التي تنتخب عنهم وراء الأبواب الموصدة. قدَّمت استقالتي للحال من البرلمان عند حدوث هذا التغيير، وعدت إلى بالرمو لأترشح من جديد إلى هذا المنصب، وهو الوحيد الذي أردته حقيقة في حياتي: أن اكون محافظًا.

الآن بعض انجازات ربيع بالرمو تمأسست وأصبحت جزءًا من DNA المدينة. بعد اليوم لا يشغل مكتب المحافظ في بالازو ديلي آكيلي أي عضو أقسم اليمين في الكوزانوسترا والذي شغله مرة فيتو تشيانتشيمينو. ولَّى اليوم الذي يستطيع ان يصل فيه إلى مركز السلطة أي سياسي له علاقة بالمافيا التي تكبله بشروطها باطنيًا في حين يظهر أنه يتمتع بالاستقلالية. والأهم، الاعتقاد بأن المافيويّ جزء من "المجتمع الشريف" *honorable Society* الذي يفوق مقامًا المجتمع المدني *Civil Society* زال إلى غير رجعة. بعد اليوم لا تستطيع المافيا سحب خيوط دماها داخل النظام الذي تَغَيَّر هو ايضا في صقلية وفي ايطاليا عامة. إنّ نهاية الحرب الباردة وتأثيرات حملة الايادي النظيفة افصحت عن اصطفاف الحزب القديم وراء المجرمين، والاشتراكيون والمسيحيون

الديمقراطيون تفكّكوا بسرعة غريبة، وللمرة الاولى، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، تعرف صقلية انتخابات حقيقة حرة.

وأخيرًا اصبحت الكوزانوسترا **خارج** الحكم، ولو انها تبقى خطرًا على حياتنا المدنية وحياتنا الجسدية. هؤلاء ذوو "العقول الداهية" التي نبَّه جيوفاني فالكوني إلى انها تحاول دائمًا ايجاد ثغرة في النظام، وعندما تسمح الظروف تهرول بسرعة إلى ملئها، بتأثيرها وضغطها على المقترعين، محاولة ان تنال اعجاب الشخصيات السياسية. انهم لا يترددون في استعمال العنف للوصول إلى غاياتهم، ولذلك مشكلتي باقية حيّة حتى يوم الانتخاب.

ذهبت باكرًا، في بدء المعركة الانتخابية، لاجتمع إلى انطونيو كابونيتو، رئيس فالكوني وبورسيللينو القديم في تجمع الانتي مافيا. كان مرشحًا لمجلس المدينة كعضو في "لاريتي" ، ويقع مكتبه في شقة كنت أملكها في فيا روزولينو بيلو Via Rosolino Pilo بعد عدة أبنية من مركزي الرئيسي الذي اقود منه معركتي الانتخابية. صعدت في سيارتي وأخذت افتش في بعض المستندات، فما كان من سائقي إلاّ ان غيّر طريقه. بعد خمس عشرة دقيقة، وكان من المفترض ان نصل منذ وقت طويل إلى مكتب كابونيتو، لاحظت أننا ندور في حلقة بعيدين مسافة عن المكان المقصود. فقلت لمرافقي وقد شهر سلاحه نحو السائق:

"ماذا يجري؟ هل نسيت اين تقع فيا روزولينو بيلو؟".

فأجاب: "انا متأسف، ولكن أُعلِمنا بأن سيارة مسروقة وجدت متوقفة مقابل مكاتب الدكتور كوبونيتو، ونحن ننتظر وصول خبراء المتفجرات".

كانت ردة فعلي غريزيّة ولكن لبعض الأسباب ثارت ثائرتي. ان مرافقيَّ يقومون بواجباتهم، وهم تمامًا على حق، ولكن شيئًا ما انبتر فيَّ. اذا تركت نفسي اهدَّد الآن ستصبح حياتي تمثيلية من الخوف. فقلت له: "انظر، هذه هي الطريق والأفضل ان نسلكها الآن! خذني حالاً إلى فيا روزولينو بيلو.

فأجاب مرافقي: "طبعًا"، فهو مسؤول عن سلامتي. ولكني اصبحت أشد وأشد غضبًا، وبالنهاية خابرت وزير الداخلية في روما على خطي الخلوي. وانا متوجّه في طريقي الصحيح تأكَّد خبراء المتفجرات أن السيارة كانت خالية من أي مادة مفجرة. وبالنهاية وصلت إلى مكاتب كابونيتو. ورأيت وجوه المتطوعين الشباب يملأون الغرف، هؤلاء الذين دعموني وكابونيتو، والذين ينتظرون أن أعيش طويلاً لأجعل من بالرمو الآن وللمستقبل مدينة للنور. وشعرت بأنني قلق وتعب فجلست.

ما عدا هذه الحادثة التي أقلقتني، علق في ذهني حادثتان غريبتان من هذه المعركة. الاولى تتعلق بابن مافيوي قديم صرّح علنا انه سيدلي لي بصوته دون مراعاة شعور والده واستيائه. وكنت متأكدًا من أنّني لن أَسمح لمافيوي بأن يلحق بفريقي. اتصلت برجال الأمن وسألتهم اذا لديهم وسيلة للتحرّي عما اذا كان يوجد أي خطر أو سوء وراء هذا التصريح. فأرسلوا خفية بعض الاستخباراتيين وسألوا والد الفتى مباشرة عن القضية. فقال لهم: "اذا حاولت ان أمنع ابني عن الادلاء بصوته لاورلندو، أظن أنه لا يمتنع. انني أفقد ابني إمّا بصفتي رجلَ شرف وامّا بصفتي أبًا. لذا افضل الاولى على الثانية". هذه هي الحيرة التي واجهها هذا النوع من الناس: كانوا مجبرين على الاختيار بين الروابط العائلية والروابط المافيوية.

الحادث الآخر: كنت يومًا في معركتي الانتخابية في منطقة من بالرمو موبوءة بالمافيا تدعى سيب Cep، وكنت أتنقَّل من محل إلى آخر، واتكلم إلى أكبر عدد ممكن من الناس. وصلت إلى محل لحام حيث نظر اليَّ احد الحاضرين بعصبية لفترة، ثم قال: "سيدي، دون جيوفاني يريد التحدث اليك".

نظرت حولي لأرى احدهم بلباس الكاهن (بالايطالية "Don" هي كلمة تستعمل امام اسم الكاهن احترامًا). رأيت فقط رجلاً كبيرًا جالسًا على سجل المدفوعات، ينظر إليَّ من رأسي إلى أخمص قدمَيّ بنوع من النفوذ. لم أكن اعرف من هو ولا لماذا يريد ان يكلمني بصورة خاصة، ولكن مرافقيّ وقد سيطرت عليهم العصبية قالوا لي انهم يعرفون

من يكون دون جيوفاني. عندما مشيت نحوه وجه اليَّ نظرة حادة مشيرًا اليَّ بأصبعه، وقال مزمجرًا:

"خَرَبْتَ عيشي، وَخَرَبْتَ عائلتي بمحاربتك للمافيا! مافيا! مافيا!اثنان من اخوتي هما في السجن، وابني شريد مطارد... شكرًا لمحاربتك المافيا، لقد حاكمتنا وقاضيتنا..."

كانت ايادي مرافقيَّ على البنادق، واحاطوا بي من كل الجهات بأجسادهم، وكان الرجل ينظر اليّ من خلالهم بوجهه الملتهب ونظره الغاضب. ولكن المفاجأة لنا كانت عندما تابع يقول:

"ولكن هل تعلم؟ لقد أخذت الكرة".

كانت هذه رسالة كراهية وحقد، ولكن ايضا قبول بخسارة المعركة.

يوم الانتخاب عندما أُقفلت أقلام الاقتراع، كنت في مركزي الرئيسي للمعركة في فيا فيلافرنكا Via Villafranca، في البيت الذي رأيت النور فيه. وكانت الغرف التي قضيت فيها شبابي مكتظّة بالشباب الناشطين والمتحمسين يردون على خطوط الهاتف، ويستلمون نتائج اقلام الاقتراع بحسب ورودها، ويحضِّرون الشمبانيا للاحتفال بالنصر، لأن الاقلام الواردة أكَّدت لنا نتيجة النصر. وبالرغم من سقوط المطر المتقطّع، تجمعت الحشود في الشارع وتوقَّف السير، فحوِّل إلى غير اتجاه. عندما أُذيعت التقارير الرسمية الاولى نظرنا من النوافذ، ورأينا الرقص العفوي وقد انطلق في الشارع والنساء يضحكن ويتبادلن القُبل. كنت أنوي انتظار النتائج النهائية، ولكني لم ألبث ان خرجت إلى الشرفة الصغيرة فوق الشارع لأقول بعض الكلمات.

"بالرمو لنا!" Palermo e nostra. قاطعني احدهم وصرخ: "وليس للكوزانوسترا" E non di Cosa Nostra! وسمع صدى صوت آخر يقول: "لنا" Nostra

وقبل ان أقول أي شيء، اخذت الحشود تغني: "بالرمو لنا وليست للكوزانوسترا!" Palermo e nostra E non di Casa Nostra

عندما وصلت النتائج النهائية، نلت 75،2 بالمئة من الأصوات وهي أكثرية لم ينلها أي مرشح آخر في تلك السنة في ايطاليا. في الساعات القليلة الباقية التي لا أنسى، رقصت تحت المطر الذي وصل إلى عظامي محاطًا بوجوه تَشِعُّ فرحًا في مطعم بيازا بريتوريا التي، فيما مضى، شاهدت فيضًا من الجزع والحزن.

بعد خمسة عشر يومًا كنا ايضا نحتفل بانتصار آخر عندما انتخبت كورليوني في الدورة الثانية – لم ينل اي من المرشحين اكثرية في الدورة الاولى – محافظًا شابًا ملتزمًا بالاصلاح. انتقلت الديمقراطية من "القبيح إلى الجميلة" أي "من الجلاد إلى الضحية". مئات الشباب غنّوا في شوارع المدينة التي كانت سابقًا الرمز العالمي للمافيا، واليوم بكل فخر هي رمز للانتي مافيا. رقصوا في كل الشوارع، ومروا عن تعمد تحت نوافذ منزل توتو ريينا الوضيع حيث عاش مع زوجته وأولاده. لم يجرؤ أحد في السابق على ان يفعل هذا!

دائمًا في السابق، كانت صقلية تعيش تاريخًا يشبه "رقاص الساعة" أي فترات طويلة من التوازن تعكرها احداث عنيفة يتبعها ضبط جديد من قبل الحكومة لمراقبة المافيا ما يلبث أن يسقط. ولكن شيئًا ما تغير مع موت فالكوني وبورسيللينو. الآن أصبح ممكنا الا يعود رقاص ساعة المافيا ليلعب مرة أخرى.

| | |

في اواخر الثمانينات، كان ربيع بالرمو فصلاً من الشعارات والرسائل والتمنيات والآمال واول براعم الحرية، واليوم في التسعينات وفي صيف بالرمو نهضة من الانجازات وانتشار للديمقراطية.

طموحاتي كبيرة في ادارتي الجديدة، ولكننا بدأنا بتدابير صغيرة تحمل الحكومة على العمل على اساس يومي. باشرت هذا العمل اثناء ولايتي الاولى كمحافظ، ولكن في ذلك الوقت، كانت كوزانوسترا لا تزال بجانب الدولة، وكانت النتيجة ان موظفي البلدية،

وقد كسبوا وظيفتهم من المافيا، يفسدون جهودنا. الآن وضعنا قوانين تنص على ان الموظفين يعينون وفقًا لمؤهلاتهم.

ركزنا جهودنا على تجهيز البلدية وكل مكاتبها بجهاز حاسوبي مركزي. ان يُعَدَّ هذا الطلب إنجازًا في السنوات العشر الاخيرة من القرن العشرين، ربما يكون مضحكًا لأي انسان، في أية مدينة حديثة "طبيعية"، ولكن في اوائل التسعينات لم تكن بالرمو مدينة "طبيعية". وكي تحصل بكل بساطة على رخصة بناء بيت صغير، او شهادة ولادة، أو وفاة، او نموذج ضريبة من موظف رسمي كنت تصاب بالاحباط وخيبة الأمل وضياع الوقت. ومع السنين أصبح "وجه الظل" أو "معقِّب المعاملات" ركيزة في حياتنا البلدية. هؤلاء الاشخاص يتبرمون خارج مكتب التسجيل في بالرمو، وهم ينتظرون من يدفع لهم المال، فيذهبون من مكتب إلى آخر ومن صندوق إلى صندوق يشترون المعاملة ويؤمنون المستند المطلوب. بالطبع إنّ "وجه الظل" أو "معقب المعاملات" هذا يسهل عمله برشوة الموظف الموجود وراء المكتب، فيحصل على ما يريد، بينما المواطنون الذين لا يستطيعون دفع الرشوة ينتظرون في الصف إلى ما لا نهاية.

انتهينا من كل هذا، واليوم يمكن الاستحصال على المستندات الرسمية والمعلومات من الآلات الاوتوماتيكية الشبيهة بالـ ATMs. المعاملة سريعة ولا مجال للفساد، والمستند المطلوب يصل مباشرة إلى المواطن، ولا حاجة لأي وسيط. يرى الذين يتعاملون مع الادارة في البلاد المتقدّمة ان هذا من الأمور البسيطة، ولكن في بالرمو كانت هديّة التحرر من الادارة الفاسدة.

| | |

ادركنا ان خلق نهضة في مدينة تريد ان تحرر نفسها من ايادي التوتاليتارية المميتة كان وكأننا نخوض حربًا، وان الانتصار يحصل نتيجة حملة جامعة لكل الأمور.

لذلك قررنا ان ننطلق على أربع جبهات معًا: الاعلام، الثقافة، المدارس، والوضع الطبيعي في المدينة، وكلها لغرض واحد: خلق يقظة مدنية تقوم على القاعدة الحقوقية.

الاعلام كان الصعوبة الأهم والأعمق من عدّة أوْجُه. وكما قلت سابقًا، كان التآمر بالسكوت عن المافيا وهجومها على الحياة الصقلية ناجحًا لدرجة انه أوجد نوعًا من العالم الموازي. وفيما نحن غارقون باللاشرعية وبالجريمة، كانت الصحف والمحطات التلفزيونية تعطي لوحة عن مجتمع "طبيعي"، مع فرق بسيط في الجرائم بيننا وبين المجتمعات الاوروبية. مفتاح هذا التوهم رفض وسائل الاعلام لعشرات السنين لقول كلمة "مافيا". ثم في السبعينات، عندما اصبح السكوت عن قول هذه الكلمة، مستحيلاً، أخذت الوسائل الاعلامية تغطي الظاهرة، وكأنها مشكلة محلية تحمل بعض المجرمين على قتل بعضهم بعضًا.

كانت هذه نقطة ضعف في الصحافة الوطنية، وحتى في الصحافة الصقلية. كانت الجرائد الاقليمية المناطقية تتأرجح بين ان تعطي تقريرًا أمينًا للوضع وخوفها من ان هذه الطريقة تسيء إلى صورة صقلية. العدد الكبير من المواطنين كان يعرف ما الذي يحدث، ولكن حتى الثمانينات كان الكل موافقين على ان الأفضل ان نبقى صامتين وألاّ نشهّر بالمافيا. ولما اصبحت خبيرًا متمرّسًا في تناقضات بلدنا، رأيت اننا لا نستطيع ان نتغلب على سيطرة المافيا مادمنا لا نمتلك صحافة حرة وتهجمية وعدائية.

كنت منزعجًا بصورة خاصة من افتتاحية في هذا الموضوع نشرتها صحيفتنا المسيطرة جيورناليه دي سيسيليا *Giornale di Sicilia*. فخلال سنوات الحرب الثانية للمافيا، اشاعت هذه الصحيفة نوعًا من العجز عن معرفة المشاكل التي طرحتها المافيا. وبعد اغتيال دالا كييزا، عندما أصبح من المستحيل ان يلزم أيٌّ منا السكوت باشرت الجريدة التكلّم عن المافيا. لكن تقريرها كان دقيقًا جدًا، وعولج الموضوع بانتباه كلي ولم يتخطَّ "اللاحزبية"، والتعبير لكاتب الافتتاحية. وهذا يعني، مثلاً، ان الصحيفة نقلت كلمات هؤلاء الذين اتهموا تجمع المدعين العامين الانتي مافيويين بأنهم يتمتعون بامتيازات مبالغ

فيها، حتى انهم أوجدوا لنفسهم نوعًا من "عبادة" الشخصية. وقد نشرت الجريدة قصصًا مثيرة ومحركة للغرائز في افتتاحياتها عن الحادث المفجع الذي وقع ضحيته التلامذة، لأن موكب باولو بورسيللينو أطلق النار على الباص المدرسي المتوقف، أي انها بصورة غير مباشرة تضع المافيا والمدعين العامين والانتي مافيا على قدم المساواة.

ضخّمت المافيا تأثير مقال لاجيورناليه *Giornale*، لأن بالرمو مدينة الجريدة الواحدة. وواجهت جهودنا الاصلاحية صعوبات كبيرة في معالجتها بسبب هذا الوضع الاعلامي. وقرّرت أخيرًا، وبكل بساطة سنة 1989 ألاّ أتكلّم بعد اليوم إلى أيّ صحافي من صحيفة جيورناليه دي سيسيليا. سألني رئيس التحرير مرّة "لماذا؟". فأجبته بأن الدول الاوروبية "الطبيعية" عندها اكثر من جريدة، وأني قررت ألا أتكلم إلى صحافي من جيورناليه قبل ان تباع صحيفة أخرى في شوارع بالرمو.

هذا الطلب، في هذا الظرف، ربما يكون "دونكيشوتيًّا" حتى بالنسبة اليَّ. ولكن سنة 1993، وعندما كنت أخوض معركتي كمحافظ أخذ هذا القرار يعطي مفاعيله. وهذه الانتخابات كانت الحدث الأكثر أهمية في بالرمو، والجريدة المسيطرة لم ترافق الحدث بدقة ولم تعط التفاصيل المهمة. لم اقاطع جيورناليه أو أتوقّف عن اعطائها المقابلات فقط، بل أمرت مساعدي بأن يُبْعِدَ محقق الجريدة عنّي مئة قدم في كل الأوقات وفي المؤتمرات الصحافية. ورفضت أيضًا التكلم إلى مندوبي الاخبار في محطة تلفزيونية، وهي أهم محطة في بالرمو.

كنت أحاول ان اعير المناقبية الصحافية، انتباهًا خاصًا، بل كنت ايضًا مثل كوزانوسترا نفسها، أحاول ان أوجّه رسالة، ولكنّها رسالة بنّاءة: لا يمكن ان يبقى المجتمع المدني غير معني بقضية المافيا بعد اليوم.

في ليلة انتصاري الجارف، لم أُعط أيّ محرّر من الجيورناليه مقابلة، مع اني تكلمت مع كل الصحف الايطالية والاجنبية والمحطات التلفزيونية لتغطية الانتخابات. ومنذ ذلك اليوم، باشرت الصحيفة عرض مقاربات مختلفة واكثر مسؤولية للأخبار الادارية

في المدينة ولحركة الانتي مافيا. بعد ستة اشهر، انطلقت صحيفة اخرى هي ايل ميديترانيو *Il Mediterraneo*. وفي أول يوم لتوزيعها، اجريت مقابلة مع محقق من صحيفة جيورناليه دي سيسيليا لأول مرة منذ أربع سنوات.

وبنقلة مميزة، اصبحت صحيفة لو جيورناليه مسانداً قويًّا للاصلاح وللانفتاح المدني. هذا الدعم كان مهمًا بصورة خاصة في الجهود التي كنا نقوم بها لزرع ثقافة حرية في المدارس. اتفقنا أنا ومحررو الجريدة على ما يلي: ان يخصصوا كل يوم صفحة "تقرير عن المدارس"، تصدر فيها مقالات كتبها التلامذة عن مدارسهم وعن الحي الذي يعيشون فيه. لماذا كان ثمّة دورتان للامتحانات؟ لماذا تبقى النوافذ محطمة؟ لماذا نفدت اللوازم أو المعدات؟ وهلمّ جرا. كنت أكتب بيدي كلمة لكل تلميذ صدرت كلمته في جريدة اليوم السابق، مجيبًا عن اسئلتهم، وواعدًا إيّاهم بحل المشكلة إن أمكن. ثم كنت ارسل هذه الكلمة مع شرطيّ كي يسلمها التلميذ يدًا بيد في المدرسة. ووافق معي محررو جيورناليه على اننا بهذه الطريقة نحقّق عدة اشياء مختلفة مرة واحدة، وهي: نبين ان الصحافة الحرة تخدم المواطنية، وان الكلام يعطي نتائج ايجابية، وان الشرطة هي جزء من هذا المسار.

| | |

بينما كانت بالرمو تسير ببطء، وبأعجوبة، لتصبح مدينة ذات إعلام حر واستعلامي، حاولنا ايضا ان نوجّه جهدنا لتجديد الثقافة كما كان يختبرها كل يوم المواطنون. العمل الجبار ورمز التحدي الكبير في هذا العمل كان اخراج كنيستنا العظيمة المنشأة في القرن السادس عشر والتي تدعى سنتا ماريا ديللو سباسيمو Santa Maria Dello Spasimo من تحت الانقاض.

خلال العصور استُعْمِلَت سباسيمو لا كنيسة فقط، ولكن ايضا كمسرح ومستودع ومستشفى وملجأ للمصابين بمرض البرص ومأوى للعجزة. خرّبتها قذائف الحرب العالمية الثانية. فما الذي بقي فيها اليوم؟ كنيسة مهجورة وآثار القذائف باقية على جدرانها. وعندما استباحت المافيا بالرمو استعملتها كمستودع لمواد البناء، قل بالأحرى للردم والانقاض حيث يلعب "اولاد الشارع" في النهار ويتسللون ليلاً. ونسي الشعب تمامًا الدور الذي لعبته هذه الكنيسة في حياتنا المدنية.

في ولايتي الاولى كمحافظ في اواسط الثمانينات، قرّرت ترميم هذه الجوهرة القديمة كي تكون مكانًا جيدًا لبدء العمل على استرجاع مدينتنا. ارسلت سيارات كبيرة لنقل الركام والاوساخ، ونظفت الكنيسة، وجهزتها للافتتاح بحفلة موسيقية عزفًا على البيانو. أقيم المسرح تحت قنطرة غوطية عالية وقبل الافتتاح بيوم واحد، أحرقها المافيويون ليعبروا بوضوح عن أن هذه الجهة من المدينة هي ملكٌ لهم وليست ملك الشعب. عندها، وعلى الفور، انقذني صديقي انزو بيانكو Enzo Bianco، وكان يومها عمدة كاتانيا، وهي ثاني كبرى مدن صقلية، اذ أتى بمسرح نقال، وتمت الحفلة الموسيقية في مكانها رغم آثار النار. جلس باولو بورسيللينو بين الحضور فرحًا يشعر بأنه عاد إلى جلسة في موقع تاريخي جميل يقع على مقربة من مكان نشأته.

في الأيام التالية انهارت قطعة من الحائط، وللمرة الثانية توقف العمل في سباسيمو، وكذلك بقي طوال الوقت الذي لم أكن فيه محافظًا لبالرمو.

اليوم بعد ان عدت إلى المكتب، وبعد نتائج الانتخابات مباشرة، قررت ان أتابع المشروع. وشجعت ادارتنا السجناء الذين اطلق سراحهم من سجن اوكسياردوني على انشاء تعاونيات توفّر لهم العمل والأجور لئلا يعودوا إلى حياتهم المافيوية. والمهم أنّ المتلزم الذي قدم أدنى الاسعار لترميم سباسيمو كان تعاونية من السجناء السابقين يترأسها فيليبو اباتي Filippo Abate. خلال أشهر قليلة رُمِّمت جدران الكنيسة المهدمة، والجناح الملاصق الذي كان مستشفى في السابق هدم لتقوم مكانه حديقة زيَّنتها الاشجار الكثيفة والتماثيل المنحوتة والمقاعد. وفي يوم الافتتاح في تموز 1995، حضر رجال الأمن والعسكريون والسجناء السابقون التابعون لتعاونية آباتي جنبًا لجنب. وقال لي آباتي بعد ايام: "عندما عدت إلى المنزل مساء ونظرت إلى أولادي وجهًا لوجه لم أكن كالسابق خجولاً من نفسي".

هذه القصة كان لها نهاية محزنة، فبعد وقت قصير من انهاء الأعمال في سباسيمو، لقي فيليبو آباتي وزوجته وولداه حتفهم في حادث سيارة في ايطاليا اثناء عطلة. عندما علمت بهذا الحادث المأسويّ قصدت منزل آباتي في الكالسا Kalsa لأقدم التعازي لمن بقي من عائلته. وعندما قبلَّت والدته المفجوعة، خاطبتني قائلة: "كان ابني يعبدك، أقنعته بأن يشتغل...". ثم همست زوجة أخيه: "لو انه يُسمَح لأَخَوَيّ فيليبو وهما جينو وجيوفاني بحضور مراسم الدفن".

والمشكلة هي ان جينو (مافيوي ملقب بجينوميترا *Gino mitra* او جينو– المدفع) كان سجينًا في اوكسياردوني، وجيوفاني كان في سجن آخر. التقيت قائد الشرطة وشرحت له الوضع، وأصرَرْتُ على أهميّة ان تظهر السلطة لعائلة فيليبو والجيران وسكان الكالسا ان الحكومة، وان عاقبت، هي ايضا قادرة على المعاملة الانسانية. وبعد يومين، عندما نقل نعش فيليبو آباتي من منزله إلى سباسيمو لصلاة الجناز، ساعدت في نقله على كتفيَّ بعض الوقت. وقد سمح لجينو وجيوفاني بلقاء أخيهما شخصيًا لوداعه في الأمس. وبعد شهرين، اخبرني القاضي المشرف على سجن اوكسيياردوني، ان سلوك

أخَوَي فيليبو، جينو وجيوفاني وغيرهما من السجناء تحسّن. قال لي: "قالوا، المحافظ اورلندو هو "ملعون" كبير بمحاربته المافيا، ولكنه انسان يشعر مع الغير".

بدا ترميم سباسيمو وكأنك رميت حجرًا في "مخزن تصميم المدينة"، مسبّبًا موجات من الفراغ في باقي المجالات. ذلك أنّ سباسيمو، مع النشاطات الثقافية التي أقيمت فيها، جذبت اليها مئات الزائرين فتغير جوارها تغيّرًا كليًا. انتشرت البارات والمطاعم الصغيرة حولها، وفتحت محالٌ بيع التذكارات. هذه الأعمال وفرّت للمكان نظافة دائمة، فصار انطفاء ضوء واحد في الشارع يؤدي إلى وضع تقرير.

تمت الأعمال في سباسيمو كما وضعناها في مشروعنا البحثي والانمائي. وبعد ان انتهينا منها انتقلنا إلى منطقة أخرى كانت مقفلة منذ عشرات السنين ومعدة للإهمال والخراب. وكان هذا المشروع قلعة زيسا Zisa Castle، وهي قلعة اقامها العرب – النورمان في القرن الثاني عشر. وبالفعل عندما كان أحد سكان بالرمو يدل على عدد كبير من المشاكل أو العوائق التي صادفته في تنفيذ مشروع ما، كان يقول غالبًا، "العدد كبير كشياطين زيسا"، لأن السقف في احدى قاعات هذه القلعة كان مغطى بالفسيفساء مع رسوم لشياطين غريبة لا تعد. وتقول التقاليد أنه لا يستطيع أحد ان يعرف تمامًا كم يبلغ عددها.

في أحد الأيام، ذهبت ومستشاري لزيارة "ما كان مصنعًا قديمًا للأثاث"، وقد شيّد في اواخر القرن الثامن عشر قريبًا جدًا من قلعة زيسا. وتبلغ مساحته تقريبًا مئتي الف قدم مربع واستعملته الحكومات الايطالية والانكليزية والفرنسية في الحرب العالمية الأولى كساحة لقاذفي القنابل النارية قبل ان يعود إلى وظيفته الاولى، وهي انتاج الكراسيّ المشهورة عالميًا بطرازها الفنّيّ الجديد. بعدها هُجر المصنع ووقع في النسيان. هذا الرمز للفن المعماري الصناعي في القرن التاسع عشر كان من المفترض ان تهدمه المافيا سنة 1950 عند استباحة بالرمو ليقوم مكانه "أبنية سكنية". ولكن عدم فعالية الادارة الايطالية أنجد الموقف، وبقيت غرف الاجتماع القديمة في المعمل قائمة. وردت في ذهننا، أنا

ومستشاري الثقافي، نفس الفكرة في نفس الوقت: يوجد هنا مساحة كبيرة يجب ان تصبح مركزًا ثقافيًا.

لم ننتظر ورود اموال لبندأ بالعمل كله، بل بدأنا ترميم الغرف واحدة تلو الأخرى. الغرفة الاولى كانت القاعة البيضاء White Gallery فتحت للمعارض الفنية، تبعتها الثانية للانتاج المسرحي، والثالثة لمسرح مدرسي، ورابعة للاداء الموسيقي. ثم وردتنا الفكرة التالية: بما ان صقلية هي خليط من الثقافات والاديان والأفكار المختلفة يجب ان نوفر مكانا حيث يمكن مشاهدة هذا التنوع. فكانت مكتبة التباينات Library of Difference، وكذا قررنا ان نسميها. احتوت المكتبة على غرفة قراءة، حيث يتمكن المواطنون من مراجعة الكتب في تاريخ صقلية وماضيها، وعقد الاجتماعات، وتبادل المناقشات حول فكرة التباينات الثقافية التي تربطنا بعضنا ببعض والتي يمكنها ايضا ان تفصلنا.

أردنا ان يجذب مركز زيزا الثقافي *Zisa Cultural Center* كل العائلات لا المثقفين فقط. لذلك صمّمنا لحدائق وملعب للأولاد مع كافيتيريا. ولم يلبث المركز الثقافي ان اصبح مكانًا يقصده أهل بالرمو والسيّاح ايضًا. واليوم يبدأ العمل بالمشروع الأكثر طموحًا في المركز، وهو متحف للفن المعاصر يحتضن مجموعة من الفنون العالميّة وأوجدنا ايضا للفنانين مكانًا للعمل ولابداع لوحات المستقبل الكلاسيكية.

| | |

الرمز الكبير لحركتنا بتجديد المجتمع كان مسرح ماسيمو Teatro Massimo الذي صمّمه المهندس المعماري الكبير في بالرمو فيليبو باسيل Filippo Basile، وهو قصر الاوبرا Opera House، وعمره سبع وسبعون سنة. ولكنه أقفل سنة 1974 "موقّتًا" و"لاعمال ملحّة" . عَقْد تأهيله يبلغ عدة ملايين من الدولارات، وقد لُزِم للحال إلى شركة على علاقة بالمافيا. وبدون تعجب، مرَّت السنون، والمال يتبخر، ومسرح ماسيمو وقع في

النسيان. فمنذ اقفاله، ولعشرين سنة، لم يُعَدْ فتحه الا لمرة واحدة لتصوير الاوبرا والمقطع الاخير من الجزء الثالث من فيلم "العرّاب" The Godfather عندما قتلت ابنة ألـ باتشينو Al Pacino على رأس الدرج المؤدي إلى المدخل. في أثناء ذلك كان محبو الاوبرا في بالرمو يفكرون باستمرار: انها قضية أشهر وسيفتح مسرح ماسيمو أبوابه من جديد. ولكن الجزء الوحيد الذي استعمل منه خلال تلك السنوات كان نادي الطباعة القديم Press Club الواقع في احدى غرف الطابق السفلي حيث رجال مثل فيتو تشيانتشيمينو وستيفانو بونتاتي كانوا يلعبون "الورق" مع أصحابهم.

ولأنه اصبح رمزًا موحشًا لقوات اغتصبت من مدينتنا حيويتها وسيطرت على قدرها الثقافي، حَاوَلْتُ ان اعمل أي شيء لمسرح ماسيمو في ولايتي الاولى كمحافظ في الثمانينات، فرفضت السلطات البلدية والاقليمية والوطنية كلها ان تقدم لي أي مساعدة. في التسعينات، كان الوضع اكثر ملاءمة، ووجدت أن طرقًا أخرى للتمويل يمكن ان تتوافر، وخصوصًا اذا توافرت ضمانات بعدم اختفاء الاموال بطريقة غير معللة. فتململ بعضهم: لماذا يكون قصر الاوبرا في رأس الاولويّات، وتترك المشاكل الكثيرة التي تواجهنا؟ كان الجواب سهلاً علي: اعرف ان اعادة فتح مسرح ماسيمو هي العلامة الملموسة التي تثبت ان بالرمو فعلا انطلقت في نهضتها، تمامًا كما، في سنة 1946، كانت اول علامة لولادة ميلان الجديدة بعد الحرب المدمرة اعادة بناء لاسكالا La Scala.

بَاشَرْتُ "معركة" شرعية تجعل المدينة قادرة على استعادة السيطرة على مبانيها. وعندما حققت ذلك، استؤنف الترميم من جديد. وكما في مركز زيزا الثقافي رأينا من المهم الا ننتظر ان تتم اعمال الترميم نهائيًا قبل ان نفتح المسرح للشعب. قلنا اذا رأى المواطنون أن العمل انطلق سيضعون جانبًا طبيعتهم الاستخفافية بوعود السياسيين.

عندما حان وقت افتتاح الحدث، أتينا بجوقة موسيقية دولية شهيرة لتحيي على المسرح الحفلة الاولى. اتفقنا على فرقة برلين "الفيلارمونيك" ورئيسها كلوديو ابادو

Claudio Abbado، وهو ليس ايطاليا فحسب بل أمُّه من بالرمو. وأكثر من هذا، فشهرته كمدرب وناقد شديد لفرقته تترك الحضور يشعر بأنه اذا قبل المجيء بفرقته إلى ماسيمو، فهذا يعني ان عملنا جيّد. في اواخر سنة 1995 ذهبت إلى برلين لاجتمع إلى المايسترو آبادو Maestro Abbado في مطعم صقلي في وسط برلين. وفي نهاية لقائنا، وافق أبادو مبدئيًّا على ادارة حفلة افتتاح مسرح ماسيمو، ولكن فقط اذا كان المسرح فعلا يلبي الشروط القصوى، واذا تقرّر تاريخ نهائي للافتتاح. هو يعرف الكثير عن بالرمو، ويرفض المشاركة في اعادة افتتاح محدودة لأسباب سياسية.

اتفقنا على ان يكون الافتتاح في احد ايام ايار 1997 الذي يناسب عيد مولد ماسيمو المئوي أي مرور مئة سنة على بنائه. اعطانا اذًا مهلة تقل عن سنة ونصف لننجز ما لم يتم انجازه خلال عشرين سنة. وفي سباق مع الوقت، مددنا اليد للرعايات الشخصية. وسرّني جدًا ان تساند صحيفة جيورناليه دي سيسيليا فورًا لا باعطاء هبة ترميم للغاليريا بكاملها فقط بل روَّجت بالدعاية على صفحاتها بما سمته "عملية ماسيمو" Operation Massimo، بنشرها كل يوم بيانا حسابيًا يبين كم هو المبلغ الباقي المتوجب لانجاز المشروع. وهذا ما حمل عدة متعهدين على التبرّع بالمال وعدة حرفيين على التبرّع بمواهبهم.

كانت الأعمال تسير مع دوران الساعة ليل نهار. وفي 12 ايار 1997 كانت ليلة الافتتاح. اعمال التأهيل والترميم انتهت في الساعة 8،45 من ذات الصباح.

وصلت فرقة برلين الفيلارمونيك The Berlin Philarmonique إلى بالرمو قبل يوم من الاحتفال، وفي الساعة التاسعة من قبل ظهر 12 ايار 1997، ادخل إلى المسرح خبير الصوت في الاوركسترا. وبكل مهابة ووقار اخذ مكانه على خشبة المسرح، ينظر حواليه، رفع يده اليمنى وضرب نوطة واحدة نقية طنّت ثم اختفت بعيدًا: "نن" *Nein*.

وكأن السلبية الالمانية سمعت صوت رنة الموت أي نعي ماسيمو، وكذلك نعي صدقية الادارة التي أُشْرِفُ عليها. نظر العمال بعضهم إلى بعض وعيونهم حمراء من التعب واليأس.

نظر كل منا إلى هذا الرجل متعجبًا مذهولاً، وقد اصبح مصيرنا بين يديه، وهو ينظر حواليه وكأنه يفتش عن شيء ثم قال بالالمانية "ربما... الغطاء الذي وضعتم حول المنصة". وعلى الفور خلع الغطاء المخملي الجميل الذي يغطي المنصة، وأخذ عمال الخشب يعالجون المنظر.

الساعة الرابعة بعد الظهر، أي قبل ساعتين من موعد الافتتاح الرسمي للمسرح، حاول خبير الصوت من جديد، ولكن هذه المرة كانت الكلمة السحرية:

"ييا!" *Ya*!

في المحلات، وفي بارات بالرمو، وفي الشوارع وساحات التجمع الخارجية، كان الحديث مركزًا لأسابيع طويلة حول امكانية انجاز الاعمال في مسرح ماسيمو في الوقت المحدد. الذين لم يحضروا في حياتهم أية اوبرا او سمفونية كانوا ينظرون إلى ذلك وكأنه كأس العالم. من يكون الرابح؟ القوات العاملة او قوات الجمود والموت؟ عندما اصبح واضحًا أننا وصلنا إلى حد الأمد، قررت محطة التلفزيون الصقلّية المحليّة ان تنقل الحفلة الموسيقية مباشرة، في نفس الوقت على قناة التلفزيون، وعلى شاشتين ضخمتين في الخارج ليتمكن الحشود من رؤيتها: احدى الشاشتين في بيازا بريتوريا والاخرى في بيازا فيردي، بجانب مسرح ماسيمو بالذات.

بالرغم من امكانية هطول الأمطار، كانت الساحتان مكتظّتين بالحضور قُبَيْل العصر. عندما باشر الناس الوصول وصعود الادراج نحو المدخل تحت العواميد الجبارة، كان سكان بالرمو يصفقون، وكأن كل شخص يدخل ماسيمو يُرَحَّب به لأنه شاهد على هذا النصر الكبير.

دخلت المسرح مهرولاً كالعادة، ولكن في الوقت المحدَّد، وفي هذه المناسبة الانفعالية والمثيرة للشعور. رفع ابادو المخصرة قبل بدء برنامجه براهمس Brahms، وسمعنا نوتات وكلمات خورس فيردي Verdi من نابوكو Nabucco، غناها خورس ماسيمو الخاص مع فرقته: "*Fly memory on golden wings*...". وهذه كانت آخر موسيقى سمعت في ماسيمو قبل ثلاثة وعشرين عامًا من اليوم في آخر حفلة قبل اقفاله. الآن، وعلى هذه النوتات ذاتها، يعود مسرح ماسيمو إلى الحياة. عندما زالت اصوات فيردي، لعبت فرقة برلين الموسيقية الفيلارمونيك السمفونية الاولى والثالثة لجوهانس براهمس.

بعد ذلك كان الصراخ والهتافات اللامتناهية تتواصل. نزلنا كلنا درجات ماسيمو. هذه الادراج التي شهدت افلام اغتيالات المافيا، ولكن لمرة أخرى يقودنا الدرج إلى مسرح كبير للأوبرا. كانت الساحة ملأى بالحشود التي عجَّت بنا وبأولئك الذين عاشوا هذه المعجزة، وكأنهم يستبقون مشية النصر لعايدة Aida التي فعلاً افتتحت موسم الاوبرا في ماسيمو بعد عدة اشهر.

| | |

سبازيمو وزيزا وماسيمو كانت الجواهر بل التاج نفسه الذي ضم 158 كنيسة و400 ساحة و55 ديرًا و 7 مسارح كان علينا ان ننقذها من نظام "البغض" و"القباحة" الذي حكم به عليها المافيويون ومحازبوهم لتتدحر. وبعد سنوات الإهمال والاضمحلال كان التحدي الذي واجهناه كبيرًا، اذ التزمنا بإعادة هذه الابنية إلى سابق مجدها وبهائها.

اجرينا اعمال الترميم، وأولينا النظافة اهتماماتنا، وفرشنا الطرقات زفتًا ومدَدْنا المجارير. العيون القديمة التي كانت لسنوات طويلة جافة ومهملة مرة أخرى عادت تصب المياه، وحيثما توافرت لنا المساحة انشأنا مجالات خضراء. وتأثر الشعب مباشرة، وبخاصّة المقيمون وأصحاب المحّال الذين دُعوا إلى التجمعات والاجتماعات لمناقشة

التصاميم والاقتراحات والحاجات التي ربما لم يفكر بها المخططون. وعندما لاحظنا أنها جيدة ورأينا امكانيةً لتطبيقها لم نتأخر بإدخالها في المشروع.

يجب توافر مبالغ طائلة لترميم هذه المباني بشكل لائق، وتوافر الأمن، وخصوصا احترام البنية الأساسية. ولكن التمويل وفَّره المجتمع الاوروبي، وجزء منه منطقة صقلية والجزء الآخر البلدية نفسها. ولتشجيع اصحاب الأملاك الخاصة على ترميم املاكهم – اكثرهم تركوا بيوتهم اثناء سنوات القتال في بالرمو – اعطينا مساعدات مالية تصل إلى 40% من تكاليف التأهيل شرط ان يحصل المالك على رخصة **تصميم** للترميم. هذه المساعدات اعطت نتائج عظيمة: سكان الوسط التجاري الذين كان عددهم ينقص يومًا بعد يوم خلال السنين أخذ ينمو. وانطلق الوسط التجاري ينبض بالحياة من جديد.

بينما كانت المدينة تنزع عنها ثوب الكآبة والاهمال، كانت ادارة التربية تستحوذ على جهودنا المستمرة منذ الثمانينات. ومع ذلك اكثر من 40% من الأطفال لم يتابعوا دروسهم، حتى لم يدخلوا المدرسة بتاتًا. فكان المستوى "أمية" أو "نصف أمية" لا ترضى به أية مدينة حديثة عادية. نظرنا إلى ذلك وكأنه تحدٍ، وفي اواخر التسعينات سقطت هذه النسبة إلى الثلثين، والمعهد الايطالي للاحصاءات يعتبر مدارس بالرمو مثلاً يقتدى به. وهذه معجزة لمن عرف حالة المدارس في مدينتنا قبل سنوات.

أردنا ان نلقن اولادنا تربية تقوم على اساس مهارات ثقافية واكاديمية، واردنا ايضا ان نربيهم على الاهتمام بتراثهم والحفاظ عليه، وألاّ نسمح للكوزانوسترا بسرقته بعد اليوم. وكان برنامج وضعته بالرمو: "تبّنَّ معلمًا اثريًا" Adopt a Monument. افتتح البرنامج في شباط 1995 في مسرح بالرمو للفن – الفخم والجديد – مسرح بوليتياما Teatro Politeama لان للذاكرة دورًا في استرداد تاريخنا، واهدي البرنامج لذكرى جيوفاني فالكوني وفرنسيسكا مورفيللو وباولو بورسيللينو "وكل الذين قدموا حياتهم لتحرير بالرمو".

كنت على المنصة، ارتدي وشاح المحافظ الرسمي – اخضر وأبيض واحمر وهي الوان العلم الايطالي المحاط بالشرابات الذهبية – محاطًا بموظفين من البلدية في لباسهم الرسمي، وماريا فالكونيه وريتا بورسيللينو اختي القاضيين الشهيدين، وبغيرهم من اعضاء عائلات استشهد بعض افرادها. وعندما نظرت إلى "بحر" الاولاد وقد ظهر الحماس على وجوههم قلت: "تمامًا كما ان الولد بالتبني هو ولد تركه والداه، ولكن هو بحاجة إلى محبّة أهله الجدد وعنايتهم، كذلك عليكم ان تكونوا أهلا للموقع التراثي الذي تتبنونه. عليكم ان تتعرفوا إليه وان تحبوه، ان تعتنوا به وتُعَلِّموا الآخرين على حبه واحترامه. تذكَّروا، ما كان **أكثر** اهمالاً هو بحاجة إلى **أكثر** من الحب".

اختار تلامذة كل مدرسة وكل صف من المشتركين في البرنامج مندوبًا عنهم صعد إلى المنصة. اعطت ريتا بورسيللينو وماريا فالكوني كل مندوب "شهادة تبنٍّ" رسمية تحمل توقيعي. ثم اعطي كلّ تلميذ حاضر ايقونة خاصة بالمناسبة وعليها رمز بالرمو، نسر جناحاه نصف ممدودين.

لم نتخيل يومًا في احلامنا البعيدة ان يلاقي المشروع نجاحًا من هذا النوع. مشاركة التلامذة الكثيفة وحماسهم امتد للاساتذة والعائلات والجيران. ساعد الاساتذة التلامذة على إجراء الابحاث في التاريخ عن مواقعهم الاثرية، لا في الكتب فقط بل بإجراء مقابلات مع الخبراء المحليين، والأهم ايضا مع السكان المسنّين الذين ايقظوا الذاكرة بسرد معطيات غير مكتوبة عن الماضي، والتي كان من نتيجتها ان يفطنوا لاشياء لم يذكرها تاريخ بالرمو.

بعض الاشخاص قدّموا رعايات وتبرّعات لترميم معالمهم الاثرية كعربون شكر لحماس وثبات هؤلاء الشباب "الوالدين" الذين اخذوا يتنافسون في انهاء ترميم معلمهم ليمكن افتتاحه اولاً وقبل المعالم الأخرى. والمتعهدون واعضاء ناديي اللايونز والروتاري وحتّى اللحّام في زاوية الشارع كان يأتي ويقدم هبة مادية للمساهمة في هذا المعلم الأثري أو ذاك.

كان لهذه القصة الصغيرة التي تعبر عن روح المجتمع الصقلي اثر في الولايات المتحدة الاميركية. ما جرى هو لبالرمو، ولكن كان في مغزاه اكثر عمقًا: قصة شعب انكروا عليه طويلاً خريطة ليعيش فيها، يستعيد اليوم السيطرة على ارضه كلها وينتزعها من ايادي الاعداء. بالرمو التي استعملت وكأنها صحراء تملأها الخيم وكل خيمة فيها لعائلة مختلفة او قبيلة او اخوية أو طبقة اجتماعية أو تجمع سياسي مع مساحات فاصلة no-man's land لا يشغلها ولا احد يهتم بها او يعيرها الشأن. برنامج "تبنَّ معلمًا اثريًا" Adopt a Monument غيَّر كل هذه الأمور. زرع بذور الوعي لـ "الشيء العام" والشأن العام الذي هو ملك الجميع. ان يعي الكل ان هذا ليس "لك" أو "لي" بل هو "لنا". ولذلك يجب ان نعتني به معًا ونحافظ عليه. ومع بدء استعادة المواطنين السيطرة على المجال العام، عرفت الكابومافيا ان زمانها قد ولى.

في بدء هذا البرنامج 80 بالمئة من مكاتب الهندسة المعمارية الكبيرة كان مقفلا باستمرار. خلال سنة واحدة تم تبني 160 معلمًا اثريًا. اكثر من 60 بالمئة منها انجزت وافتتحت والباقي قيد الترميم. نشرت مديرية التربية عدة مجلدات جمعت فيها الابحاث التاريخية الرائعة، والمقابلات التي اجريت وصور الأبنية التي انجزها التلامذة. هل يسمح الشباب الذين بذلوا هذه الجهود الكبيرة والطاقة والحب والاعتزاز باكتشاف واستعادة تراثهم الموروث لأي قوة خارجية أن تأتي من جديد وتسرقها من بين أيديهم؟ لا أظن. اظن انهم سيستمرون في حب وحماية لا معلمهم "الخاص" بل ايضا كل المعالم الأخرى في المدينة. واظن ايضا ان مدينة ساحاتها العامة محبوبة ومعتنى بها هي مدينة مجالات اللاقانون واللاشرعية ضيقة فيها.

| | |

خطوة أخرى في مسيرة احياء مدينتنا اصبحنا في حاجة ملحة اليها هي الاعتراف بحاجات الاخرين. ونحن سائرون على طريق نهضتنا كانت الصحافة الدولية تملأ صفحاتها اخبار فظائع الحرب الأهلية في منطقة أبخازيا Abkhazia، وهي مقاطعة من جمهورية جيورجيا نالت استقلالها من وقت قريب. كنا نرى كلنا صور العائلات المفجوعة تاركة بيوتها ومتوجّهة نحو تبيليسي Tbilisi العاصمة وإلى بالرمو ايضا. وتبيليسي هي المدينة الشقيقة التي قدمت لي ولزوجتي وابنتيّ ملاذا مقدسًا في وقت لم تكن الدولة الايطالية قادرة على توفير سلامتنا. أنا شخصيًا كنت مدينًا معنويًا لجيورجيا، ولا يمكنني ان أنسى الرسالة التي وجّهها إليَّ ادوارد شفرنادزه رئيس جمهوريتها، وكان في ذلك الحين لا يزال وزيرًا للخارجية في حكومة ميخائيل غورباتشيف وفيها يعبر عن تضامنه الشخصي وتضامن بلاده في "المعركة من اجل بالرمو".

سنة 1994 اتصلت بالسلطات في تبيليسي، وتقدمت بدعوة لاستضافة ثلاث مئة ولد جيورجي من منطقة ابخازيا للاقامة في ربوع بالرمو لثلاثة أو اربعة اشهر في فصل الصيف. استقبلت الاطفال، وكلهم أيتام، في المطار في بدء هذا الصيف الشاحب، بوجوههم المذعورة وعيونهم الكبيرة وأجسادهم النحيلة. كنت أنظر إلى العائلات المضيفة تقبل هؤلاء الاولاد، وانظر إلى عيون الأمهات الصقليّات مغرورقة بالدموع، وقد قررت بعزم ان "تسمن" هؤلاء الاطفال المساكين وتحضنهم وتضمهم وتتشوق لتعطي بعض اللون والبسمة إلى وجوههم "الشاحبة". وظهر للعيان كرم الشعب الصقلي النموذجي وهو من طبيعتنا. وكان ثمّة تفهُّم من قبل الصقليين لأنهم عاشوا الاحتلال في تاريخهم.

بعد هذه السنة الاولى، نشأ تجمع من العائلات للاستمرار بهذا البرنامج. واليوم يصل إلى بالرمو كل سنة اربع مئة ولد جيورجي تقريبًا تستضيفهم العائلات بمبادرة شخصية. وقد وصلني في السنة الماضية رسالة من مكتب السيد شفرنادزه يشكرنا فيها ويقول بافتخار "هذه السنة يمكننا دفع ثمن الوقود لنقل الاطفال من تبيليسي إلى بالرمو.

نأسف لا نستطيع ان ندفع تكاليف العودة، ولكن ربما في السنة القادمة يكون باستطاعة الحكومة الجيورجية ان تغطي كامل النفقات".

| | |

سنة 1994 قرّرت أن أترشح للبرلمان الاوروبي، وأنا اعلم ان هذا يعني السفر المنهك ذهابًا وايابًا إلى بروكسيل وستراسبورغ حيث مكان البرلمان. ويتطلب منّي كذلك عملاً اضافيًا وطاقة اضافية، وخصوصًا اذا استمرَرْتُ في اعطاء عملي كمحافظ لبالرمو حقه. ولكن اعلم ايضًا ان المافيا ولو دُحرت في صقلية فهي في ارتقاء كظاهرة دولية حتّى اصبحت محاربتها كذلك دولية. وكان هذا شيئًا فهمته الأجهزة التي لسنوات عديدة طبقت القانون. لكن المجالس التشريعية في دول اوروبية عديدة لم تتفهمه بمقدار كافٍ. اليوم، اقول مافيات في صيغة الجمع (Mafias)، لأن ظاهرة الجريمة المنظمة تطورت ونمت عشرة أضعاف منذ تفكك الاتحاد السوفياتي والدول التي تدور في فلكه. مافيا دولية اخترقت اوروبا ماليًا واجراميًا، فبات الآن من الضروري انتشار انتي مافيا اوروبية ايضًا.

يعتبر أي عضو في البرلمان الاوروبي نفسه ناجحًا اذا حصل خلال تولّيه المنصب على قانون واحد. وبسبب الأهمية المعترف بها لقضية الجريمة المنظمة، حصلت على ثلاثة قوانين كلها تعالج مشاكل تطرحها اجرامية المافيا. الأوّل طلبت ان يطلق عليه اسم برنامج فالكونيه Falcone Program تكريمًا لذكرى صديقي المغدور به، وجوهره تبادل المعلومات، والمعطيات، والموارد بين منفذي القانون والاستخبارات وعناصر التحقيق والقضاء في كل دول الاتحاد الاوروبي. الأسباب الموجبة التي ذكرتها لهذا القانون هي لو ان جيوفاني فالكونيه ورودولف جيولياني لم يتبادلا المعلومات لما توصلا الى تفكيك شبكة المتاجرة بالمخدرات في عملية بيتزا كونكشن Pizza Connection التي ربطت صقلية بالولايات المتحدة الاميركية. لا حدود لمحاربة المافيا.

القرار الثاني يطالب بالحاح ان يمتد القانون الايطالي الذي يعتبر مجرد العضوية في تجمع المافيا جريمة او عمل اجرامي إلى قوانين كل الدول الاعضاء في الاتحاد الاوروبي. قال بعضهم في ايطاليا، بالطبع، ان هكذا قانون هو خرق للحريات المدنية، وكذلك كانت الحجج التي قدمها بعضهم في المناقشات امام البرلمان الاوروبي. كان جوابي بسيطًا، ان كوزانوسترا والمنظمات الاخرى التي هي من نوع المافيا، كالمافيا الصينية The Chinese Triads، والمافيا الروسية، والكارتيل الكولومبي – نذكر فقط هذه الثلاثة – لا تناقش المجتمعات وتبادلها الأفكار. يوجد منظمات اجرامية تتعاطى تجارة السلاح والمخدرات والمواد النووية والمخلوقات الانسانية وليس أي منها يعود بالنفع على المجتمع.

القرار الثالث الذي قدمته إلى البرلمان الاوروبي كان يرتكز على قانون ايطالي، قانون رونيوني – لا طوريه Rognoni-La Torre Law الذي يعطي الدولة حق وضع اليد على المقتنيات التي كانت نتيجة نشاط اجرامي مافيوي. بدفاعي عن هذا القرار، اشرت إلى ان هكذا قانون يضرب المافيويّين حيث يجب، أي في جيوبهم. فاذا لم يطبق هذا القانون في غير ايطاليا، تنقل المافيا استثماراتها إلى أي مكان أخر كما فعلت لسنوات. سيرتعب كثير من البريطانيين عند اكتشافهم كم من فندق وكم من مطعم، وكم من عقار هو ملك لعائلات المافيا. ونفس الشيء يحصل لمواطنين كثيرين في فيينا إذ سيفقدون صوابهم متى دروا كم من فندق رائع في عاصمتهم الجميلة هو ملك للمافيا. وكل هذه اليخوت الخلابة على شواطئ كوستا ديل سول Costa del Sol الاسطورية سوف تهز الاسبانيين في مضاجعهم اذا علموا انها اقتنيت بأموال المافيا.

لعشرات السنين كانت صقلية تصدّر داءً خطيرًا إلى آخر حد من الخطورة. الآن، ولأول مرة، من خلال هذه التشريعات الاوروبية، نصدّر للعالم دواء جديدًا وناجعًا لمحاربة هذا الداء. طوال تلك السنين كنا جزءًا من المشكلة، ولكن اليوم اصبحنا جزءًا من الحل.

13

انتصار الذاكرة على النسيان

"لوتشيتو، انتبه! او تموت!"

هذا التنبيه المزمن من أهلي الذين دلّلوني اصبح نوعًا من البلوى في شبابي عندما كنت اناضل لأجد مكانًا لنفسي خارج الهوية الارستقراطية الضيقة حيث ولدت. وكان ايضا تنبيهًا فطنت اليه اكثر وأخذته بعين الاعتبار في السنوات القليلة الماضية. في حربنا ضد المافيا، كنت اجهد نفسي بشدة، بمعدل ثلاث أو أربع ساعات نوم في اليوم بما فيه "الويك اند". كنت اشرب فناجين "الاكسبرسو" طوال النهار لابقى متيّقظًا. لم يكن ليقر لي قرار. كنت أتنقل دائمًا في الطائرات والسيارات المصفّحة. نشاطات لم توفّر لي أي مجال للقيام بتمارين جسدية فعلية. كنت اتناول الطعام عرضًا ومصادفة، وهو دائمًا طعام غير صحي زادني وزنًا وبدانة.

سنة 1994 اصابتني التهابات رئوية. لم أكن لأتنبَّه لها أولا، وكنت أتابع عملي كالمعتاد، كانت النتيجة ان انتهيت في المستشفى مع نزلة صدرية قاسية. لم أكن لأنزعج أو لأهتم كثيرًا، اذ تذكرت وعكتي الاولى ودخولي المستشفى للسبب نفسه عندما كنت صبيًا واكتشافي ستاندال Stendhal لأول مرة. ولكن بعد يومين دخل رئيس الأطباء غرفتي مضطربًا، وقال: "انني خائف، ليست مجرد نزلة صدرية، عندك سرطان في الرئة".

كانت ساعة رهيبة. ولم تكد كلمة سرطان تدخل ذهني حتى شعرت بالارتياح والفرج. وبالأحرى كأن حملا ثقيلاً نزل عن كتفيَّ: عندما فكرت في ذلك بعد حين فهمت أن اعتقادي الذي رافقني طوال حياتي بأني سأموت موتًا عنيفًا اصبح جزءًا مني. ففكرة ان أموت ككل شخص آخر، لأسباب طبيعية، جعلتني اشعر فجأة بأني انسان طبيعي.

ولأن نهضة بالرمو كانت لا تزال في مرحلتها التجريبية، لم أشأ ان تعمم اخبار مرضي، وقدَّرت أنني اذا بقيت في المستشفى وقتا طويلاً في مدينة تعوّدت كثيرًا الهمس والوشوشة، سيستعمل السياسيون المرتبطون بالمافيا الكلام عن صحتي، وسيفكرون في العودة إلى سياسة الماضي. بعد ايام قليلة عدت إلى البيت، وكنت أتردّد إلى المستشفى كل فترة لاجراء "فحوصات عادية".

أظن ان أسوأ يوم في حياتي كان بعد ظهر أحد أيام الآحاد، وكنت مستلقيًا في سريري في البيت عندما رنَّ جرس الهاتف. كلَّمني من نعتبره أهم طبيب اختصاصيّ في السرطان في صقلية. قال لي بصراحة قاسية: "لوكا، انا لست طبيبك الخاص ولكني رأيت صورة الأشعة والفحوصات الأخرى، فلا وقت للضياع. لقد أَخَذْتُ لك موعدًا للغد في أحد مستشفيات ميلانو حيث تجرى لك عملية جراحية فورًا. اذا اجرينا العملية الآن، ربما يمكننا اجراؤها، ولكن من الممكن ان تكون ايامك معدودة".

وضعت سمّاعة الهاتف. لقد وصلتُ إلى نهاية الطريق. ولكن على الاقل سأموت في سريري وليس في شوارع بالرمو، ولا أكون جثة أخرى من الجثث المشهورة مضرَّجًا بدمائي على الطرقات.

لم يفكر طبيب عائلتي في اجراء العملية بشكل ملّح. يمكنني القول أنه ابى ان ابدأ فورًا بعلاج جذري. قبلت برأيه أي الانتظار ومراقبة التطورات. واكتشفت فيما بعد انه سافر سرّا إلى ميلانو مع مجمل الفحوصات والمعطيات، وتشاور مع أشهر اطباء الاختصاص في ايطاليا بخصوصي.

مرت الأسابيع وبقيت تظهر العلامة السوداء في صور الأشعة لرئتي، ولكنها لم تكن تظهر بأنها تنمو وتكبر. أجرى الطبيب عدة فحوصات، كانت تعطي نتائج ملتبسة غير واضحة الدلالة. وبعدها مع الوقت كانت تظهر صور الأشعة – اكس أن الظل في رئتي اخذ ينقبض ويتقلص، إلى ان اختفى بعد عدة أشهر. والذي أصابني هو حالة خطيرة من الالتهاب الرئوي مع مضاعفات مرضية. اليوم ولدت من جديد ولي حياة اضافية أعيشها.

| | |

لأول مرة منذ التزامي الحياة السياسية اقضي اوقاتًا طويلة مع عائلتي. واذا عنيت بهذا القول ابنتيَّ، يكون لأول مرة منذ أن رأتا النور. اولتاني كل اهتمام وغمرتاني بالمودة والحنان. ومع الوقت اكتشفت كم هي ثمينة هذه العلاقات التي اعتبرتها مضمونة منذ زمن بعيد. لقد اعطيت لحياتي العامة كلّ شيء، بقي القليل او لا شيء لحياتي الخاصة.

فترة نقاهتي في البيت في بالرمو كانت مفيدة ونافعة. ولكني بقيت اشعر بالقلق بخصوص نكستي الصحية وهذا الشيء القريب من السرطان. بالاضافة إلى ذلك فوز سيلفيو برلوسكوني Silvio Berlusconi من ليبرتي اليانس Liberty Alliance شغلني كثيرًا، لأنه سيؤدي إلى تجميد وتعطيل كل تغيير حقيقي في البلاد، وفي صقلية. بعد سبعة اشهر سقطت حكومة برلوسكوني فقررت أخيرًا ان أترك كل الأمور ورائي، وخططت مع ميللّي لقضاء اسبوعين في مستشفى في بريسانون Bressanone في شمال شرقي البلاد في منطقة التو آديج الايطالية Alto Adige قرب الحدود النمساوية. خصصت خمسة عشر يومًا لأتعافى.

كان مبنى المستشفى كبيرًا من الطراز النموذجي لجنوبي التيرول يقع على ضفة نهر آديج Adige في بريسانون تحيط به روضة جميلة فاتنة. كان الزمان ربيعًا، وكان

الهواء منعشًا عطرًا، والشمس تتلألأ على المساحات الخضراء الواسعة. وكأنني طرت إلى الجنة!

استقبلتنا فرو ماريا Frau Maria، وهي ممرضة لطيفة المنطق تتميز بالدقة والاقتدار، فأيقظت في ذاكرتي طفولتي مع فرولين Fraulein. دلتنا على الغرفة، واعلمتنا بأن العلاج يبدأ فورًا مع علاج بالماء لتنظيف الموبوءات من الجسم: "الماء ولا شيء سوى الماء". تبادلت مع ميللّي نظرات متخوفة. في الخارج على المساحات الخضراء الجميلة دعتنا الكراسي المزخرفة للجلوس، وبجانبها طاولات الحديقة، وعلى كل طاولة كؤوس وابريق من الماء: "الماء ولا شيء سوى الماء". عندما أخلدنا إلى النوم في تلك الليلة، كانت أصوات أمعائي وأصداؤها تمزق سكون الغرفة.

يبدأ النهار باكرًا جدًا، عند السادسة صباحًا، وحين يوقظني وانياريان سيغفريد Wagnerian Siegfried، وهو طويل الشعر، أزرق العينين، عريض الكتفين، يدخل الغرفة متبخترًا، فيخلع عني ثياب النوم بسرعة، ويقودني إلى غرفة بيضاء ناصعة في الطبقة السفلى. ثمّ يمدني على نوع من طاولة، ويبدأ بسحق جسدي بشدة، وبعد هذا التدليك الوحشي يختفي. ولم أكَدْ ابدأ تنفّس الصعداء حتى يعود فجأة حاملاً كيسًا كبيرًا من الحبوب الحّارة ويضعه على معدتي. صرخت صراخًا شديدًا، وانا ممدَّد هناك مضروب ومحروق، فسألني سيغفريد: "ألا تشعر الآن بأنك تحسّنت؟"

أشرت بنعم لئلا يأتي ثانية، ولكنه دلَّني برأسه نحو حمامات المياه، وقال آمرًا: " إلى هناك".

ارتحت لفكرة ان أتعافى تحت الماء الحار، ولكنه رفع رأسي إلى فوق ليسقط الماء عليه، ثم ينزل ليغسل بلطف جسدي الموجوع. وحين صرخت وشهقت لأتنفس، ما كان من سيغفريد إلا ان انتقل إلى الماء القارس، بل الماء المجلد. هربت منه بسرعة أفتش وأتحسس جلبابي (روب الحمّام).

ابتسم سيغفريد وقال: "الماء البارد يساعد الدم على السريان بطريقة أفضل".

فأجبته واسناني تصطكّ: "نعم"

وهرولت عائدًا إلى غرفتي وتبادلنا الاخبار. لاقت ميللّي نفس المصير، ولكن مع فالكيري Valkyrie وهي صورة اخرى لسيغفريد.

بعد يومين كاملين من علاج الماء – الماء ولا شيء سوى الماء – كلّمني الطبيب، وسمح لي بتناول أيّ طعام أريد، وأراد ايضا ان يحدد الكميّات.

كانت عودة إلى الحياة. قرأت لائحة الطعام. أطباق تسارينا ريزوتو مع السمك والفودكا، بيتزا كابريسيوزا، معجنات بالسردين والفستق... وتنبهت إلى ألاّ اكون شرها لهذه الغاية، فقلت بعدم مبالاة، وبطريقة مصطنعة: "اعطني فقط بعض المعجنات والبازيلا".

ابتسم الطبيب وقال: "طبعًا"!

وعندما غادر وبَّختُ نفسي. ما الذي دفعني لأطلب المعجنات والبازيلا، هذه الأشياء لا تطلب في المطاعم. ألم نأكل هذه الأطباق في البيت؟ ولكنْ في هذا المساء أسكتّ أصوات أمعائي، وأنا أحلم وأركن إلى صحن المعجنات مع البازيلا والزبدة المهبلة والكثير الكثير من جبنة البارموزان.

تفتح غرفة الطعام في المستشفى في الثانية عشرة ظهرًا تمامًا. في الحادية عشرة كنت امام ابواب الغرفة الزجاجية المقفلة. في الحادية عشرة واربعين دقيقة كان صف المرضى "الجياع" الذين ينتظرون الدخول قد أصبح طويلاً جدًا. عندما فُتحت الأبواب أخيرًا ، دخلتُ وجلست. وأخيرًا ايضا حضر الطبق الذي حلمت به لساعات: قضبان معدودة من المعكرونة مع خمس حبّات بازيلا.

في اليوم الخامس، كنا ممدّدين تحت الشمس ننتظر الطعام لنأكل نصف جزرة وحبة زيتون، فسألتني ميللّي: "لوكا، كم يكلفنا الموت جوعًا؟"

أجبتها. نظرت إليّ بدهشة، وقالت: "بحق السماء، يمكننا الموت جوعًا في البيت... بدون ثمن!"

وتركنا على الفور.

| | |

عندما تصل إلى وسط وضع ما أو منتصف الطريق مثلا، كحربنا ضد المافيا لمدة طويلة، تشعر غالبًا كم من التغيرات الصغيرة الرائدة اضيفت اليه. فهذا يشبه تماما نظرك إلى وجهك في المرآة عبر السنين: تتقبل أنّ الصورة التي تراها هي ذاتها جميلة، مقبولة، كما كانت دائمًا، ولكن عندما يراك صديق قديم يقول لك مستغربًا: "ما الذي اصابك؟"

في اوائل 1995، القيت نظرة سريعة على تغيير الحياة في صقلية، عندما سمعت من ملحقي الصحافي اندريا سكروزاتي Andrea Scrosati ان جيرالدو ريفيرا Geraldo Rivera وهو شخصية معروفة في التلفزيون الاميريكي يريد المجيء إلى بالرمو ليضع تقريرًا خاصًّا عن المافيا. ويطلب مساعدتي ومساعدة ادارتي.

وصل ريفيرا في موعده، وبدأ يتعرف إلى المدينة. استقبلته ورحبت به، ثم حولت اهتمامي إلى عملي. وبدأت اتلقى التقارير من معاوني بأنه يطلب ويصر على تعيين مرافقين له. في هذه الحال، ومراعاة للضيافة الايطالية، وفّرتُ له بعض المرافقين. بعد يوم أو أكثر، أتى أحد المرافقين ليقول لي: "يطلب جيرالدو لنفسه سترة واقية من الرصاص".

اجرينا التحقيقات، واكتشفنا ان ريفيرا يعمل لوضع فرقته من الممثلين في ساحة وسط المدينة، وبعد تقديم عَرْضه يريد ان يقف بشكل مأسوي ويخلع بذلته ليظهر أنها واقية من الرصاص، وتكون شاهدة على خطورة الحياة في بالرمو.

لم أحسد جيرالدو على ادعائه المجنون بأن حياته في خطر، لكن كل هذه المسرحيات السخيفة التي استعملها جعلتني ألمس كم تغيرت حياتنا المدنية في السنوات الاخيرة، وكم هو سخيف ان تأخذ صورة مع بذلة لا يخترقها الرصاص في وسط بالرمو. هذه كانت اخبار الأمس. نحن اليوم مجتمع يسوده القانون والنظام لدرجة تجعلني أقدر مجتمعًا أصبحت فيه الجريمة نادرة بعد ان كانت واقعة يومية. هذه قصة بالرمو المشوقة، قصة لم يكن بمقدور محقق صحافي مهم ان يلتقطها. خلال تلك السنوات كلها كنا المنطقة الوحيدة في ايطاليا التي تَنقل اخبارَها يوميًا وسائلُ الاعلام العالمية. واشتهرنا في العالم بشيء واحد: المافيا. ولكن شيئًا حدث. الآن هذه الحقيقة القديمة التي اوجدناها وصورناها، والتي عادت لتراودنا بالصور التي التقطها فرنسيس فورد كوبولا Francis Ford Coppola وغيره، لم تعد قائمة أو صحيحة. على العالم أجمع ان يتعلم شيئًا آخر من بالرمو، وهو ان ينهض بالمدنية والمواطنة لا ببذلات لا يخترقها الرصاص.

لو حاول ريفيرا أن يكتب هذه القصة، قصة بالرمو الحقيقية في أواسط التسعينات، لوجد مظاهر مذهلة. مثلا الطريقة التي قطعنا بها المداخيل بين زعماء المافيا والعسكريين الذين كانوا مولجين بحراستهم، والتي بدأت في مؤسسة السجون المركزية.

مع السنين اتقنت الكوزانوسترا صورة ممسوخة عن الضمان الاجتماعي، ممسكة بيدها جميع مظاهر العمل الاجتماعي للعائلة عندما يذهب أحد افرادها إلى السجن، فكانت تعتني بأولادها وتعطيهم رشوات شهرية، لتبقى النساء امينات على عهد ازواجهن.

بدأنا نكسر هذا النظام. اردنا ان نوفّر لهؤلاء الجنود من المراتب الدنيا في الجيش مكانًا يستطيعون فيه ان يحصلوا على شهادات عقارية تتعلق بالضرائب وغيرها من الاشياء من دون ان يكونوا في حاجة لشبكة الكوزانوسترا. انشأنا مراكز يستطيع ان يلعب فيها اولادهم، ووفّرنا للزوجات عملا يساعدهن على تدبير الشأن العام في المدينة فلا يبقين بحاجة إلى مساعدة المافيا الشهرية. فَعَلْنا ذلك لأننا نعلم أنَّ كل سجين كان

يعيل عشرة اشخاص او ما يقارب هذا العدد. اذا بقي في فلك المافيا يبقون هم ايضا، واذا انفصل عنها ربما تبعوه.

شجعنا هؤلاء السجناء على ايجاد عمل شريف بعد انتهاء مدتهم في السجن، وقمنا بجهود خاصة لانشاء تعاونيات. أولى هذه التعاونيات وأكبرها كانت بريتوريا بلليني Pretoria Bellini، فعمل فيها العشرات من السجناء سابقًا. عُهد الى هذه التعاونية بتنظيف المعالم الاثرية مثل سباسيمو وهو مكان تقيم فيه المافيا اجتماعاتها. عندما قررت بالرمو ان تقيم في الهواء الطلق حفلة موسيقية كبيرة لاحياء ذكرى فالكوني وبورسيللينو، في نفس المكان الذي قبض فيه على توتو رينا، ساعدت تعاونية بريتوريا بلليني في التحضيرات.

هذه هي القصة الحقيقية مع رمزيّتها ومغزاها، القصّة التي يجب ان يصورها التلفزيون حية. ولكن ملحقي الصحافي اندريا نصحني بأن هذا لا يثير اهتمام ريفيرا، وقال لي: "الأفضل ان نوقف العمل معه". وهكذا توقّفنا عن التعامل مع برنامجه، وعاد جيرالدو ببذلته الواقية من الرصاص إلى بلده.

| | |

في 26 أيلول 1995، امتلأت بالرمو مرة أخرى بالصحافيين الذين أتوا من كل أنحاء العالم لتغطية أحداث محاكمة كما كان ذلك منذ عشر سنوات. لم يكن عدد المدّعى عليهم كبيرًا هذه المرة كما في المحاكمة الكبرى بل كان واحدًا فقط: جيوليو اندرييوتي Giulio Andreotti، وكان على رأس النيابة العامة في بالرمو، هذه المرة جييونكارلو كازيللي Giancarlo Caselli الذي ادعى رسميا على اندرييوتي لكونه متورطًا مع المافيا. وكان قد سبق هذا ادعاء سابق سنة 1993، وبعد سنتين توسع الادعاء ليطول "التورط المباشر" مع المافيا.

اليوم وفي نهاية عمله الطويل، اندرييوتي الذي لقبه المعجبون به "بالثعلب"، والذي اطلق عليه الآخرون لقب "بعل زبوب" beelzebub، هو عضو في مجلس الشيوخ مدى الحياة. وكان قد جعل من نفسه رمزا لايطاليا في زمن ما بعد الحرب. واليوم محاكمته هي اختبار تاريخي في صقلية.

ان الادعاء على اندرييوتي يجمع كل تناقضات السياسة الايطالية للربع الأخير من القرن العشرين. وقد ورد بشكل بارز في المحاكمة اسم رجل المصارف ميكايل سيندونا Michael Sindona الذي استغل علاقاته مع الفاتيكان ليقيم امبراطورية واسعة من المصارف على جهتي الاطلسي، وقد اطلق عليه اندرييوتي في اوائل السبعينات لقب "مُخلِّص الليرة" The savior of the Lira. وبالتالي انهارت امبراطوريته، وكان متورطًا بعمليات تزوير مصرفية لدرجة كادت تزعزع استقرار بنك ايطاليا Bank of Italy. هرب سيندونا إلى الولايات المتحدة الاميريكية حيث ورطته السلطات الاميريكية باعمال الرشوة والغش والاحتيال وسوء الائتمان، وكان له على الأقل لقاء مع اندرييوتي. افتعل عملية خطف لنفسه، وعاد إلى صقلية سنة 1979، حيث عاش تحميه المافيا قبل ان يجول في العواصم الاوروبية الاخرى، وعاد أخيرًا إلى نيويورك كضيف عند عائلة غامبينو. اعيد سيندونا إلى ايطاليا للمحاكمة، وحكم عليه بالسجن مع حراسة مشددة، حيث توفي بعد تناوله كأسا من القهوة المسممة.

قدم المدعون العامّون ملفًّا معقدًا بشأنه، وادعوا أن علاقة اندرييوتي بصقلية كانت دائمًا سالفو ليما الذي رفع حصة صقلية في اصوات الحزب الديمقراطي المسيحي من 2 إلى 10 بالمئة. واضافوا أن ليما قابل فيتو تشيانتشيمينو في روما في اواسط السبعينات لتوطيد العلاقة التي ضمت ايضا ابناء عم سالفو، وكلهم يشيرون إلى اندريوتي باستعمال رمز "العم" uncle.

اظهرت النيابة العامة انه حين ابيدت فرقة Bontate في الحرب العالمية الثانية، حل الكورليونيون محلها في العلاقة مع اندرييوتي من خلال آل سالفو وليما الذين، ولو

كانوا على علاقة مع الجانب الخاسر سمح لهم بالحياة لاعتبارهم "بين الاثنين". هذه العلاقة الجديدة فسختها المحاكمة الكبرى والاستئنافات الشرعية التي تبعتها. وكان مفترضًا ان يتم لقاء لتوضيح الاشياء في منزل انيازيو سالفو حضره ليما وتوتو ريينا اللذان قبَّلا اندرييوتي. ولكن الكورليونيون انسحبوا في استئناف المجلس الأعلى عندما تخلى عن مساعدتهم حلفاؤهم الاقوياء في الحزب الديمقراطي المسيحي.

استمعت النيابة العامة إلى أكثر من أربع مئة شهادة، وارتكز الادعاء ضد اندرييوتي بشدة على شهادات بانتيتي Pentiti. وقد سُمِعت شهادات كثيرين منهم: فرنسيسكو مانويا تكلم عن علاقة اندرييوتي مع فرقة بونتاتيه. وليوناردو ماسيمو عن علاقة اندرييوتي مع ليما وتشيانتشيمينو وآل سالفو. اما بالداسار دي ماجيو، احد زبائن ريينا السابقين فذكّره بالقبلة.

أهم من ذلك، عاد توماسو بوسيتا من الولايات المتحدة، حيث كان يقيم في ظل برنامج حماية الشهادة ليدلي بشهادته. وعندما سرد كل ما يعرفه عن عمليات المافيا العسكرية، كان يتوقف عمدًا دائمًا ليتكلم عن العلاقات السياسية مع المافيا، وربّما اضاف ما لا يُصَدَّق لغرابته، لكنها اشياء يعرفها.

وعندما زعم محامي الدفاع ان بوسيتا يفبرك شهادة لم يدل بها سابقًا، اتصلت النيابة العامة بالمحامي الفدرالي في الولايات المتحدة الاميريكية ريتشارد مارتان Richard Martin طالبة إليه الحضور. وكان مارتان قد وضع تقارير موجزة عن بوسيتا في الولايات المتحدة، واستعمل المعلومات في قضية صلة البتزا، وشهد بأنه عندما سأل بوسيتا في اواسط الثمانينات البوح بما يعرفه عن مقتنيات المافيا السياسية، امتنع هذا عن الاجابة قائلاً أنه لا يستطيع ذلك لأسباب عميقة لا تمكنه من الدخول في هذا الموضوع. فأصرّ مارتان Martin على أن يقول ما يعرفه، فأجابه بوسيتا بكلمة واحدة: "اندرييوتي" Andreotti.

ارتبط جزء من الادعاء العام بصور ليتيزيا باتاغليا التي التقطت آلاف الصور عن الوظائف الرسمية في بالرمو عبر السنين. وبالرجوع إلى وثائقها وجد المحققون صورا لاندرييوتي مع ابناء عم سالفو الذين زعم انه لم يصادفهم قطّ. أنكر اندرييوتي هذه الادعاءات، وقال أن الصور التقطت عشوائيًا اثناء وظيفته، وهو يستقبل اشخاصًا كثيرين لا يعرف خلفياتهم أو أي شيء عنهم.

استمرت محاكمة اندرييوتي أربع سنوات، وصدر الحكم في اكتوبر 1999 بعد اربع سنوات من السجال القانوني. اندرييوتي ليس مذنبًا بالاستناد إلى مادة خاصة من القانون، مما أكده القاضي اثناء قراءته للحكم الذي يرتكز على "بيّنات غير كافية".

ومع ان علاقة اندرييوتي السياسية والشخصية كانت ثابتة مع سالفو ليما جاء في قرار المحاكمة: "قبل وبعد انخراطه في فرقة اندرييوتياني Andreottiani faction اقام اندرييوتي علاقة دائمة مع كوزانوسترا، وحوّل فرقة اندرييوتياني في صقلية إلى جهاز في خدمة المافيا. اضاف القرار أنّ النيابة العامة لم تثبت أنّ اندرييوتي شخصيا كان له تصرفات يمكن اعتبارها ذات نتائج اجرامية. واضافت المحكمة أن علاقات اندرييوتي مع فيتو تشييانتشيمينو تظهر "لا مبالاة" من قبله، بالنظر إلى علاقات تشييانتشيمينو المشهورة بقباحتها مع المافيا، ومن جهة اخرى هذا بكل وضوح لا يعني تجمُّعًا غير شرعي.

استأنف مكتب النيابة العامة هذا القرار، والقانون الايطالي يسمح بذلك. سيعاد درس القضية امام المجلس الأعلى، وربما يكون التاريخ هو القاضي الاخير في هذه القضية.

| | |

أحد الأقوال التي أفضّلها هي للكاتب الشهير التشيكي ميلان كونديرا Milan Kundera: "انتصار الانسان على السلطة هو انتصار الذاكرة على النسيان". أهمية حفظ الذاكرة حية ليست كي لا يعيد التاريخ نفسه فقط، ولكن ايضا لكي نستمر بأخذ العبر من الماضي.

اليوم، في صقلية، تستعمل فيلّلا، كان يملكها سابقًا "لورد" مافياوي كبير مشهور بتجارة المخدرات، كمركز لمعالجة المدمنين الطبية.

تسع وثلاثون عائلة مشردة خصص لها من مدة قريبة مساكن كان يملكها فيتو تشيانتشيمينو.

عدد من الراهبات يُشرفن على مركز للبنات – الامهات اللواتي طردن من عائلاتهن أُنْشِئَ في فيلّلا كان يملكها مافيوي آخر.

في تشيياكولا Ciaculla اراض زراعية واسعة، كان يملكها فرع من عائلة غريكو Greco، اصبحت ملكا لبالرمو، وتستعمل للتجارب والاختبارات الزراعية.

هذا بعض ما وضعت عليه اليد، وإنّنا نروج اعلاميًا لكل منه، وهو احدى الوسائل كي ننتصر على النسيان.

طريقة أخرى نستعملها من خبرتنا التاريخية، وهي المساعدة على مقاومة الجريمة المنظمة في البلاد الاخرى. وقد اصبحت بالرمو رمزًا لهذه المقاومة في كانون الاول 2000، عندما أتى أكثر من الف مندوب من 143 بلدًا، وأكثر من ستة مئة صحافي تجمعوا في بالرمو لتوقيع اتفاقية الأمم المتحدة ضد الجريمة الدولية المنظمة United Nations Convention Against Transnational Organized Crime.

ترمي هذه المعاهدة إلى التعاون في الحرب ضد المافيات الدولية بكل اشكالها، هذه الحرب التي امتنعت الأمم المتحدة عن أن تعيرها اهتماماتها القصوى لتطبيق القانون في القرن الواحد والعشرين. هذه المعاهدة تهدم جدران السريّة المصرفية، وتنعت بالاجرامية

التجمعات المافيوية والمشابهة لها، وتسهل طرد المجرمين إلى بلادهم، وتبسط عملية الاطلاع الدولي على الشهادة، وتقوي الجهود لمنع الاتجار بالمخدرات وبالأشخاص، وتجعل تبييض الأموال الدولية اكثر صعوبة وأعلى تكاليف للجريمة المنظمة.

كان توقيع هذه الاتفاقية مناسبة مهيبة بمغزاها التاريخي لنا، وخصوصا نحن الذين عشنا في صقلية في النصف الثاني من القرن العشرين. دام المؤتمر أربعة ايام استعمل خلالها المندوبون تجربة بالرمو كنقطة انطلاق، وبيّنوا كيف ان المربين والتجمعات المدنية والاعلام والكنيسة عملت جنبًا إلى جنب لتطبيق القانون وتمكنت من تغيير المجتمعات التي تخنقها عدوى الاجرام والفساد. في هذه الأيام من كانون الاول 2000، نشأت انتي مافيا دولية في وسط مدينتنا، ميزها نور شمس رهيب وجوّ جميل في غير اوانه.

انا بطبيعتي رجل عقلاني، لكنّي افكر في أن في العلاء واحدًا Someone اعطانا هدية لبالرمو. وبعد ان كانت بالرمو لمدة طويلة مكانًا مكفهرًا ودمويًا يراها العالم اليوم تشع جميلة بهية.

| | |

لم يكن قطّ لصقلية خلال تاريخها الطويل ابطال عسكريون. لم يُنصَبْ في صقلية تماثيل للمحاربين. بالنسبة الينا، البطولة كانت دائما مرتبطة بالوعي الاجتماعي. نكرم الكارابينيري العسكريين carabinieri الذين سقطوا شهداء في الحرب العالمية الثانية لينقذوا الشعب البريء من ظلم النازية الغاشم. وبعدها عندنا امثال مثيرة لرجال الأمن وللسيدات وللقضاة وللسياسيين الذين اعطوا حياتهم ليخلصوا البلاد من بلية قبيحة كالفاشية.

محاولة المافيا باقناعنا ان عناصرها كانوا من العسكريين "الشرفاء" honorables الذين يدافعون عن القيم الصقلية الحقيقية كانت مزحة مأسوية. اذا نحن –

الذين نُظِرَ الينا وكأننا شعب حقير لأننا سمحنا لانفسنا بأن نكون مستعبدين – تمكّنا من الخروج من هذا الوباء يمكن كذلك لروسيا ولسائر البلدان الاخرى ان تنجيَ نفسها من قبضة الاجرام التي تخنقها.

ثمّة هؤلاء الذين نظروا بحق إلى ان الحرب ضد الشيوعية كانت المعركة المهمة في القرن العشرين. فاليوم سقطت الشيوعية، والجبهة الجديدة لصيانة الحرية والديمقراطية هي المعركة ضد الاجرامية الدولية. وبصورة خاصة في بعض الدول المحررة مؤخرًا من الشيوعية، اخذت المافيا مكانها لتسيطر على حياة الشعوب. وإذا سُمِح لذلك بالحدوث، فعلى الشعب ان يقول كما قال بعض الصقليين إبّان حربنا: "كنّا افضل عندما كانت الاحوال أسوأ". هذا استنتاج يجب رفضه، لأنه يحط من معنويات الشعوب ويحبط عزمهما.

وكالحكم الاستبدادي، المافيا تنزع الحرية، وتميت الديمقراطية، وتجعل النمو الاقتصادي مستحيلاً، وتقتل مفهوم المواطنية. وكما نعرف في بالرمو، فعندما يتحطم الحكم الاستبدادي تتفتح براعم العقل الانساني وقدراته.

كلمة شكر

هذا الكتاب فصل من حياتي، كما هو ايضا فصل من تاريخ صقلية قبل عبورها إلى الألفية الثالثة.

ما اريد اضافته هو ان هذا الكتاب سمح لي بأن اطلب السماح من ميلّي، رفيقة العمر التي لم اشاهدها ايام تزحلقها على الجليد وشعرها المجدل، واليونورا وليلى ابنتينا اللتين ايضا عاشتا دون والدهما ايامهما اللذيذة التي أصبحت اليوم بعيدة، ايام تزحلقهما على الجليد وشعرهما المجدل.

كلمة شكر إلى صهري الذي اصبح ابنا لي، والذي اعتنى بإليونورا وجعل مني جدًّا سعيدًا. وأشكر ايضا اندريا سكروزاتي الذي كان بقربي في الايام الجميلة وتلك المكفهرة من حياتي، وإنزو لو داتو Enzo Lo Dato الذي خلفني ونسق بين ارادة التغيير واحترام القوانين، وسيسيليا توديشيني Cecilia Todischini صديقتي ورفيقتي في معركة النهضة بصقلية منذ البداية.

وأخيرًا إلى والديَّ، سالفاتوريه واليونورا، وإلى حفيدي باولو الذي أحبّه كولدي وكحفيدي، مع وعدي الصادق بأن أبقى كما كنت.

سيرة ذاتية مشوقة ومضطربة
وانتصار على الموت

نشأ ليولوكا اورلندو في عائلة ارستقراطية في بالرمو، تمامًا عندما بدأت تظهر في صقلية عصابة جديدة وفاسدة بشكل غريب، المافيا، وتتمركز في مدينة كورليونيه Corleone. كانت تجني المافيا ارباحها من تجارة الهيروبين الدولية. اغرقت مافيا العصابات هذه صقلية في عهد من الرعب، وحولتها كما يقول المؤلف إلى لبنان ايطاليا، وملأت صفحات الجرائد بصور الجثث. لا جثث أعداء المافيا فقط، بل جثث رجال الأمن والقضاة ورجال الحكم أيضًا.

مقاومة المافيا هي قصة حرب الثلاثين سنة، والدور الذي لعبه ليولوكا اورلندو في الانتي مافيا. تميزت سنواته الأولى كطالب في الحقوق وناشط بدرايته لنظام الصمت الذي سمح للكوزانوسترا بالدخول إلى عمق الصقليين منذ مئة سنة. اظهرت حركة التجديد التي التزمها ان عقلية المافيا تسللت إلى الكنيسة والثقافة والسياسة ومؤسساتها واخترقتها، واكثر من ذلك الادراك الذي أوجدته لنفسها بأن المافيويّين هم "رجال شرف". قادت السياسة اورلندو ليصبح عضوًا للمجلس البلدي في بالرمو ثم محافظ المدينة. وقد أوجد اسلوبًا جديدًا ومستقلاً ليخلق ثقافة حقوقية، واصبح احد الثلاثة الذين قادوا المقاومة ضد الكوزانوسترا. ومنذ بدأ نشاطه وضعته المافيا على لائحة من تريد النيل منهم: جيوفاني فالكونيه وباولو بورسيللينو، وهو كان "ممرّكًا" للموت. وعلى عكس فالكونيه وبورسيللينو اللذين قتلا بانفجار سيارات مفخخة، هرب إلى جيورجيا السوفياتية منفيًا لوقت قصير، ثم عاد ليتابع حياته بين مرافقين مسلحين، ويتنقل من مكان إلى آخر في سيارة مصفحة، محاولاً انهاء القتال ونجدة بلاده وخلاص شعب صقلية من قبضة المافيا.

تجول جماعة وجوه بارزة عبر هذه السيرة الذاتية.

كان الموت يستنزف بالرمو من بعض أملها وعزمها. عندما اغتيل الجنرال **كارلو البرتو دالا كييزا**، الذي اشتهر باخضاع الألوية الحمراء في بالرمو سنة 1982، عرضت الصحف جثته المضرّجة بالدم، وجثة زوجته الشابة بقربه تحت العنوان الرئيسي: "هنا دفنت آمال أهل بالرمو الشرفاء". ثم سنة 1992 دفنت الامنيات مجدَّدًا عندما قتل بانفجار سيارات مفخخة **جيوفاني فالكوني وباولو بورسيللينو**، القاضيان الشجاعان اللذان جلبا المافيا للمحاكمة في أشْهَر محاكمة دولية.

ولكن في أشد الساعات ظلامًا، ولو لم نكن نعرفه بعد، كان ثمّة حياة جديدة تُجلجل وتنتظر، وكانت احدى علاماتها الاعلان الذي كتب بخط اليد بعد استشهاد فالكوني وبورسيللينو: "اليوم بزغ فجر سوف لا يعرف الافول".

مقاومة المافيا هي شهادة حياة وانتصار على الموت تمر على ما أنجزه ليولوكا اورلندو لابعاد المافيا من قمة الحياة السياسية الوطنية في ايطاليا، وعمله الدؤوب، عبر حركة سياسية ومدنية في المدارس والكنائس والاحياء وفي صناديق الاقتراع، لمقاومة المافيا ولاطلاق نهضة ديمقراطية.

***

ليولوكا اورلندو هو محافظ بالرمو في التسعينات، وعضو سابق في البرلمان الايطالي وفي البرلمان الاوروبي، نال جائزة بيار روستين لحقوق الانسان لسنة 2000 من تجمع الاساتذة الاميركيين Bayard Rustin Human Rights Award by American Federation Teachers for 2000.

***

تعريب افلين ابو متري مسرّه، مجازة في علم السياسة، خريجة الدورة الاولى في معهد الاعداد والتدريب، رئيسة دائرة التشريع ودائرة الضرائب غير المباشرة سابقًا في وزارة المال.